



رحلة

الكاتب الأديب البارع اللبيب

أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير

الكفاني الأندلسي البلسي

تغمده الله برحمته



مقدمة

بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة

لأجل ذاته ، وجب الرحلة لتدوين المشاهدات ،
أثر ملموس في عدد المؤلفات التي وصلت إلينا
من تراث المسلمين .

ومن هذه كتاب رحلة ابن جبير المعروف
باسم « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » ،
الذي كتبه مؤلفه حوالي سنة ٥٨٢ هـ
(١١٨٦ م) ، وتداولته أيدي القراء مخطوطا
في الشرق والغرب ، حتى قام على نشره وطبعه
ويليام رايت (William Wright) الانجليزي
سنة ١٨٥٢ م ، وراجعه بعده دي خويه
(De Goeje) الهولندي سنة ١٩٠٧ ، في الجزء
الخامس من سلسلة جب التذكارية تحت اسم :
(Travels of Ibn Jubayr. E. W. Gibb. Mem.
Series. V. 1907)

كان ابن جبير عربيا أندلسيا ، واسمه
أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى ، وقد
ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ،
وتعلم على أبيه وغيره من علماء عصره . ثم
استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن
ملك الموحدين في وظيفة كاتب سره ، فاستوطن
من وقتئذ غرناطة .

ويقال ان الأمير أبا سعيد استدعاه يوما
ليكتب عنه كتابا وهو على شرابه ، فمد يده
إليه بقدح من نبيذ ، فاعتذر ابن جبير وأبى
واسترجع ، فأقسم عليه الأمير يمينا مغلفة

ورثت الدولة الاسلامية من امبراطورية
الرومان القديمة معظم أقاليم البحر الأبيض
المتوسط ، كمصر وشمالى افريقية والأندلس
وصقلية والشام والعراق الأعلى .

واستخدمت وسائل الحكم ونظم الادارة
الرومانية بهذه الأقاليم المفتوحة ، لتدعيم
سلطانها الجديد هناك ، ومن تلك الوسائل
الطرق الرومانية المعبدة ، ونظام البريد الذى
ينم اسمه عن أصله اللاتينى فيريدى (Veredii)
ومعناه خيل البريد ، والدينار وهو معرب
اللفظ ديناريوس (Denarius) .

على أن دولة المسلمين قد فاقت امبراطورية
الرومان فى فتوحها وأملاكها ، وقد استلزم
ذلك فضلا عما كان هنالك من قبل كثيرا من
طرق البريد ومصانعه وموظفيه ، مما توجد
تفاصيله فى الكتب العربية التى ألقت لارشاد
العاملين فى تلك الناحية من الادارة الاسلامية ،
وهذه الكتب هى أول ما كتب المسلمون فى
وصف البلاد التى خضعت لحكمهم .

على أن اهتمام المسلمين بجغرافية فتوحهم
وما يجاورها من البلاد ، وتأليفهم وترجمتهم
للكتب فى الجغرافية الوصفية ، لم ينشأ عن
ضرورات الادارة والبريد وضبط الضرائب
فحسب ، بل كان لتأدية فريضة الحج ، والتجارة
فى البر والبحر ، والاشتغال بالجغرافيا كعلم

ليشرين منها سبعا ، فشربها صاغرا ، ثم ردها عليه أبو سعيد سبع أقداح من الدنانير .

لذلك أزمع ابن جبير الحج بتلك الدنانير تكفيرا عن خطيئته ، وأقام في سفره سنتين ، ودون مشاهداته وملاحظاته في يوميات هي المعروفة برحلة ابن جبير ، فجاءت مدونة وافية لجميع ما شاهده ، وصفحة واضحة لبعض تاريخ البلاد الاسلامية والمسيحية التي مر بها ، وقاموسا لمصطلح عصره في بناء السفن والملاحة البحرية ، وثبتا بأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم في أواخر القرن السادس الهجري ، وهذا فضلا عن أنها كانت - على ما يظهر لي - كتاب دعاية لدولة الموحدين ، تمنى ابن جبير فيه أكثر من مرة أن يمتد نفوذ تلك الدولة شرقا الى مصر والحجاز .

ترك ابن جبير غرناطة مع صديق اسمه أحمد ابن حسان ، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٣) ، الى جزيرة الطريف (الطرف الأغر) ، وعبر البحر من هناك الى سبتة (Cutae) ، فألقى بها سفينة للجنوية (Genoese) مقلعة الى الاسكندرية ، فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير) .

وسارت السفينة عبر الزقاق (Denia) ، (Gibraltar) مساحلة شاطئ الأندلس حتى ثغر دانية ، ثم اتجهت غربا فمرت بجزائر ميورقة ومينورقة وسردانية ، وطراً عليها قبالة بر سردانية نوء وأمواج كادت تقذف بها الى حيث أتت ، ثم استطاع رانسها أن يصل بها الى الشاطئ السرداني ، فجدد المسافرون هناك الماء وامتاروا .

ثم أقلعت المركب تريد جزيرة صقلية ، فوصلت اليها على متن ريج عاتية ، وأرست على شاطئها عند موضع لم يذكره ابن جبير . ثم فارقت بر صقلية ، واتجهت غربا حتى حاذت بر جزيرة اقريطش (Crete) تقديرا لا عيانا ، واستقر بها النوى أخيرا عند الاسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة (٢٦ مارس) ، أى أنها استغرقت في سفرها من جزيرة الطريف الى الاسكندرية ثلاثين يوما .

كان أول ما شاهده ابن جبير بشعر الاسكندرية أن طلع أمناء السلطان - وهو وقتئذ صلاح الدين الأيوبي - الى المركب ، وطلبوا جميع من كان فيها من المسلمين واحدا واحدا ، لتقييد أسمائهم وصفاتهم وبضائعهم قبل النزول الى البر .

وقد آلم ابن جبير أن يطلب الى المسافرين - وهم حجاج مسلمون ، لم يستصحبوا معهم سوى زاد طريقهم - أن يؤدوا الزكاة عن جميع ما معهم ، من غير تفرقة بين ما كان ولم يكن قد حال عليه الخول .

ثم طاف ابن جبير بالمدينة ، فزار المنار ، وصلى بالمسجد المشيد في أعلاه ، وشاهد بقايا العمائر البطلموسية والرومانية ، وذكر المدرسة والمارستان المخصصين للغرباء ، كما لاحظ كثرة المساجد بالاسكندرية بحيث كانت منها الأربعة والخمسة في موضع واحد ، وربما كانت مبنية بعضها فوق بعض .

وقد شاهد ابن جبير وهو بالاسكندرية دخول جماعة كثيرة من أسرى الحملة الصليبية الجريئة التي كان أرنات (Renaut) de Châtillon

صاحب الكرك ، قد أنقذها ذلك العام في البحر الأحمر لغزو بلاد العرب والاستيلاء على مكة والمدينة ، ليصيب المسلمين في مقتلهم ، وصلاح الدين بعيد في شمالي الشام ، وقد فشلت هذه الحملة بعد أن قاربت سفنها ساحل الحجاز ، وكان أولئك الذين شاهدتهم ابن جبير من الأسرى جزءا مما وقع في أيدي المسلمين من جنودها .

انما يلاحظ أن ابن جبير أهمل أو أنسى أن يذكر أيضا ما حدث لبقية المسافرين من الفرنجة والروم والجنويين على يد عمال صلاح الدين بالاسكندرية ، وهذا نقص يؤسف له ، لو تداركه ابن جبير بجملة من قلمه لساعد المشتغلين بتاريخ الحروب الصليبية على وزن الحقائق المعروفة بصدد معاملة المسيحيين في الموانئ الاسلامية من جديد ، ولأوجب عليهم القصد في العبارة المتواترة في كتب التاريخ القديمة بأن سوء معاملة الحجاج المسيحيين في الموانئ الاسلامية كان من أكبر الأسباب التي أثارت أوروبا للحروب الصليبية .

ثم رحل ابن جبير عن الاسكندرية يوم الأحد ٨ ذى الحجة (٣ ابريل) الى القاهرة ، حيث نزل بفندق أبى الشاء بزقاق القناديل قرب جامع عمرو بن العاص .

وأقام ابن جبير بالقاهرة أياما زار في أثناءها مسجد الحسين ، حيث رأى في جدار الحائط الذى يستقبله الداخل حجرا شديدا السواد ، والبصيص فيه يصف الأشخاص كلها كأنه المرأة الحديثة الصقل .

ثم زار القرافة ، ومسجد الشافعى ، والمدرسة الناصرية التى بناها بجواره السلطان صلاح الدين ، وقد وصف ابن جبير تلك المدرسة بأنه لم يعمر بهذه البلاد مثلها سعة ، « يخل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بازائها الحمام الى غير ذلك من مرافقها » .

ولقد لقي ابن جبير شيخ هذه المدرسة وهو نجم الدين الجبوشانى ، ولم يلق من رجال مصر سواه ، وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضى الفاضل ، ووصف لنا بعض أولئك الرجال الذين أسسوا الدولة الأيوبية فى مصر ، على أنه لم يفوت مناسبة بغير أن يشيد بذكر صلاح الدين وأعماله وحسن سيرته فى بلاد الشرق الأدنى ، وقد صورته فى عبارة أنيقة دقيقة فقال :

« انه لا يأوى لراحة ، ولا يخلد الى دعة ، ولا يزال سرجه مجلسه ، وسمعنا أحد فقهاء ... المسلمين بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه ... ثلاث مناقب فى ثلاث كلمات حكاهما عنه : احداها أن الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه ، أما أنا فلان أخطيء فى العفو أحب الى من أن أصيب فى العقوبة ، وقال أيضا ، وقد تنوشدت بحضرته الأشعار ، وجرى ذكر من سلف من أكارم العرب وأجوادهم : والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما فى خزائنى لما كان عوضا مما أراقه من حر ماء وجهه فى استمناحه إياى ... »

مرس من الأديم المقتول رقيق طويل ، فى طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده فى الهواء نفضا فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه ، كأنه ايدان بوصول الخطيب ، لا يزال فى نفضها الى أن يقرب من المنبر ، ويسمونها الفرقة » .

ومما شاهده ابن جبير بالقاهرة القلعة ، ولما يكتمل بناؤها ، كما عين سور القاهرة والخندق المحدث به ، والقناطر التى ابتناها صلاح الدين من قرب الجيزة الحالية على امتداد طريق الاسكندرية الصحراوى ، وكان القائم على ذلك كله بهاء الدين قراقوش .

وقد بين ابن جبير أن صلاح الدين أراد أن يتخذ من القلعة سكنا وحصنا ، وأن يمد فى السور حتى ينتظم مصر والقاهرة ، وأن يجعل من القناطر سدا يدفع به عادية الطامعين فى مصر من أهل المغرب وبقايا الفاطميين ، ولاحظ أيضا أن جميع المسخرين لتلك المنشآت كان من أسرى الفرنج .

وهذا كله صحيح متواتر فى المراجع المعاصرة ، وهو دليل على دقة ابن جبير وصحة استقصائه . غير أنه قرر وجود مارستانين لصلاح الدين بالقاهرة ومصر ، وشرح رسم أولهما ، وقال أن الثانى على مثل ذلك الرسم بعينه . على أنه ليس من المعروف أن صلاح الدين ابتنى مارستانا ما على نسق ما ابتناه مخدمه نور الدين بن زنكى بدمشق ، ما عدا أنه أمر بأن تعمل خزانة الأشربة التى كانت للقصر الكبير الفاطمى مارستانا للمرضى .

ولعل ابن جبير رأى فعلا مارستان أحمد بن طولون بين القاهرة ومصر ، فظنه أيضا من

وحضره أحد مماليكه المميزين (كذا) لديه بالخطوة والأثره مستعديا على جمال ذكر أنه باعه جملا معيبا ... ، فقال السلطان له : ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعمامة ... ، وانما أنا عبد الشرع ... ، فالحق يقضى لك أو عليك ... » .

هذه صورة لصلاح الدين الذى تم على يده تأسيس الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، وكان له الفضل فى إعادة السنية اليهما . وكان صلاح الدين قد أبدل الدعاء للفاطميين من منابر القاهرة بالدعوة لبنى العباس منذ المحرم سنة ٥٦٧ (سبتمبر سنة ١١٧١) ، وقد لاحظ ابن جبير ذلك فى كثير من الاغتباط .

وترك فى يوسياته صورة دقيقة لخطيب الجمعة كما رآه بالقاهرة ، اذ « يأتى للخطبة لابس السواد على رسم العباسية ، وصيفة لباسه برودة سوداء عليها طيلسان شرب أسود ، وهو الذى يسمى بالمغرب الاحرام ، وعمامة سوداء ، متقلدا سيفا ، وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين ، كأنها ايدان بالانصات ، وفى توسطه أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثالثة ، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا ، ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض ، قد ركزتا فى أعلى المنبر » .

وقد لاحظ ابن جبير مثل ذلك بمكة ، وزاد عليه أن الخطيب دخل الحرم « يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين ، وبين يديه ساعيا أحد القومة ، وفى يده عود مخروط أحمر قد ربط فى رأسه

مستحدثات صلاح الدين ، وكان جامع ابن طولون قد تحول في ذلك العهد الى مأوى للغرباء من أهل المغرب يسكنون ويحلقون فيه ، أى يعقدون حلقات الدرس به .

وقد زار ابن جبير أهرام الجيزة الثلاثة ، ووصفها وصفا يدل على أنها كانت فى أيام صلاح الدين مثلما هى عليه الآن تقريبا ، وسمى هرمى خوفو وخفرع باسم «الكبيرين» وهرم منقرع باسم «الصغير» ، وذكر أنه كان دون هذا «الصغير» خمسة صغار متصلة ، فكانه رأى الهرم الرابع ، كما رأى تمثال أبى الهول ، وسماه باسم «أبى الأهوال» .

وقد زار ابن جبير عدا ذلك بلدة الجيزة ، وجزيرة الروضة ، ومقياس النيل ، وجامع عمرو بالقسطاط ، حيث شاهد بعض آثار الحريق الذى أحدثه بها الصليبيون فى أواخر أيام الدولة الفاطمية .

ثم سافر ابن جبير من القاهرة فى النيل الى قوص ، فاجتاز على مدن الصعيد دون أن ينزل باحداها ، ما عدا المدن التى توقفت المركب عندها بأمر السلطات المحلية ، كمنية ابن خصيب وأسيوط وأخميم ، حيث أحصى المسافرون واستدفعوا الزكاة عن ما لديهم من المال كما حدث بالاسكندرية . وقد وصف ابن جبير هذه المطالب المتكررة بأنها سرقة مقنعة ، و « ادخال للأيدى الى أواسط التجار » .

ووصل ابن جبير الى قوص يوم الخميس ٢٤ محرم سنة ٥٧٩ (١٩ مايو سنة ١١٨٣) ، فوجد بها حافلة الأسواق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار من مصر والمغرب واليمن والهند والحشة .

ثم فصل منها الى عيذاب عن طريق الصحراء المشهور ، وهو طريق التجارة الدولية فى الفلفل وأنواع البهار التى انبتت على مكاسبها عظمة الدولتين الأيوبية والمملوكية ، كما انبتت عظمة الامبراطورية البريطانية على تجارة الشاي وتوابل الهند فى القرن الثامن عشر .

ولا مبالغة فى وصف ابن جبير لضخامة تلك التجارة ، حين قال انه رام فى هذه الطريق « احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن ، ولا سيما القوافل العيذاوية المتحملة لسلع الهند ، الواصلة الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب ... من ... أحمال الفلفل » فلقد خيل إلينا لكثرتة أنه يوازى التراب قيمة .

وقد امتدح ابن جبير أحوال الأمن العام فى هذا الطريق ، حين قال : « ومن عجب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذا السبيل اما لاعياء الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها الى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس » .

ووصل ابن جبير عيذاب ليعبر البحر الأحمر منها الى جدة ، فاكثرت مكانا فى إحدى السفن المخصصة لنقل الحجاج بين الثغرين ، واسمها الجلاب والواحدة جلبة .

وقد وصف ابن جبير هذه السفن وصفا فريدا فى مؤلفات المسلمين ، فقال بأنها « ملفقة البناء ، لا يستعمل فيها مسنار البتة ،

نفسها في سبعين صفحة من كتابه ، فجاء وثيقة أثرية لتلك البقاع وأحوالها في أواخر القرن السادس الهجري .

ويتخلل هذا الوصف ملاحظات لابن جبير ذات أهمية في دراسة التاريخ الاسلامي : منها أن أهل الحجاز عامة كانوا يعتبرون الحجاج — وليس موسم الحج — من أعظم غلاتهم التي يستغلونها ، ينتهبونها انتهابا بأنواع المكوس ، وأن مكثرا الحسنى أمير مكة في ذلك الوقت ، لم يشذ عن بقية أهل الحجاز في جشعهم وترويعهم للحجاج ، وأن ما أحدثه السلطان صلاح الدين من ابطال هذه المكوس ، وتعويضه أمير مكة بمال وطعام يرسله اليه كل سنة ، عدا اقطاعات عينها له بصعيد مصر ، قد خفف كثيرا من متاعب الحجاج .

ومن ملاحظات ابن جبير أيضا أن أشرف مكة كانوا على مذهب الزيدية ، يزيدون في الأذان « حي على خير العمل » ، ولا يجتمعون مع الناس في الصلاة ، انما يؤمهم امام خاص . ومن ملاحظاته أيضا عادة التهنة بالهلال الجديد عند أهل مكة ، يتصافحون ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الأعياد ، وكان الأمير مكثرا يكر الى الجرم في أول كل شهر بجائسته وقواده وحرابته لاستقبال التهنة بالشهر الجديد ، باعتباره السلطان الحاضر في مكة ، على أن السيادة العليا كانت للخلافة العباسية ، فيدعو خطيب الجمعة للخليفة ، ثم لأمير مكة ، ثم للسلطان صلاح الدين ولولى عهده وأخيه العادل أبى بكر .

انما هي مخططة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل ، يدرسونه الى أن يتخيط ، ويقتلون منه أمراسا يخطون بها المراكب ، ويخللونها بدرس من عيدان النخل ، فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة ، سقوها بالسنن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم ، ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب ، لكثرة الشعب المعترضة في هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسارى . ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل ، فمجموعها متناسب في اختلال البنية ووهنها .

على أن أصحاب تلك السفن لم يبالوا بالحجاج أو راحتهم ، بل كان كل همهم أن يشحنوا بهم الجلاب ، حتى يجلس بعضهم على بعض كأنهم في أقباص الدجاج ، فيستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها في سفرة واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، وكان أصحاب تلك السفن يقولون علينا بالألواح (ألواح السفينة) وعلى الحجاج بالأرواح . والواقع أن هذه السفن لم تخلق في نفوس الحجاج شيئا من الطمأنينة ، وكفى قول ابن جبير في هذا الصدد انه وأصحابه في هذه الرحلة ماتوا مرارا وحيوا مرارا .

ثم فصل ابن جبير من جدة يوم ١١ ربيع الآخر ٥٧٩ (٢ أغسطس سنة ١١٨٣) قاصدا مكة ، فوصلها بعد ثلاثة أيام ، ودخلها من باب العمرة ، وطاف بالكعبة طواف القدوم . ثم طفق يتعرف على أماكن الزيارة ، وقد ترك وصفا دقيقا ضافيا للمسجد الحرام ومكة

وقد لاحظ ابن جبير في صلوات الجمعة بمكة أنه عندما يأتي الخطيب على ذكر صلاح الدين تخفق الألسنة بالتأمين من كل مكان ، اعترافا بفضلته على العالم الاسلامي عامة ، ولا عجب أن يفرد أهل السنة هذا السلطان بتأميناتهم الهائلة ، فقد هدم الدولة الفاطمية ودعوتها من مصر بغير حرب ، بعد أن عجزت الخلافة العباسية عن ذلك بمختلف الوسائل ، وهذا فضلا عما بلغه من التوفيق في الحروب ضد الصليبيين حتى آخر عهده .

وقد رأى ابن جبير وهو بمكة مقدم الملك سيف الاسلام طغتكين أخى صلاح الدين من مصر ، وكان في طريقه الى اليمن التي دانت للأيوبيين ، وقد وصف ابن جبير موكب هذا الملك وصفا دقيقا ، حيث مشى الأمير مكثر الى جانب طغتكين مشية التابع الخاضع ، والناس في موسم الحج من جميع الأقطار على جانبي الطريق ، وفي ذلك دلالة على أن هيبة الدولة الأيوبية كانت تفوق كل هيبة في عصرها .

الى هنا كان ابن جبير قد أقام بمكة ستة شهور قمرية تقريبا ، وهذه الحقيقة وحدها مما يؤكد لنا أن ما جاء بكتابه في وصف معالم مكة قد كتب عن رؤية وتحقيق .

ثم أهل شوال ، وهو فاتحة أشهر الحج ، فحج ابن جبير وترك في مدوته وصفا دقيقا لجميع المناسك والمراسم في عصره ، وذكر في خلال ذلك الوصف أعيان الحجاج ذاك العام من الرجال والنساء .

ثم رحل الى المدينة ، وأكمل حجته بزيارة المسجد النبوي ، كما أكمل كتابه بوصف ذلك

المسجد الشريف ، ولم يبق لديه من أغراض السفر سوى الرجوع الى وطنه .

غير أنه لم يرجع من حيث أتى ، بل رافق الركب الشامل لحاج العراق وخراسان وكردستان والشام ، فسار الى العراق في ٨ المحرم سنة ٥٨٠ (٢١ أبريل سنة ١١٨٤) ، واتبع طريقا طويلا الى الأندلس ، فأضاف الى مؤلفه قيمة جديدة بما دونه فيه من ملاحظات هامة عن كثير من مدن الشرق الأدنى وثغور البحر الأبيض المتوسط في عصره ، كما سيلي .

مر ابن جبير في طريقه الى العراق بالقادسية وكانت ابان الفتوح الاسلامية الأولى ثغرا من ثغور دولة الفرس ، وعندها انتصر سعد بن أبي وقاص بجيشه القليل على الجيوش الفارسية بقيادة رستم . وقد وجدها ابن جبير قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ، ومشارع من ماء الفرات .

ثم نزل على الكوفة ، وهي المدينة التي أمر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب بعد وقعة القادسية لتكون معسكرا دائما للمسلمين في فتوحهم الجديدة ، وقد صارت عاصمة للدولة الاسلامية في خلافة علي ، وفي أوائل أيام الخلافة العباسية أيضا ، وألفاها ابن جبير مدينة كبيرة عتيقة البناء ، قد استولى الخراب على أكثرها ، الغامر منها أكثر من الغامر .

ثم رحل الى الحلة ، وعبر الفرات عندها على جسر معقود على مراكب كبار متصلة من الشط الى الشط ، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد قد ربطت الى خشب مثبتة

فى كلا الشطرين ، وقد اجتاز ابن جبير بقرب
الحلة جسرا ثانيا على نهر يسمى النيل ، وهو
أحد فروع الفرات .

ثم وصل ابن جبير الى المدائن ، عاصمة
الدولة الفارسية قبل الاسلام ، فوجدها خرابا .
ودخل بغداد ، فأقام بها ثلاثة عشر يوما ،
وشاهد بها دور الخلافة والمدارس والحمامات ،
كما شاهد بجهاثها كثيرا من الخراب مما جعله
يقرر فى يومياته أن بغداد « وان لم تزل حضرة
الخلافة العباسية ... ، قد ذهب أكثر
رسمها ، ولم يبق منها الا شهير اسمها » .

وقد جاء وصف ابن جبير لأحوال بغداد
وثيقة تاريخية كبرى ، فهو بالاضافة الى ما
جاء فى كتاب الخطيب البغدادي مثلا أوضح
تصوير لعاصمة العباسيين قبيل كارثة المغول
على يد هولاكو وجنوده ، يرجع اليه المؤرخ
ليقارن بينه وبين وصف بغداد بعد ذلك
الحادث ، فيعرف بالضبط مدى ما أحدثته
المغول بها .

وفضلا عن ذلك ففى ثانيا وصف ابن جبير
لبغداد ملاحظات دقيقة فى أحوال الخلافة
العباسية فى أواخر القرن السادس ، منها وصف
ال خليفة الناصر لدين الله ، وقد رآه ابن جبير
مرتين وهو يتطلع من منظرته بالقصر الخلفى ،
فاذا به « فى فتاء من سنه ، أشقر اللحية
صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن
الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل
القامة ، رائق الرواء ، سنه نحو الخمس
وعشرين سنة ، لابسا ثوبا أبيض شبه القباء ،
برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة

مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية ...
متعمدا بذلك زى الأتراك » .

ومن ملاحظات ابن جبير فى بغداد أيضا أن
جميع العباسيين كانوا فى الواقع معتقلين فى
دورهم اعتقالا جميلا ، لا يخرجون ولا
يظهرون ، وأنه لم يكن للخليفة نفسه وزير فى
ذلك العصر ، انما له قيم يعرف بالصاحب
الاستادار ، يقوم على جميع شئون الدور
الخليفة ، ويدعى له اثر الدعاء للخليفة .

هذا ولابن جبير ملاحظة عامة فى أهل
بغداد ، وهى أنهم كانوا - كأهل روما فى
أواخر أيام الدولة الرومانية - « لا تكاد تلقى
منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب
بنفسه عجبا وكبرياء ، يزدرون الغرباء ،
ويظهرون لمن دونهم الأنفة والاباء قد
تصور كل منهم فى معتقده وخلده أن الوجود
كله يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون
فى معمر البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم
لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم » .

ترك ابن جبير بغداد الى الموصل يوم
الاثنين ١٥ صفر سنة ٥٨٠ (٢٨ مايو سنة
١١٨٤) صعبة من بقى من الحجاج من أهل
الشام وكردستان والعراق الأعلى ، وقد تأمر
على الركب سلجوقه خاتون زوج نور الدين
صاحب آمد ، وخاتون أم عز الدين صاحب
الموصل . فمر بسامرا ، وهى سر من رأى
عاصمة العباسيين أيام المعتصم والوائق
والمستوكل ، فوجدها عبرة من رأى ، قد
استولى عليها الخراب الا بعض جهات قليلة .

ثم وصل تكريت ، وهو البلد الذى ولد فيه
السلطان صلاح الدين ، وفيه كانت تنشئة بنى
أيوب قبل أن يتصلوا بعماد الدين زنكى وابنه
نور الدين محمود بالشام .

ثم نزل على الموصل فأقام بها أربعة أيام ،
وشاهد استقبال الأمير عز الدين لوالدته ،
ووصفه بأنه كان من أحفل المشاهد الدينية
المرية ، ولعله لم يعجبه بروز نساء البلد
راكبات لاستقبال الأميرة وهى تدخل المدينة
فى عسكر من الجوارى ، على أنه أعجب
بحسن معاملة المواصلة للغرباء ، كما راقه ما
راه بالموصل نفسها من حصون ومدارس
وجوامع ومارستانات .

ثم رحل ابن جبير الى نصيبين ، ومنها الى
دارا ، فماردين ، فديسر ، فرأس عين التى
سميت بهذا الاسم لنبع نهير الخابور من عيون
بقربها .

ولابن جبير ملاحظة لطيفة بصدد أمراء تلك
البلاد ، اذ شبههم بملوك الطوائف بالأندلس ،
« كلهم قد تحلى بحلية تنسب الى الدين ، فلا
تسمع الا ألقابا هائلة ، وصفات لذى التحصيل
غير طائلة » ليس فيهم من ارتسم بسمة
به تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خليق ، الا
صلاح الدين الأيوبي الذى أفرد ابن جبير فى
كل مناسبة بما هو قمين به من التجليل ، فقال
ان هذا « اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق
معناه ، وما سوى ذلك فى سواء فزعازع ريح ،
وشهادات يردها التجريح » .

ثم وصل ابن جبير الى حران ، فألقاها اسما
على مسمى من شدة ما لاقاه من حرها ،

ووصفها بأنها بلد لا حسن لديه قد اشتق
اسمه من هوائه ، ثم رحل منها الى سروج
التي نسب الحريري اليها أبا زيد السروجي
بطل مقاماته .

وعبر ابن جبير الفرات عند سروج الى قلعة
نجم ، التى عرفت قبل باسم جسر منبج ،
وصار بذلك فى مملكة صلاح الدين الأيوبي ،
على أنه لم يشأ أن يفوت تلك الفرصة بدون أن
يقرر أن حدود النفوذ الأيوبي كانت أبعد
مدى من ذلك الحد الجغرافى ، وأن سيادة
صلاح الدين كانت حقيقة ملموسة فى جميع
البلاد التى مر بها من الموصل الى سروج .

ثم قصد ابن جبير الى حلب عن طريق الرسبة
ومنبج والبزاعة والباب ، وقال بصدد حلب
انها سميت بذلك الاسم لأن ابراهيم عليه
السلام كان يحلب عندها غنما له ، ويتصدق
بلبنها ، على أنها كانت حسبما جاء فى دائرة
المعارف الاسلامية من منشآت الجيشين ،
واسمها فى لغتهم حلاب ، ومنها اسم حلب
الحالى .

ثم رحل ابن جبير من حلب الى دمشق ،
فمر على قنشرين وتل تاجر وباقدين ، وتمنى
والمرة وجبل لبنان ، وحماة والريستن وحمص ،
وقد لاحظ أنه كان بكل مدينة من هذه المدن
مارستان ، وأن جميع الخانات التى أوى إليها
فى طريقه كانت كأنها القلاع امتناعا وحصانة
وأمانا .

ووصف ابن جبير الجامع الأموى بدمشق
وصفا بديعا وأتى على تاريخه تفصيلا ، كما
وصف حجرة الساعة الدقاقة به ، وسماها

المنجاة كنسمة أهل الأندلس فى ذلك العصر
للساعات الدقاقة التى اشتهرت بها بلادهم .

على أن عبارات ابن جبير بصدد ما شاهده
بدمشق من المباني والعمائر تشتمل على
ملاحظات له ذات أهمية كبرى فى معرفة الحال
الدينية والاقتصادية بالشام والشرق الأدنى فى
ذلك الوقت ، ومنها أن الشيعة كانوا أكثر من
السنيين بدمشق والشام عامة ، وقد عموا
البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى ، منهم الرافضة
والزيدية والامامية والاسماعيلية والنصيرية
والغرابية وغيرها . وفى ذلك دليل على أن
الشيعة والدولة الفاطمية لم يكن قد ذهب
ريحهما تماما على يد صلاح الدين .

على أن ابن جبير لم ينس أن يذكر طائفة
من الطوائف السنية التى نشأت لمناهضة
الشيعة فى ذلك العصر ، وهى طائفة النيوية ،
وكانت تدين بالفتوة ، وتكفى الإشارة هنا
الى الفتوة وسراويلها ، فهى موضوع يحتاج
حتى الآن لبحث طويل ، بدأه الأستاذ أحمد
أمين بمقالة منذ سنوات ، ونرجو أن يتوفر
عليه ليوضحه للناس .

أما ما جاء فى ابن جبير هنا بشأن الحال
الاقتصادية بالشام ، فهو أن الحروب الصليبية
بين دول المسلمين والفرنج لم تعطل من حركة
التجارة بين رعية الفريقين فى أنحاء البلاد ،
وقد دلل على ذلك بما شاهده من نشاط
وتبادل بين دمشق الاسلامية وعكا الصليبية ،
على الرغم من قيام صلاح الدين وقتله بحرب
أرناط صاحب حصن الكرك ، ومحاصرته لذلك
الحصن المانع لسبيل المسلمين بين الشام ومصر

والحجاز . وهذا نص عبارة ابن جبير : « ومن
أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين
الفتنين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى
الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين
والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم ،
شاهدنا فى هذا الوقت من ذلك خروج
صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة
حصن الكرك فنازله هذا السلطان وضيق
عليه وطال حصاره ، واختلاف القبائل من مصر
الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ،
واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك ،
وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا
يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة
يؤدونها فى بلادهم ، وهى من الأمانة على
غاية ، وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد
المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم
والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب
مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا
لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد »

هذا والى أحيل من يطلب المزيد فى هذا
الموضوع الى مذكرات أسامة بن منقذ
الشيكرى ، المعروفة باسم كتاب الاعتبار ،
والى قصة الطلمس التى ربت حديثا ليرى أن
الحروب الصليبية لم تفسد كثيرا من العلاقات
الفردية بين أبناء الدينين ، محاربين ومدنيين .

وأخيرا أزمع ابن جبير الرحيل عن دمشق
الى عكا بعد اقامة شهرين وزيادة ، ليترك
البحر منها الى بلاده ، ولا يكاد القارئ يأتى
على الجملة الأولى من يوميات ابن جبير بصدد
عكا ، حتى يأتى على عبارة فيها التفات ، وهى
أن أسفار السفن من عكا فى الخريف — وهو

أحسن أوقات السفر حين ذاك — كانت تعرف عند أهل الشام باسم « الصليبية » ، لتصلب أشربة السفن موافقة للريح في تلك الأسفار ، فهل استمد اسم الحملات والحروب الصليبية — التي كانت على أشدها إبان ذلك الوقت — من ذلك الاسم العربي ، فجاءت سمية دقيقة ورمية من غير رام .

هذ وقد سجل ابن جبير في ثنايا مذكراته بصدد الطريق من دمشق الى عكا ، وهو في أرض الصليبيين أنهم كانوا يمكسون المسافرين من المغاربة دون جميع المسلمين بمكس اضافى عن المعتاد ، مقداره دينار صورى على الشخص الواحد ، وأن أصل ذلك المكس أن فئات من المغاربة اشتركت مع نور الدين بن زنكى فى جهاد الصليبيين ، فجزاهم الفرنج من وقتئذ بتلك الضريبة الاستثنائية .

وأهمية ذلك كله أن هنا مادة تاريخية لمعرفة مدى ما استجاب به المسلمون الى نداء نور الدين ، ولتقرير ما خفى على بعض المؤلفين فى تاريخ الحروب الصليبية ، وهو أن المغاربة من المرابطين ثم للموحدين كانوا أول من أثار فكرة الجهاد العام ضد الحركة الصليبية لسبب واضح ، وأن تلك الحروب الدينية ثارت فى الواقع بالأندلس قبل أن تمتد الى الشام .

ووصل ابن جبير عكا فى ١٠ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ (١٨ سبتمبر سنة ١١٨٤) وكانت أهم ثغور الدولة الصليبية ، وقد شبهها ابن جبير فى العظم بالقسطنطينية التى لم يرها .

ثم علم أن مركبا فرنجيا على وشك الابحار من مدينة صور الى بجاية بتونس ، فذهب الى

صور يريد السفر ، غير أنه استصغر المركب ، فرجع الى عكا بحرا ، واكثرى هناك مكانا فى سفينة جنوية ، قصدها مسينة بصقلية ، فأبحرت به يوم الخميس ١٠ رجب (١٨ أكتوبر سنة ١١٨٤) . وكانت تلك السفينة من سفن الحج التى أنشأها المدن الايطالية لنقل الحاج من المسلمين والنصارى .

وقد ذكر ابن جبير أن حجاج النصارى كانوا يعرفون باسم البلغرين ، وهو تعريب حرفى تقريبا للكلمة اللاتينية (Peregrini) ، أو الايطالية (Pellagrini) ، ومعناها الحاج فى هاتين اللغتين ، كما قرر ابن جبير أن كلا من المسلمين والنصارى المسافرين اتخذ من السفينة مكانا مستقلا ، وأن السفينة نفسها كانت كالمدينة الجامعة ، بها كل ما يحتاج اليه المسافر من خبز وماء وفاكهة ، حتى البصل والثوم والجبن .

وقد ذكر ابن جبير أيضا بصدد هذا السفر أن عددا من حجاج المسلمين والنصارى توفى على ظهر السفينة ، فقدفوا فى البحر ، وورثهم رانس المركب ، اذ كانت العادة أنه لا مسيل لوارث الميت الى ميراثه اذا مات فى البحر .

استغرقت تلك السفينة فى سفرها الى مسينة شهرين ، وكان أقصاه فى العادة خمسة عشر يوما ، فأرست على الشاطئ الصقلى يوم ٤ رمضان سنة ٥٨٠ (٩ ديسمبر ١١٨٤) بعد عناء ورياح وأمواج كادت تذهب بها أكثر من مرة ، وقد تطلب ذلك كله مهارة وصبرا فى قيادة السفينة وابدال ما تكسر من شرعها وقلاعها فى عرض البحر ، مما وصفه ابن جبير فى دقة وتفصيل ، فجاء ما كتبه فى هذا الصدد

وثيقة فى شرح فنون البحر فى العصور الوسطى .

وكانت جزيرة صقلية وجنوبى ايطاليا تابعة وقتئذ للنورمان (الشماليين) الذين أتوا فى أوائل القرن الحادى عشر من بلاد نورمانديا الى جنوبى ايطاليا مرتزقة يطلبون الخدمة فى حروب الدويلات اللبصارديّة والولايات البيزنطية هناك ، وقد برزت الحوادث من بينهم روبرت جويسكارد (Robert Guiscard) الذى تملك على تلك البلاد وأسس منها مملكة واحدة ، ثم امتدت أطماعه الى صقلية الاسلاميّة ، فاتزعتها من ملوكها المتنازعين فيما بينهم بعد حروب دامت عشرين عاما .

ويعتبر النورمان فى التاريخ من طلائع النشاط الذى حرك أوروبا الى دفع المسلمين عن فتوحهم المطلة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وقد ساهموا من بعد استيلائهم على صقلية فى الحروب الصليبية أيضا ، وهدموا الدولتين الزيرية والحمادية بافريقية ، واستولوا على المهديّة سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) كما هددوا الدولة الفاطمية بمصر ، والدولة الموحدية بالأندلس .

والدولة النورمانية فى صقلية ، بحكم وضعها الجغرافى والزمنى ، هى فى الواقع أوج نماذج الحكم والادارة والثقافة والمدنية فى التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى ، اذ التقت فيها المدنيات والثقافات الزومانية والمسيحية والبيزنطية ، والجرمانية والاسلامية والنورمانية ، وامتزجت هناك مزجا لم يتم مثله فى غيرها من البلاد .

ومن شواهد ذلك فى كتاب ابن جبير أن النورمان استخدموا ما وجدوه من أنظمة المسلمين فى حكم تلك البلاد ، واستأدوا بعض الزعماء فى ترويض الناس على الحكم النورمانى ، واستعملوا كثيرا من المسلمين على الوظائف ولا سيما فى البلاط الملكى ، وسلخوا أبناءهم فى الجيش ، وحافظوا على بعض الأسماء العربية للوظائف ، كما سمحوا للمسلمين بقسط من الحرية الدينية ، ولم ينسوا أن يقرنوا ذلك بشئ من الضغط المالى والتضييق على الحرية الشخصية لحمل من ضعف ايمانه على دخول المسيحية .

وقد جاء ما كتبه ابن جبير فى يومياته بصدد صقلية مصدقا لكل ذلك ، وكان ملكها غليام الثانى (William II) حينما نزل ابن جبير بعاصمتها بلارمة (Palermo) ، وهذا نص ما جاء بيوميات ابن جبير بشأن هذا الملك ومبلغ اعتماده على المسلمين : « وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين ، واتخاذ الفتيان المجاييب ، وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم فى أحواله والمهم من أشغاله ، حتى ان الناظر فى مطبخه رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة ، هم أهل دولته والمترسومون بخاسته .

« ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وأما جواريه وحظاياه فى قصره فسلمات كلهن ، ومن أعجب ما حدثنا به خديمه يحيى بن فيتان الطراز ، أن الافرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود

مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ،
وأما فتياه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته
فى ملكه فهم مسلمون ، ما منهم الا من يصوم
الأشهر تطوعا وتأجرا .

على أنه لا يجب أن يؤدى ذلك الوصف
الخاص ببلاط الملك الى الاعتقاد بأن عامة
المسلمين بصقلية النورمانية كانوا أسعد حالا
من اخوانهم فى البلاد المسيحية الأخرى ،
فعلى الرغم من الجوامع والمساجد والزوايا ،
والأسواق والرباع الإسلامية التى شاهدها
ابن جبير بـمدن صقلية ، قد ضرب النورمان
على المسلمين أتاوة تدفع مرتين فى العام
الواحد ، وحالوا بينهم وبين تملك الأرض ،
بل كان المسلمون الملحقون بخدمة غليام كلهم
أو أكثرهم كاتم إيمانهم ، وكذلك نسوة القصر
من المسلمات ، فاذا حان وقت الصلاة وهم فى
خدمة الملك ، خرجوا أفذاذا من حضرته
ليقتضوا صلاتهم ، وهذا فضلا عن أنه لم يكن
للمسلمين جمعة ، بسبب الخطبة المحظورة
عليهم .

ولقد زار ابن جبير من بلاد صقلية مدينة
مسيئة التى أرسى عندها أولا ، ثم شفلودى
وثرمة وبالرمة وعلقمة وحصن الحمة وأطرابنش
(Trepanes) . ثم أقبل من ميناء المدينة الأخيرة
يوم الاثنين ٢١ ذى الحجة سنة ٥٨٠ هـ (٢٥
مارس سنة ١١٨٤) على ظهر سفينة جنوية
الى الأندلس ، فوصل قرطاجنة يوم الخميس
١٥ المحرم سنة ٥٨١ هـ ، وسافر منها الى مرسية
ثم لبرالة ثم لورقة ثم المنصورة ثم قنالش
(Caniles) حتى وصل الى منزله بـغرناطة
٢٢ محرم سنة ٥٨١ هـ (٢٥ ابريل سنة ١١٨٤) .

لم يقم ابن جبير بعد رحلته هذه بالأندلس
طويلا ، بل رحل الى الشرق ثانية ، ويقال
يصدد ذلك نقلا عن كتاب الاحاطة بتاريخ
غرناطة للسان الدين ابن الخطيب ، انه لما شاع
الخبر باستيلاء السلطان صلاح الدين على
بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ
(١١٨٧ م) ، عزم ابن جبير على الرحلة للحج
ثانية ، فسافر من غرناطة فى ٩ ربيع الأول سنة
٥٨٥ هـ (٢٧ ابريل سنة ١١٨٩) .

ولست أعلم من تفاصيل تلك الرحلة
سوى القصيدة التى نظمها ابن جبير ليشكو
بها الى صلاح الدين عسف رجاله وأمنائه
بالحجاج فى ميناء الاسكندرية ، وهى قصيدة
طويلة فى ثلاثة وخسين بيتا ، وقد أشار
فيها ابن جبير الى الفتح الصلاحى لبيت
المقدس . وقد رجع ابن جبير من رحلته هذه
الى غرناطة فى ١٣ شعبان سنة ٥٨٧ هـ (٥ سبتمبر
سنة ١١٩١) .

ثم انتقل ابن جبير عن غرناطة الى مالقة ،
ثم سبتة ، ثم فاس ، واقطع الى اسماع
الحديث والتصوف وتروية الشعر . على أنه لم
يقم بالمغرب طويلا تلك المرة أيضا ، بل رحل
الى الشرق مرة ثالثة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) .
وسبب تلك الرحلة — حسبما ورد فى كتاب
الاحاطة أيضا — أن زوجته عاتكة بنت الوزير
الوقتئى ماتت ، وكان كلفه بها جبا ، فعظم
وجده عليها ، فرحل الى مكة وجاور بها ،
ثم انتقل عنها الى بيت المقدس ، وتحول بعد
ذلك الى الاسكندرية ، فأقام يحدث ويؤخذ
عنه حتى توفى بها فى شهر شعبان من السنة
المتقدمة ، وكان قد جاوز السبعين .

ترجمة المصنف

من كتاب « الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة »
للوزير لسان الدين بن الخطيب ، رحمه الله

عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته واجادته .
ونظمه فائق ، وثره . بديع ، وكلامه المرسل
سهل حسن ، وأغراضه جليلة ، ومحاسنه
ضخمة ، وذكره شهير ، ورحلته نسيجة
وحدها طارت كل مطار . رحمه الله .

رحلته

قال من غنى بجبره : رحل ثلاثا من
الأندلس الى المشرق ، وحج في كل واحدة
منها . فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم
الخميس ، لثمان خلون من شوال سنة ٥٧٨ ،
صحبة أبي جعفر بن حسان ، ثم عاد الى وطنه
غرناطة لثمان بقين من محرم عام ٨١ ، ولقى
بها أعلاما * يأتى التعريف بهم فى مشيخته ،
وصنف الرحلة المشهورة ، وذكر ما نقله فيها
وما شاهده من عجائب البلدان وغرائب
المشاهد وبدائع المصانع ^٨ . وهو كتاب مؤنس
ممتع ، مثير سواكن النفوس الى تلك
المعالم .

ولما شاع الخبر المبهج بفتح « بيت »
المقدس ، على يد السلطان الناصر صلاح .

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير
ابن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام
الكنانى الواصل الى الأندلس .

اوليته

دخل جده عبد السلام بن جبير
الأندلسى ، فى طالعة بلج بن بشر بن عياض
القشبرى ، فى محرم سنة ١٢٣ ، وكان نزوله
بكورة شدونة ، وهو من ولد ضمرة بن بكر
بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن
الياس * ، بلنسى الأصل ، ثم غرناطى
الاستيطان ، شرق وغرب ، وعاد الى
غرناطة .

حاله

كان أدبيا بارعا ، شاعرا مجيدا ، سنيا
فاضلا ، نزهة الهمة ، سرى النفس ، كريم
الأخلاق ، أئيق الطريقة . كتب بسبته عن أبى
سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، وبغرناطة عن
غيره من ذوى قرابته ، وله فيهم أمداح
كثيرة ، ثم نزع عن ذلك ، وتوجه الى
المشرق ، وجرت بينه وبين طلائفة من أدباء

الدين يوسف بن أيوب بن شاذى ١٢ ، قوى عزمه على أعمال الرحلة الثانية . فتحرك ١٣ اليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة ٥٨٥ ، ثم آب الى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة ٨٧ ، وسكن غرناطة ١٤ ، ثم مالقة ، ثم سبتة ، ثم فاس ، منقطعا الى اسماع الحديث ، والتصوف ، وتروية ما عنده . وفضله بديع ، وورعه يتحقق ١٥ ، وأعماله الصالحة تذكر ١٦ .

ثم رحل الثالثة من سبتة بعد موت زوجته عاتكة ، أم المجد ، بنت الوزير أبى جعفر الوقتنى ١٧ — وكان كلفه بها جما ١٨ ، فعظم وجده عليها — فوصل مكة ، وجاور بها طويلا ، ثم بيت المقدس ، ثم تحول لمصر ١ والاسكندرية ، فاقام يحدث ، ويؤخذ عنه الى أن لحق بربه .

مشيخته

روى بالأندلس عن أبيه ، وأبى الحسن بن محمد بن أبى العيش ، وأبى عبد الله بن أحمد ابن عروس ، وابن الأصيلي ٢ ، وأخذ العربية عن أبى الحجاج ٣ بن يسعون ، وبسبته عن أبى عبد الله بن عيسى التميمي السبتي .

وأجاز له أبو الوليد بن سبكة ٤ ، وأبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الغساني التونسي ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى التميمي السبتي ٥ ، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر ٦ القرشي الميائنى ٧ نزيل مكة ، وأبو جعفر أحمد بن على القرطبي الفنى ٨ ،

وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن على بن ابراهيم بن محمد البغدادي ، وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخزندى ٩ رئيس الشافعية بأصبهان . ويغداد العالم الواعظ ١٠ المستبحر ، فادرة الفلك ، أبو ١١ الفرج — وكناه أبا الفضائل ١٢ ابن الجَنَوزى — وحضر بعض مجالسه الوعظية ، فشاهد ١٣ رجلا ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد ١٤ . وبدمشق أبو الحسن أحمد * بن حمزة بن على بن عبد الله بن عباس السلمى الجوارى ١ ، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبى عمرو ، وأبو الطاهر بركات ٢ الخشوعى وسمع عليه ، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني ، من أئمة الكتاب ٣ ، وأخذ عنه بعض كلامه وغيره ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن على بن عساكر وسمع عليه ، وأبو الوليد اسماعيل بن على بن ابراهيم ، والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الربيعي ٤ ، وعبد الرحمن بن اسماعيل بن أبى سعيد الصوفى ، وأجازوا له ، وبِحَرْقَانِ المتكلم الصوفى العارف أبو البركات حيان بن عبد العزيز ، وابنه الحاذى حذوه .

من اخذ عنه

قال ابن عبد الملك * : أخذ عنه أبو اسحاق ابن مهيب ، وابن الواعظ ، وأبو ١ تمام بن اسماعيل ، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائى ، وأبو الحسن الشارنى ٧ ، وأبو سليمان بن حوط الله ، وأبو زكريا ،

وأبو بكر يحيى بن محمد بن أبي الغمر ،
وأبو عبد الله بن حسين بن مجبر ، وأبو
العباس بن عبد المؤمن البناني ، وأبو محمد
ابن الحسن اللوابي بن تاميت ، وابن
محمد الموروري ، وأبو عمرو بن سالم ،
وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمي التونسي .

ومن روي عنه بالاسكندرية : رشيد
الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله ،
وبمصر رشيد الدين بن عطار ، وفخر القضاة
ابن الجباب * ، وابنه جمال القضاة .

تصانيفه

منها نظمه ، قال ابن عبد الملك : وقت
منه على مجلد يكون على قدر ديوان أبي
تمام حبيب بن أوس ، وجزء سماه « نتيجة
وجد الجوانح في تأيين القرين الصالح »
في مراثي زوجه أم المجد ، وجزء سماه
« نظم الجبان في التشكي من اخوان
الزمان » ، وله ترسيل بديع ، وحكم
مستجادة ، وكتاب رحلته . وكان أبو الحسن
الشاري يقول : انها ليست من تصانيفه ،
وانما قيد معاني ما تضمنته ، فتولى ترتيبها
وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه على ما
تلقاه والله أعلم .

شعره

من ذلك القصيدة الشهيرة التي نظمها وقد
شارف المدينة المكرمة طيبة ، على ساكنها من
الله أفضل الصلوات وأزكى التسليم

أقول وآمنت بالليل نارا
لعمل سراج الهدى قد أنارا

والا فما بال أفق الدجي
كأن سنا البرق فيه استطار

ونحن من الليل في حندس
فما باله قد تجلى نهارا

وهذا نسيم شذا المسك قد
أعير أم المسك منه استعارا

وكانت رواحلتا تشتكي
وجاها فقد سبقتا ابتدارا

وكنا شكونا عناء السرى
فعدنا نبارى سراع المهارا

أظن النفوس قد استشعرت
بلوغ هوى تخذته شعارا

بشائر صبح السرى آذنت
بأن الحبيب تداني مزارا

جرى ذكر طيبة ما بيننا
فلا قلب في الركب الا وطارا

حينما الى أحمد المصطفى
وشوقا يهيج الضلوع استعارا

ولاح لنا أحد مشرقا
بنور من الشهداء استنارا *

فمن أجل ذلك ظل الدجي
يحل عقود النجوم انتشارا

ومن ذلك الترب طار النسيم
نشرا ، وعم الجهات انتشارا

ومن طرب الركب حث الخطى
اليها ونادى البدار البدارا

ولا حللنا قناء الرسول
 نزلنا بأكرم خلق^١ جوارا
 وحين دنونا لفرض السلام
 قصرنا الخطي ولزمتنا الوقارا
 فما نرسل اللحظ الا اختلاسا
 ولا نرفع^٢ الطرف الا انكسارا
 ولا نظهر الوجد الا اكتاما
 ولا نلفظ القول^٣ الا سارا
 سوى أننا لم نطق أعينا
 بأدمعها غلبتنا انفجارا
 وقفنا بروضة دار السلام^٤
 نعيد السلام عليها^٥ مرارا
 ولولا مهابته في النفوس^٦
 لثمتنا الثرى والتزمتنا^٧ الجدارا
 قضينا بزورقه^٨ حجنا
 وبالعمرتين ختمنا اعتمارا
 اليك اليك نبي الهدى
 ركبت البحار وجبت^٩ القفار
 وفارقت أهلى ولا منة
 ورب كلام يجر^{١٠} اعتذارا
 وكيف نمن على من به
 تؤمل للسيئات اغتفارا
 دعانى اليك هوى كامن
 أثار من الشوق ما قد أثارا
 فناديت ليك داعى الهدى
 وما كنت عنك أطيع اصطبارا
 ووطنت نفسى بحكم^{١١} الهوى
 على^{١٢} وقلت رضيت اختيارا

أخوض الدجى وأروض اله
 رتى ولا أطمع النوم الا غرارا
 ولو كنت لا أستطيع السيل
 لطرت ولو لم أصادف مطارا
 وأجدر من نال منك الرضى
 محب ثراك على البعد ثارا^{١٣}
 عسى لحظة منك لى فى غد
 تمهد لى فى الجنان القرارا^{١٤}
 فما ضل من بمرآك^{١٥} اهتدى
 ولا ذل من بذراك استجارا
 وفى غبطة من من^{١٦} الله عليه بحج بيته ،
 وزيارة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم ، يقول :
 هنيئا لمن حج بيت الهدى
 وحط عن النفس أوزارها
 وإن^{١٧} السعادة مضمونة^{١٨}
 لمن حج طيبة أو زارها
 وفى مثل ذلك يقول :
 اذا بلغ المرء^{١٩} أرض الحجاز
 فقد نال أفضل ما أم^{٢٠} له^{٢١}
 وإن^{٢٢} زار قبر نبي الهدى
 فقد أكمل الله ما أمله
 وقال فى^{٢٣} تفضيل المشرق :
 لا يستوى شرق البلاد وغربها
 الشرق حاز الفضل باستحقاق
 أنظر ترى للشمس^{٢٤} عند طلوعها
 زهوا يعجب^{٢٥} بهجة الاشرار

وانظر لها عند الغروب كهينة
صفراء تعقب ظلمة الآفاق

وكفى يسوم طلوعها من غربها
أن تؤذن الدنيا بعزم^١ فراق

وقال في الوصايا :

عليك بكتمان المصائب واصطبر
عليها فما أبقى الزمان شقيقا
كفالك بشكوى الناس اذ ذاك أنها °
تسر عدوا أو تسوء صديقا

وقال :

ومصانع المعروف فلتة غافل^٦
ان لم تضعها في محل عاقل
كالنفس في شهواتها ان لم تكن
وقفا لها عادت بضر عاجل
نشره

من حكمه قوله : ان شرف الانسان
فبشرى واحسان ، وان فاق فيفضل^٧ وارفاق ،
ينبغي أن يحفظ الانسان لسانه كما يحفظ
الجفن انسانيه ، فرب كلمة تقال تحدث عثرة
لا تقال ، كم كست فلتات الألسنة الحداد من
ورائها ملابس الحداد^٨ ، نحن في زمان لا
يحظى^٩ فيه بنفاق الا من عامل بنفاق^{١٠} .

شغل الناس عن الطريق بزخارف
الأعراض ، فمخوا^{١١} الصدور عنها والأعراض .
آثروا دنيا هي أضغاث أحلام ، وكم هفت في

حبها من أحلام ، أطالوا^{١٢} فيها آمالهم^{١٣} ،
وقصروا أعمالهم ، ما بالهم لم يتفرغوا^{١٤}
لغيرها ! ما لهم في غير ميدانها استباق ، ولا
لسوى هداها اشتياق^١ .

تالله لو كشف الأسرار ، لما كان هذا
الاسرار ، لسهرت العيون ، وتفجرت من
شئونها الجفون^٢ ، فلو^٣ أن عين البصيرة من
سنتها هابة ، لرأت جميع^٤ ما في الدنيا ريحا
هابة ، ولكن استولى العمى على البصائر ° ،
ولا يعلم الانسان ما اليه صائر . أسأل الله
هداية سبيله ، ورحمة تورد نسيم الفردوس
وسلسيله ، انه الحنان المنان ، لا رب سواه .

ومنها : فلتات الهبات^٦ أشبه شيء بفلتات
الشهوات : منها نافع لا يتعقّب ندما ، ومنها
ضار^٧ يبقى في النفس ألما . فضرر الهبة^٨
وقوعها عند من لا يعتقد لحقها أداء ، وربما
أثرت عنده اعتداء ، وضرر الشهوات^٩ ان لم
تواقف^{١٠} ابتداء ، فتصير لتسيعها^{١١} داء ، مثلها
كمثل المسكر يلتذ صاحبه بحلاوة^{١٢} جناه ،
فاذا صحا^{١٣} يعرف ما قد جناه ، وعكس^{١٤}
هذه القضية هي^{١٥} الحالة المرصية

مولده : ببلنسية سنة ٥٣٩ ، وقيل
بشاطبة سنة ٥٤٠^{١٦} .

وفاته : توفي بالاسكندرية ليلة الأربعاء
التاسع^{١٧} والعشرين لشعبان سنة ١١٤

ترجمة المصنف

من تاريخ مصر الكبير المصنف
للشيخ تقي الدين أحمد المقرئ رحمه الله

الغاية فيه ، وتقدم في صناعة القريض وصناعة
الكتابة ، ونال بها دنيا عريضة ، ثم رفضها
وزهد فيها ، وحدث بكتاب الشفاء^١ عن أبي
عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي ،
عن القاضي عياض ، وتوجه الى الحج ، ودخل
بغداد والشام ، وسمع بهما .

وقدم مصر ، فسمع منه الحافظان أبو محمد
المنذري ، والحافظ أبو الحسين يحيى بن
علي القرشي ، وتوفي في يوم الأربعاء السابع
والعشرين من شعبان سنة ٦١٤

محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير
ابن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن
سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد
السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير ،
الداخل الى الأندلس ، من ولد ضمرة بن بكر
بن عبد مناة بن كنانة ، أبو الحسين بن أبي
جعفر الكنانى الأندلسى البلسى .

مولده : ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة
٥٤٠ هـ ببلنسية ، وقيل في مولده غير ذلك .

وسمع من أبيه بشاطبة ، ومن أبي عبد
الله الأصيلي ، وأبي الحسن بن أبي العيش ،
وأخذ عنه القراءات ، وغنى بالأدب فبلغ

ترجمة المصنف

من الباب الخامس من كتاب
« نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب »
للشيخ أحمد المقرئ رحمه الله

لا يتنى منه سوى أحرف
يعتدها أشرف زخر يفاد
ترسمها أنمله مثل ما نمق
زهر الروض كف العهد
في رقعة كالصبح أهدى لها
يد المعالي مسك ليل المداد
اجازة يورثها العلى
جائزة تبقى وتقنى البلاد
يستصحب الشكر خديما لها
والشكر للامجاد أسنى عتاد

فأجابه الصدر الخجندى :
لك الله من خاطب خلتي
ومن قابس يجتدى سقط زندي
أجزت له ما أجازوه لى
وما حدثوه وما صح عندي
وكاتب هذى السطور التى
تراهن عبد اللطيف الخجندى

ورافق ابن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر
أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعي
وأصله من أندة من عمل بلنسية ، رحل معه
فأديا القريضة ، وسمعا بدمشق عن أبى

ومنهم — يعنى من الراحلين الى المشرق
من الأندلس — « أبو الحسين محمد بن
أحمد بن جبير » الكنانى ، صاحب الرحلة ،
وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن
كنانة ، أندلسى شاطبى بلنسى ، مولده ليلة
السبت عاشر ربيع الأول سنة ٤٠٥ هـ بلنسية ،
وقيل فى مولده غير ذلك .

وسمع من أبيه بشاطبة ، ومن أبى عبد الله
الأصلى ، وأبى الحسن بن أبى العيش ،
وأخذ عنه القراءات ، وعنى بالأدب فبلغ الغاية
فيه ، وتقدم فى صناعة القريض والكتابة .

ومن شعره قوله — وقد دخل الى بغداد ،
فاقتطع غصنا نضيرا من أحمد بساتينها ،
فدوى فى يده — :

لا تقترب عن وطن
واذكر تصاريف النوى

أما ترى الغصن اذا
ما فارق الأصل ذوى

وقال رحمه الله يخاطب الصدر الخجندى :

يا من حواه الدين فى عصره
صدرا يحل العالم فيه فؤاد
ماذا يرى سيدنا المرتضى
فى زائر يخطب منه النوداد

الظاهر الخشوعي ، وأجاز لهما أبو سعيد بن
أبي عمرو ، وأبو محمد القاسم بن عساكر
وغيرهما ، ودخلا بغداد ، وتجولا مدة ، ثم
قفلا جميعا الى المغرب ، فسمع منهما به بعض
ما كان عندهما .

وكان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب ،
وله فيه تقييد مفيد ، مع المشاركة الكاملة في
فنون العلم ، وكتب عن السيد أبي سعيد بن
عبد المؤمن ، وجده لأمه القاضي أبو محمد
عبد الحق ابن عطية . وتوفي أبو جعفر هذا
بمراكش سنة ٨ أو ٥٩٩ ولم يبلغ الخمسين
في سنه ، رحمه الله .

رجع الى ابن جبير : قال لسان الدين في
حقه : انه من علماء الأندلس بالفقه والحديث
والمشاركة في الآداب ، وله الرحلة المشهورة ،
واشتهرت في السلطان الناصر صلاح الدين
ابن أيوب له قصيدتان أحدهما أولها :

أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك اندائر

ومنها قوله :

رفعت مغارم مكس الحجاز
بانعمك الشامل القامر

وآمنت أكناف تلك البلاد
فهل السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة
على وارد وعلى صادر

فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالغرب من شاكر

والأخرى منهما في الشكوى بأبن شكر ،
الذي كان آخذ المكس من الناس في
الحجاز :

وما نال الحجاز بكم صلاحا
وقد نالته مصر والشام

ومن شعره :

أخلاء هذا الزمان الخئون
توالت عليهم حروف الملل
قضيت التعجب من بابهم
فصرت أطلع باب البذل

وقوله :

فريب تذكر أوطانه
فهيج بالذكر أشجانه
يحل عرى صبره بالأسى
ويعقد بالنجم أجفانه
وقال رحمه الله لما رأى البيت الحرام ، زاده
الله شرفا :

بدت لي أعلام بيت الهدى
بسكة والنور باد عليه
فأحرمت شوقا له بالهوى
وأهديت قلبي هديا اليه

وقوله يخاطب من أهدى له موزا :

يامهدى الموز تبقى
وميمه لك فاء
وزايه عن قريب
لمن يعاديك تاء

وقال رحمه الله :

قد ظهرت في عصرنا فرقة
ظهورها شؤم على العصر

لا تقتدى في الدين إلا بما

من ابن سينا وأبو نصر^٢

وقال :

ياوحشة الاسلام من فرقة

شاعلة أنفسها بالسفه

قد نبذت دين الهدى خلفها

وادعت الحكمة والفلسفه

وقال :

ضلت بأفعالها الشنيعه

طائفة عن هدى الشريعة

ليست ترى فاعلا حكيما

يفعل شيئا سوى الطيعه

وكان انفصاله ، رحمه الله ، من غرناطة ،

بقصد الرحلة المشرقية ، أول ساعة من يوم

الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ ، ووصل

الاسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من

ذي^١ القعدة الحرام من السنة . فكانت اقامته

على متن البحر من الأندلس الى الاسكندرية

ثلاثين يوما ، وقل البحر الاسكندراني في

الحادي والثلاثين ، وحجج رحمه الله ، وتجول

في البلاد ، ودخل الشام والعراق والبحيرة

وغيرها

وكان رحمه الله - كما قال ابن الرقيق -

من أعلام العلماء العارفين بالله . كتب في أول

أمره عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن

صاحب غرناطة ، فاستدعاء لأن يكتب عنه

كتابا ، وهو على شرابه ، فمد يده اليه بكأس ،

فاظهر الانقباض ، وقال . ياسيدى ما شربتها

قط ، فقال : والله لتشربن منها سبعا .

فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس ، فملا

له السيد الكأس من دنانير سبع مرات ،

وصب ذلك في حجره ، فحمله الى منزله ،

وأضر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك

الدنانير ، ثم رغب للسيد وأعلمه أنه حلف

بأيمان ، لا خروج له عنها ، أنه يحج في تلك

السنة ، فأسعته ، وباع ملكا له تزود به ،

وأثفق تلك الدنانير في سبيل البر .

ومن شعره في جارية تركها بغرناطة :

طول الخراب وريح شوق

لا صبر والله لى عليه

اليك أشكو الذى الأقى

ينخير من يشتكى اليه

ولى بغرناطة حبيب

قد غلق الرهن فى يديه

ودعته وهو إرتعاض

يظهر لى بعض ما لديه

فلو ترى عل فرجسيه

ينهل فى ورد وجتيه

أبصرت درا على تحقيق

من دمه فوق صفحته

وله رحله مشهورة بأيدى الناس .

ولما وصل بغداد تذكر لده :

سقى الله باب الطاق صوب غمامة

ورد الى الاطان كل غريب^١

(انتهى)

وقال في رحلته في حق دمشق : جنة

المشرق ، ومطلع حسنه لمؤلث المشرق ...

الخ .

قال العلامة بن جابر الوادى آشى ، بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق ، ما نصه : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أقاد : هذا ولم تكن له بها اقامة فيعرب عنها بحقيقة علامة ، وما وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروب ، ولا أزمان فصولها المنوعات ، ولا أوقات سرورها المهنئات ، وقد اختصر من قال ألفتها كما تصف الألسن ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ لأعين . انتهى .

رجع الى كلام ابن جبير ، فنقول : ثم ذكر فى وصف الجامع أنه من أشهر جوامع الاسلام حسنا واتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين ... الخ ثم مد النفس فى وصف الجامع ، وما به من العجائب .

ثم قال بعد عدة أورد ما نصه : وعن يمين الخارج من باب جرون ، فى جدار البلاط الذى أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير ، الخ .

وحكى ابن سعيد وغيره أن غرناطة تسمى دمشق الأندلس ، سكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأندلس ، وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة لياها والأشجار ، وقد أطل عليها جبل الثلج ، وفى ذلك يقول ابن جبير صاحب الرحلة :

يادمشق العرب هاهنا

يك لقد زدت عليها

تحتك الأنهار تجري

وهى تنصب اليها

قال ابن سعيد : أشار ابن جبير الى أن غرناطة فى مكان مشرف ، غوطتها تحتها تجري فيها الأنهار ، ودمشق فى وهدة تنصب اليها الأنهار ، وقد قال الله تعالى فى وصف الجنة « تجري من تحتها الأنهار » ، انتهى .

رجع الى ابن جبير رحمه الله ، ومن شعره قوله :

اياك والشهوة فى ملبس

والبس من الأثواب أسماها

تواضع الانسان فى نفسه

أشرف للنفس وأسمى لها

وقال :

تنزه عن العوراء مهما سمعتها

صيانة نفس ، فهو بالحر أشبه

إذا أنت جاوبت السفينة مشاتبا

فمن يتلقى الشتم بالشم أسفه

وقال :

أقول وقد حان الوداع وأسلمت

قلوب الى حكم الأسى ومدامع

أيارب أهلى فى يديك وديعة

وما عدت صونا لديك الودائع

وقال أبو عبد الله بن الحاج ، المعروف

بمدغليس ، صاحب الموشحات يمدح ابن جبير

المذكور :

لأبي الحسين مكارم لو أنها
عدت لما فرغت ليوم المحشر

وله عليّ فضائل قد قصرت
عن بعض نعمها ٢ عظام الأبحر
وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها :

ياوفود الله فزتم بالما
فهنيتا لكم أهل منى

قد عرفنا عرفات بعدكم
فلهذا يروح الشوق بنا

فخن في الغرب ويجرى ذكركم
بغروب الدمع يجرى ههنا
ومنها :

فيتأديه على شحط النوى
من لنا يوما فقلت ملنا

مر بنا يا حادي الركب عسى
أن نلاقى يوم جمع مر بنا ١

مادعا داعي النوى لما دعا
غير صب شفته يرح العنا

شم لنا البرق اذا لاح وقل
جمع الله بجمع شملنا

علنا تلقى خيالا منكم
بلذيد الذكر وهنا علنا

لو حنا الدهر علينا لقضى
باجتماع بكم بالمنحى

لاح برق موهنا من نعوكم
فلعمري ما ههنا العيش ههنا

أتم الأحباب نشكو بعدكم
هل شكوتم بعدنا من بعدنا

وله رحمه الله قصيدة مطولة أولها ٢ :

لعل بشير الرضى والقبول
يلل بالوصل قلب الخليل

وله أخرى أنشدها عند استقباله المدينة
المشرقة ، على صاحبها الصلاة وأتم السلام ،
وهي ثلاثة وثلاثون بيتا من الغر ، أولها :

أقول وآنست بالليل نارا
... (الأبيات الثلاثة)

وكان أبو الحسين بن جبير المترجم به قد
نال بالأدب دنيا عريضة ، ثم رفضها وزهد
فيها .

وقال صاحب الملتصق في حقه : الفقيه
الكتاب أبو الحسين بن جبير ، ممن لقيته
وجالسته كثيرا ، ورويت عنه ، وأصله من
شاطبة ، وكان أبوه أبو جعفر من كتابها
ورؤسائها ، ذكره ابن ٢ السمع في تاريخه .
ونشأ أبو الحسين على طيقة أبيه ، وتولع
بغرناطة فسكن بها .

قال : وما أنشدني لنفسه قوله يخاطب أبا
عمران الزاهد بإشيلية :

أبا عمران قد خلفت قلبي
لديك وأنت أهل للوديعه

صحبت بك الزمان أخا وفاء
فها هو قد تنمر للقطيعه

قال : وكان من أهل المروءات ، عاشقا في قضاء الحوائج ، والسعى في حقوق الاخوان ، والمبادرة لايناس الغرباء ، وفي ذلك يقول :

يحبس الناس بأني متعب
في الشفاعات وتكليف الوري

والذي يتعبهم من ذاك لي
راحة في غيرها لن أفكرا

وبوذي لو أقضى العمر في
خدمة الطلاب حتى في الكرى

قال : ومن أبدع ما أنشده ، رحمه الله ،
أول رحلته :

طال شوقي الى بقاع ثلاث
لا تشد الرحال الا اليها

ان للنفس في سماء الأمانى
طائرا لا يحوم الا عليها

قص منه الجناح فهو مهبط
كل يوم يرجو الوقوع لديها

وقال :

إذا بلغ العبد أرض الحجاز ... البيت .

وعاد ، رحمه الله ، الى الأندلس بعد رحلته الأولى التي حل فيها دمشق والموصل وبغداد ، وركب الى المغرب من عكا مع الافرنج ، فمطب في خليج صقلية الضيق ، وقاسى شدائد الى أن وصل الأندلس سنة ٥٨١ ، ثم أعاد المسير الى المشرق بعد مدة الى أن مات بالاسكندرية كما تقدم .

ومن شعره أيضا :

لي صديق خسرت فيه ودادي
حين صارت سلامتي منه ربعا

حسن القول سيىء الفعل كالجز
ار سمي وأتبع القول ذبعا

وحدث ، رحمه الله ، بكتاب « الشفاء » عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي ، عن القاضي عياض . ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى ، وأبو الحسين يحيى بن على القرشى .

وتوفي ابن جبير بالاسكندرية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ ، والدعاء عند قبره مستجاب ، قاله ابن الرقيق رحمه الله . وقال ابن الرقيق : في السنة بعدها .

وقال أبو الربيع بن سالم : أنشدني أبو محمد عبد الله بن التميمي البجائي - ويعرف بابن الخطيب - لأبي الحسين بن جبير ، وقال وهو مما كتب به الى من الديار المصرية في رحلته الأخيرة ، لما بلغه ولايتي قضاء سبتة ، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك ، وتوفيت هنالك زوجته بنت أبي جعفر الوقشي فدفنها بها :

بسبتة لي سكن في الثرى
وخل كريم اليها أنى

فلو أستطيع ركب الهوى
فزرت بها الحى والميتا

وأشدد ابن جبير ، رحمه الله ، لنفسه عند
صدوره عن الرحلة الأولى الى غرناطة ، أو
فى ٢ طريقها قوله :

لى نحو أرض المنى من شرق أندلس
شوق يؤلف بين الماء والقبس
الى آخرها . ومن شعره قوله :
ياخير مولى دعاه عبد
أعمل فى الباطل اجتهاده
هب لى ما قد علمت منى
ياعالم الغيب والشهادة
وقال رحمه الله :

وانى لأوتر من أصطفى
وأغضى على زلة العائر
وأهوى الزيارة ممن أحب
لأعتقد الفضل للزائر
وقال رحمه الله :

عجبت للمرء فى دنياه تطعمه
فى العيش والأجل المحتوم يقطعه
يمسى ويصبح فى عشواء يخطها
أعمى البصيرة والآمال تخدعه
يفتر بالدهر مسرورا بصحبته
وقد تيقن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه
وقد درى أنه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه
وليس يشفق من دين يضيّعه

وأسوأ الناس تدييرا لماقبة
من أنفق العمر فيما ليس ينفعه
وقال :

صبرت على غدر الزمان وجمعه
وشاب لى السمّ الذئعاف بشهده
وجربت اخوان الزمان فلم أجده
صديقا جميل الغيب فى حال بعده
وكم صاحب عاشرته وألفته
فما دام لى يوما على حسن عهده
وكم غثرنى تحسين ظنى به فلم
يضىء لى على طول اقتداهى لزنده
وأغرب من عنقاء فى الدهر مغرب
أخو ثقة يسقيك صافى وده
بنفسك صادم كل أمر تريده
فليس مضاء السيف الا بعده
وعزمك جرّد عند كل مهمة
فما نافع مكث الحسام بفعده
وشاهدت فى الأسفار كل عجيبة
فلم أر من قد نال جدّا بجيده
فكن ذا اقتصاد فى أمورك كلها
فأحسن أحوال الفتى حسن قصده
وما يحرم الانسان رزقا لمعجزه
كما لا ينال الرزق يوما بسكده
حفظت الفتى من شقوة وسعادة
جرت بقضاء لا سبيل لرده
وقال :

الناس مثل ظروف حشوها صبر
وفوق أفواها شئ من العسل

نغر ذائقها حتى اذا كشفت

له تبين ما تحويه من دخل^١

وقال .

تغير اخوان هذا الزمان

وكل صديق عراه الخلل

وكانوا قديما على صحة

فقد داخلتهم حروف العلل

قضيت التعجب من أمرهم

فصرت أطالع باب البدل

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه

آخر أول ترجمة المذكور ، ورأيت بخط ابن

سعيد البيتين على وجه آخر وهو قوله :

ثكلت أخلاء هذا الزمان

فعندى مما جنوه خلل

قضيت التعجب من شأنهم

فصرت أطالع باب البدل

انتهى .

ولابن جبير رحمه الله تعالى^١ :

من الله فاسأل^٢ كل أمر تريده

فما يسلك الانسان نفعا ولا ضرا

ولا تتواضع للولاء فانهم

من الكبر في حال تموج^٣ بهم سكرا

واياك أن ترضى بتقيل راحة

فقد قيل عنها^٤ انها السجدة الصغرى

وهو نحو قول القائل :

أيها المستطيل بالبغي أقصر

ربما طأطا الزمان الرؤوسا

وتذكر قول الاله تعالى

ان قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندة من قرى

مصر^١ :

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة

بأجواز مصر والأحبة قد بانوا^٢

فقلت لخلي في النوى جئ^٣ بدمع^٤

فليس لنا الا المدامع قربان

وقال ابن جبير :

قد أحدث الناس أمورا فلا

تعمل بها انى امرؤ ناصح

فما جماع الخير الا الذى

كان عليه السلف الصالح

وقال^١ :

رب ان لم تؤتني سعة

فاطو عني فضلة العشر

لا أحب اللبث في زمن

حاجتى فيه الى البشر

فهم كسر لمنجبر

ما هم جبر لمنكر

ولما وصل ابن جبير ، رحمه الله ، مكة ١٣

ربيع الآخر سنة ٥٧٩ ، أنشد قصيدته التى

أولها :

بلغت المنى وحلت الحرم

فعاد شبابك بعد انهرم

فأهلا بمكة أهلا بها

وشكرا لمن شكره يلتزم

وهي طويلة ، وسيأتي بعضها .

وقال رحمه الله عند تفرقه للرحلة
الحجازية :

أقول وقد دعا للخير داع
حننت له حنين المستهام

حرام أن يلذ لي اغتماض
ولم أرحل إلى البيت الحرام

ولا طافت بي الآمال أن لم
أطف ما بين زمزم والمقام

ولا طابت حياة لي إذا لم
أزر في طيبة خير الأنام

وأهديه السلام وأقتضيه
رضى يدني إلى دار السلام

وقال :

هنيئاً لمن حج بيت الهدى ... (البيتين)

ولنختم ترجمته بقوله :

أحب النبي المصطفى وابن عمه

علياً وسبطيه وفاطمة الزهرا

هثم أهل بيت أذهب الرجس عنهم

وأطلعهم أفق الهدى أنجما زهرا

موالاتهم فرض على كل مسلم

وحبهم أسنى الذخائر للأخرى *

وما أنا للصحب الكرام ببغض

فأني أرى البغضاء في حقهم كفر

هثم جاهدوا في الله حق جهاده

وهم نصروا دين الهدى بالقبلى نصرا

عليهم سلام الله ما دام ذكرهم
لدى الملأ الأعلى وأكرم به ذكرا

وقوله في آخر الميمية :

نبي شفاعته عصاة

فيوم التنادى به يعتصم

عسى أن تجاب لنا دعوة

لديه فتكفى بها ما أهم

ويرعى لزواره في غد

ذماما فما زال يرعى الذمم

عليه السلام وطوبى لمن

ألم بتربيته فاستلم

أخى كم تسابع أهواءنا

ونخط عشواءها في الظلم

رويدك جرت فمج واقتصد

أمامك نهج الطريق الأعم

وتب قبل عض ينان الأسى

ومن قبل قرعك سن الندم

ومنها :

وقل رب هب رحمة في غد

لعبد بسمي العصاة اتسم

جری فی میادین عصیانہ

مسیئا ودان بكفر النعم

فیارب صفحك عما جنى

ویارب عفوك عما اجترم

وقال المقرئ^١ ، رحمه الله عليه ، في الباب

السابع من كتابه ما نصه : ومن الحكايات في

مروءة أهل الأندلس ، ما ذكره صاحب

« الملتبس » فى ترجمة الكاتب الأديب الشهير
أبى الحسين بن جبير صاحب الرحلة ، وقد
قدمنا ترجمته فى الباب الخامس من هذا
الكتاب ، وذكرنا هنالك أنه كان من أهل
المروءات عاشقا^٢ فى قضاء الحوائج ، والسعى
فى حقوق الاخوان * ، وأنشدنا هنالك قوله
« يحسب الناس بأنى مرتعب » .. الخ .

وقد ذكر ذلك كله صاحب « الملتبس » ،
ثم قال (أعنى صاحب الملتبس) : ومن أغرب
ما يحكى أنى كنت أحرص الناس على أن
أصاهر قاضى غرناطة أبا محمد عبد المنعم
ابن الفرس ، فجعلته (يعنى ابن جبير)
الواسطة حتى تيسر ذلك ، فلم يوفق الله ما
بينى وبين الزوجة ، فجئته وشكوت له ذلك ،
فقال : أنا ما كان القصد لى فى اجتماعكما ،
ولكن سمعت جهدى فى غرضك ، وهأنا
أسعى أيضا فى افتراقكما اذ هو من غرضك .

وخرج فى الحين ، ففصل القضية ، ولم أر
فى وجهه أولا ولا أخيرا عنوانا لامتنان ولا
تصعيب . ثم انه طرقت بابى ، ففتحت له ،
ودخل وفى يده محفظة فيها مائة دينار
مؤمنية ، فقال : يا ابن أخى أعلم أنى كنت
السبب فى هذه القضية ، ولم أشك أنك
خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذى وجدته
الآن عند عمك ، فبالله إلا ما سررتنى بقبوله

فقلت له : أنا ما أستحيى منك فى هذا الأمر ،
والله ان أخذت هذا المال لأتلفنه فيما أتلفت
فيه مال والذى من أمور الشباب ، ولا يحل
لك أن تمكنى^١ به بعد أن شرحت لك أمرى .

فتبسم وقال : لقد احتلت فى الخروج عن
المنة بحيلة ، وانصرف بماله . انتهى .

ثم قال صاحب الملتبس : وتذاكرنا يوما
معه حالة الزاهد أبى عمران المارتنلى ، فقال :
صحبتة مدة فما رأيت مثله ، وأنشدنى شعرين
ما نسيتهما ، ولا أنساهما ما استطعت ،
فالأول قوله :

الى كم أقول فلا أفعل
وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر عيني فلا ترعوى
وأنصح نفسي فلا تقبل
وكم ذا تعمل لى ويحها
بعل^٢ وسوف وكم تمطل
وكم ذا أومل طول البقا
وأغفل والموت لا يغفل

وفى كل يوم ينادى بنا
منادى الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا
وسبع أنت بعدها تعجل
كأن بى وشيكا الى مصرعى
يساق بنعشى ولا أمهل
فياليت شعرى بعد السؤال
وطول المقام ، لما أنقل

والثانى قوله^١ :

اسمع أخى نصيحتى
والنصح من محض الديانة

لا تقربن الى الشها
دة والوساطة والامانة
تسلم من ان تعزى لزو
ر أو فضول أو خيانه
قال : قفلت له : أراك لم تعمل بوصيته فى
الوساطة ، فقال : ما ساعدتنى رقة وجهى على
ذلك . انتهى .

وفى كتاب « رحلة المبدرى » ما صورته :
قال : وأنشدنى (شيخنا أبو زيد) أيضا ، قال :
أنشدنى أبو عمرو بن الشقر ، قال : أنشدنى
الفقيه الزاهد ، المنقطع الى الله بمهجته ، أبو
الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى
بالاسكندرية لنفسه ٢ :

تأن ٣ فى الأمر لا تكن عجلا
فمن تأنى أصاب أو كادا
وكن بجبل الله الاله ٤ معتصما
تأمن به بغي كل من كادا
فمن رجاء فئال بغيته
عبد ٥ مسىء بنفسه كادا
ومن تطل صحبة الزمان له
يلق خطوبا به وأنكادا
وينحوه له :

صن العقل ١ عن لحظة فى هوى
فان البصيرة طوع البصر
وغض جفونك ٢ عن عفة
فان زناء العيون النظر

وأنشدنى أيضا بمثله :
أما فى الدهر معتبر
ففيه الصفو والكدر
فسلنى ٢ عن تقلبه
فعند جهينة الخبر
صحبناه الى أجل
نراقبه ونحتذر
فياعجبا لمرتحل
ولا يدري متى السفر

وقال المبدرى أيضا ، بعد وصفه
الاسكندرية وعجائبها ١ : ومن الأمر المستغرب
والحال الذى أفصح عن قلة دينهم (يعنى أهل
الاسكندرية) أنهم يعترضون الحجاج ،
ويجرعونهم من بحر الاهانة الملح الأجاج ،
ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج ،
يبحثون عما بأيديهم من مال ، ويأمرون
بتفتيش النساء والرجال .

وقد رأيت من ذلك ، يوم ورودنا عليهم ،
ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصال عنهم
غاية أربى . وذلك لما وصل اليها الركب ،
جاءت شرذمة ٥ من الحرس — لا حرس الله
مهجتهم الخبيسة ، ولا أعدم منهم لأسد
الآفات فريسة ١ — فمدوا فى الحجاج أيديهم ،
وقتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعا
من المظالم ، وأذاقوهم ألوانا من الهوان ،
ثم استخلفوهم وراء ذلك كله .

وما رأيت هذه العادة الذميمة ، والشيمة
الليثية ، فى بلد ٢ من البلاد . ولا رأيت فى
الناس أقسى قلوبا ، ولا أقل حياء ومروءة ،

ولا أكثر اعراضا عن الله سبحانه ، وجفاء لأهل
دينه ، من أهل هذا البلد . نعوذ بالله من
الخذلان ، فلو شاء لاعتدل المائل ، واتبعه
الوسنان .

وكنت اذ رأيت فعل المذكورين ، ظننت أن
ذلك أمر^٢ أحدثوه ، حتى حدثني نور الدين
أبو عبد الله بن زين الدين أبي الحسن يحيى
ابن الشيخ وجيه الدين أبي علي منصور بن
عبد العزيز بن حباة الاسكندري ، بمدرسة
جده^٣ المذكور ، حكاية اقتضت أن لهم في
هذه الفضائح سلفا غير صالح .

وذلك أنه حدثني املاء من كتابه ، قال :
حدثني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن
عمر بن محمد السبتي الحميري ، بشعر
الاسكندرية سنة ٦٦٢ ، قال : حدثني الشيخ
الامام المحدث أبو الحسين^٤ محمد بن أحمد
ابن جبير ، الكنانى الأندلسي^٥ ، سنة ٦١١ :
أنه ورد الى الاسكندرية ، في ركب عظيم عن
المغاربة ، برسم الحج ، فأمر الناظر على
البلاد بسد اليد فيهم للتفتيش ، والبحث عما
بأيديهم ، ففتش الرجال والنساء . وهتكت
حرمة الحرم ، ولم يكن فيهم ابقاء على أحد .

قال : فلما جاءتنى التوبة — وكانت معي
حرم — ذكرتهم بالله ووعظتهم ، فلم يرجعوا^٦
على قولي ، ولا انتفضوا الى كلامي ،
وفتشوني كما فتشوا غيري . فاستخرت الله
تعالى ، ونظمت هذه القصيدة ناصحا للأمير
المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب ،
ومذكرا له بالله في حقوق المسلمين ، ومادحا
له ، فقلت :

أطلت على أفقك^٧ الزاهر
سعود من الفلك الدائر
فأبشر فان رقاب العدى
تمد الى سيفك الباتر
وعما قليل يحل الردى
بكيدهم الناكث الفادر

وخصب الورى يوم يسقى^٨
الثرى سحاب من دمها الهامر
فكم لك من فتكة فيهم
حكت فتكة الأسد الخادر

كسرت صليهم عنوة
فله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها
فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك في غزوهم
فتعسا لجدهم العائر

فأدبر ملكهم بالشام
وولى كأمهم الدابر^٩
جنودك بالرعب منصوره
فناجز متى شئت أو صابر

فكلهم غارق هالك
بتيار عسكرك الزاخر

ثارت لدين الهدى في العدى
فأترك الله من ثائر

وقمت بنصر اله الورى
فساك بالملك الناصر

وتسهر بجفئك في حق من
سيرضيك في جفئك الساهر
فتحت المقدس من أرضه
فمادت الى وصفها الطاهر
وجئت الى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رءسه الدائر
لكم زخر الله هذى^٢ الفتوح
من الزمن الأول الغابر
وخصك من بعد ما زرته
بها لاصطناعك في الآخر
محببتكم ألقى في النفوس
بذكر لكم في الوري طائر
فكم لهم عند ذكر الملوك
بمثلك من مثل سائر
رفعت مقام أرض^٣ الحجاز
بانعامك الشامل الغامر
(وآمنت أكناف تلك البلاد
فهان السيل على العابر)
(وسحب أياديك فياضة
على وارد وعلى صادر)
فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك في الغرب^١ من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عام
بمكة من معلى جاهر

وكم بقيت حبة في الظلوم
وتلك الذخيرة في الذاهر
يئنت حجاج بيت الاله^٢
ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم
وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعدما كوشفوا
كأنهم في يد الأسر
ويلزمهم حلما باطلا
وعقبنى اليمين على الفاجر
وان عرضت بينهم حرمة
فليس لها عنه من ساتر
أليس يخاف غدا عرضه
على الملك القادر القاهر
وليس على حرم المسلمين
بتلك المشاهد من غائر
ولا حاضر نافع زجره
فياذلة الحاضر الزاجر
ألا ناصح مبلغ نصحه
الى الملك الناصر الظافر^٣
ظلوم تضمن مال الزكاة
لقد تعست صفقة الخاسر
يسر الخيانة في باطن
ويبدى النصيحة في الظاهر
فأوقع به حادث اله
يقبح أحدىة الذكر

فما للمناكر من زاجر
سواك وبالعرف من أمر

وحاشاك ان لم تزل رسمها
فما لك في الناس من عاذر

ورفعك أمثالها موسع
رداء فحارك من ناشر

وآثرك العز تبغى بها
وتلك المآثر للأثر

نذرت النصيحة في حقكم
وحق الوفاء على الناذر

وحبك أنطقني بالقريض
وما أبتغى صلة الشاعر

ولا كان فيما مضى مكسبي
وبئس البضاعة للتاجر

إذا الشعر صار شعار الفتى
فناهيك من لقب شاهر

وان كان نظمي له ناذرا
فقد قيل لا حكم للناذر

ولكنها خطرات الهوى
تعز ، فتغلب بالخاطر

وأما وقد زار تلك العلي
فقد فاز بالشرف الباهر

وان كان منك قبول له
فتلك الكرامة للزائر

ويكفيك سماعك من سامع
ويكفيك لحظك للمناظر

ويزهى على الروض غيب العيا
بما حاز من ذلك العاطر

قلت : هكذا حدثني أبو عبد الله بهذه
الحكاية ، وقد وقعت في كتابه مشهورة ، لم
يذكر فيه الا ما أثبتته ، وبالله التوفيق .

وأشددني أبو عبد الله أيضا ، عن أبي
العباس المذكور ، عن ابن جبير ، قصيدة نظمها
ارتجالا حين تراءت له مدينة رسول الله ، صلى
الله عليه وسلم ، وهى هذه :

أقول وآنست ... الأبيات .

وقال على بن غافر في « بدائع البداية » :
أنبأني المسكى : نزلت من القرافة لوداع الأجل
أبى الحسين بن جبير ، فقال لى : كنت على
المجىء اليك ، فقلت : وهمة سيدى هى التى
آتت بى ، فسألنى عن القرافة ، فقلت : هى
موضع يصلح للخير والشر ، من طلب شيئا
وجده ، فقال : خذ هذه الحكاية ، كنت
متفرجا فى مكان وبته به ، ثم أقبلت منه
بكرة ، فلقينى تلميذ لى فقال :

من أين أقبلت يا من لا نظير له
ومن هو الشمس والدنيا له فلك ا

فأجبتة مسرعا :

من موضع تعجب النساك خلوته
وفيه ستر على الفتاك ان فتكوا

رحلتہ ابنِ جُبَیْن

وامر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، ومافضل
من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان
يتوكلون بهم ، وبحمل جميع ما أنزلوه الى
الديوان . فاستدعوا واحدا واحدا ، وأحضر
ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد
غص بالزحام .

فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها
وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت
الأيدي الى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون
فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير
ما وجدوا لهم أم لا ، وفى أثناء ذلك ذهب
كثير من أسباب الناس ، لاختلاط الأيدي
وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من
الذل والخزي عظيم . نسأل الله أن يعظم
الأجر بذلك ٢ .

وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على
السلطان الكبير ، المعروف بصلاح الدين ،
ولو علم بذلك — على ما يؤثر عنه من العدل ،
واشار الرفق — لأزال ذلك ، وكفى الله
المؤمنين تلك الخطبة الشاقة ، واستؤدوا ٣
الزكاة على أجمل الوجوه . وما لقينا ببلاد هذا
الرجل ، ما يلزم به قبيح لبعض الذكر ، سوى
هذه الأحذوثة التى هى من نتائج عمال
الدواوين .

ذكر بعض اخبار الاسكندرية وآثارها

فأول ذلك حسن وضع البلد ، واتساع
مبانيه ٤ ، حتى انا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك
منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل
منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضا .

ومن العجب فى وضعه * أن بناءه تحت
الأرض كبنائها فوقها ، وأعتق وأمتن ، لأن
الماء ٦ من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها
تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ،
ويمد بعضها بعضا .

وعاينا فيها أيضا من سوارى الرخام ،
وألواح كثره وعلوا واتساعا ١ وحسنا ، ما لا
يتخيل ٢ بالوهم ، حتى انك تلقى فى بعض
المرات ٣ بها سوارى يغص الجو بها صعودا
لا يدرى ما معناها ، ولا لما كان أصل
وضعها . وذكر لنا أنه كان عليها فى القديم
مبان للفلاسفة ٤ خاصة ، ولأهل الرئاسة فى
ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبه أن يكون
ذلك للرصد .

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها « المنار »
الذى قد وضعه الله عز وجل ، على يدي من
سخر لذلك ، آية للمتوسمين ٥ ، وهداة
للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر الى
بر الاسكندرية ، يظهر ٦ على أزيد من سبعين
ميلا . ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا
وعرضا ، يزاحم الجو سوا وارتفاعا ، يقصر
عنه الوصف ، ويحصر دونه الطرف ، الجبر
عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع . ذرعتا أحد
جوانبه الأربعة ٧ ، فألفينا فيه نيفا وخمسين
باعا ، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة
وخمسين قامه .

وأما داخله فرأى هائل ، اتساع معارج
ومداخل ٨ وكثرة مساكن ، حتى ان المتصرف
فيها ، والوالج فى مسالكها ٩ ، ربما ضل ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار

قرية تعرف بقرية « النشمة » من قرى مدينة ابن السليم ، ثم منها الى « جزيرة طريف » ، وذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من الشهر المؤرخ * .

فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثاني من نزولنا * ، يسر الله علينا في عبور البحر الى « قصر مصودة » تيسيرا عجيبا والحمد لله ، ونهضنا منه الى « سبتة » غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه ، وألقينا بها مركبا للروم الجنوبيين مقلعا الى الاسكندرية -- بحول الله عز وجل -- فسهل الله علينا في الركوب فيه ، وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه ، وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور ، بحول الله تعالى وعونه لا رب غيره .

وكان طريقنا في البحر محاذيا لبر الأندلس ، وفارقناه يوم الخميس السادس لذي القعدة بعده عندما حاذينا ذانية . وفي صبيحة يوم الجمعة ، السابع من الشهر المذكور آنفا ، قابلنا بر جزيرة يابسة ، ثم يوم

ابتدىء بتقييدها يوم الجمعة ، الموفى ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسائة ، على متن البحر بمقابلة جبل شلكير ، عرفنا الله السلامة بئنه .

وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة — حرسها الله — للنية الحجازية المباركة — قرنهما الله بالتيسير والتسهيل ، وتعريف الصنع الجميل — أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور ، وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي .

وكان الاجتياز على « جَيَّان » لقضاء بعض الأسباب ، ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور ، وبموافقة اليوم الرابع عشر لشهر فبراير المذكور أيضا .

وكانت مرحلتنا الأولى منها الى « حصن لغيداق » ، ثم منه الى « حصن قبرة » ٢ ، ثم منه الى مدينة « استجة » ، ثم ٣ منها الى « حصن أشونة » ، ثم منه الى « شَلْبَر » ٤ ، ثم منه الى « حصن أركش » ، ثم منه الى

السبت بعده قابلنا بجزيرة ميورقة ، ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة^٢ ، ومن سبتة اليها نحو ثمانية مجار ، والمجرى مائة ميل .

وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة ، وقام معنا بر جزيرة سردانية ، أول ليلة الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن من مارس^٣ ، دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل ، وبين الجزيرتين سردانية ومنورقة^٤ نحو الأربعمئة ميل ، فكان قطعاً مستغرباً فى السرعة ، وطراً علينا من مقابلة البر فى الليل هول عظيم ، عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى فى الحين من تلقاء البر ، فأخرجنا عنه ، والحمد لله على ذلك .

وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور ، فبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية الى يوم الأربعاء بعده ، فأطلع الله علينا — فى حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء ، فلا نميز شرقاً^٥ من غرب — مركبا للروم قصدنا الى أن حاذانا ، فسئل عن مقصده ، فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية ، وأنه من قرطاجنة عمل مرسية .

وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير علم ، فأخذنا عند ذلك فى اتباع أثره — والله الميسر لا رب سواه — فخرج علينا طرف : من بر سردانية المذكور ، فأخذنا فى الرجوع عوداً على بدء ، الى أن وصلنا طرفاً من البر المذكور يعرف^٦ بقوسمركة — وهو مرسى معروف عندهم — فأرسلنا به ظهر يوم الأربعاء المذكور والمركب المذكور معنا ،

وبهذا الموضع المذكور أثر لبنيان قديم ، ذكر لنا أنه كان منزلاً لليهود فيما سلف ، ثم انا أقلعنا منه ظهر يوم الأحد السادس عشر من الشهر المذكور .

وفى مدة مثقمانا بالمرسى المذكور ، جددنا فيه الماء والخطب والزاد ، وهبط واحد من المسلمين ، ممن يحفظ اللسان الرومى ، مع جملة من الروم الى أقرب المواضع المعمورة منا ، فأعلمنا أنه رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين ، بين رجال ونساء ، يباعون فى السوق ، وكان ذلك عند وصول العدو — دمره الله — بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين ، والله يتداركهم برحمته .

ووصل الى المرسى المذكور ، يوم الجمعة الثالث من يوم أرسينا فيه ، سلطان الجزيرة المذكورة مع جملة من الخيل ، فنزل اليه أشياخ المركب من الزوم ، واجتمعوا به ، وطال مقامهم عنده ، ثم انصرفوا وانصرف الى موضع سكناه . وتركنا المركب المذكور فى موضع ارسائه ، بسبب مغيب بعض أصحابه فى البلد ، عند هبوب الريح الموافقة لنا فى^٧ ليلة الثلاثاء الثامن عشر نذى القعدة المذكور ، والخامس عشر من شهر مارس المذكور أيضاً ، وفى الربع الباقي منها ، فارقنا بر سردانية المذكورة ، وهو بر طويل جريئاً بحذائه نحو المائتى ميل ، ومنتهى دور الجزيرة — على ما ذكرنا — الى أزيد من خمسمائة ميل ، ويسر الله علينا فى التخلص من بحرها لأنه أصعب ما فى الطريق ، والخروج منه يتعذر فى أكثر الأحيان ، والحمد لله على ذلك .

ثم تلافى بجميل رحمته ولطفه رافته ، حمدا
يكون كفاء لمنتته ونعمته .

وفى هذا الصباح المذكور ظهر لنا بر
صقلية ، وقد أجزنا أكثره ، ولم يبق منه الا
الأقل . وأجمع من حضر من رؤساء البحر من
الروم ، ومن شاهد الأسفار والأهوال فى
البحر من المسلمين ، أنهم لم يعاينوا قط مثل
هذا الهول فيما سلف من أعمارهم ، والخبر
عن هذه الحالة يصغر فى خبرها . وبين البرين
المذكورين — بر سردانية وبر صقلية — نحو
الأربعمائة ميل ، واستصحبنا من بر صقلية
أزيد من مائتى ميل ، ثم ترددنا بحذائه
بسبب سكون الريح .

فلما كان عصر يوم الجمعة ، الحادى
والعشرين من الشهر المذكور ، أقلعنا من
الموضع الذى كنا أرسينا فيه ، وفارقنا البر
المذكور أول تلك الليلة ، وأصبحنا يوم
السبت وبيننا وبينه مسافة بعيدة ، وظهر لنا
اذ ذاك الجبل الذى كان فيه البركان ، وهو
جبل عظيم مصعد فى جو السماء قد كساه
الثلج ، وأعلمنا أنه يظهر فى البحر مع الصحو
على أزيد من مسيرة مائة ميل .

فأخذنا ملججين ، وأقرب ما قومه من البر
الينا جزيرة اقريطش ، وهى من جزائر الروم ،
ونظرها الى صاحب القسطنطينية ، وبينهما
وبين جزيرة صقلية مسيرة سبعمائة ميل ،
والله كفىل بالتيسير والتسهيل بمنه . وفى
طول هذه الجزيرة ، جزيرة اقريطش المذكورة ،
نحو من ثلثمائة ميل .

وفى ليلة الأربعاء بعدها ، من أولها ،
عصفت علينا ريح هال لها البحر ، وجاء معها
مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شأيب سهام .
فعظم الخطب ، واشتد الكرب ، وجاءنا الموج
من كل مكان أمثال الجبال السائرة ، فبقينا
على تلك الحال الليل كله ، واليأس قد بلغ
منا مبلغه ، وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف
عنا بعض ما نزل بنا .

فجاء النهار — وهو يوم الأربعاء التاسع
عشر من ذى القعدة^١ — بما هو أشد هولاً ،
وأعظم كرباً ، وزاد البحر احتياجاً ، وارتدت^٢
الآفاق سواداً ، واستشرت الريح والمطر
عصوفاً حتى لم يثبت معها شراع ، فلتجىء
الى استعمال الشرع الصغار ، فأخذت الريح
أحدها ومزقته ، وكسرت الخشبة التى ترتبط
الشرع فيها — وهى المعروفة عندهم
بالقرية — فحينئذ تمكن اليأس من النفوس ،
وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء الى الله عز
وجل ، وأقمنا على تلك الحال النهار كله .
فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور ،
وسرنا فى هذه الحالة كلها بريح " الصوارى
سيراً سريعاً .

وفى ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية ،
وبتنا^٣ تلك الليلة — التى هى ليلة الخميس
التالية لليوم المذكور — مترددين بين الرجاء
واليأس . فلما أسفر الصبح نشر الله رحمته ،
وأقشعت السحاب ، وطاب الهواء ، وأضاءت
الشمس ، وأخذ فى السكون البحر ،
فاستبشر الناس ، وعاد الأئس ، وذهب
اليأس . والحمد لله الذى أرانا عظيم قدرته ،

وفى ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من الشهر المذكور ، وهو الثانى والعشرون^١ من شهر مارس ، حاذينا البر المذكور تقديرا لا عيانا ، وفى صبيحة اليوم المذكور فارقتاه متوجهين لقصدنا ، وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الاسكندرية ستمائة ميل أو نحوها .

وفى صبيحة يوم الأربعاء ، السادس والعشرين منه ، ظهر لنا البر الكبير المتصل بالاسكندرية - المعروف ببر الغرب^٢ - وحاذينا منه موضعا يعرف بجزائر الحمام^٣ ، على ما ذكر لنا ، وبينه وبين الاسكندرية نحو الأربعمائة ميل على ما ذكر لنا ، فأخذنا فى السير والبر المذكور منا يمينا .

وفى صبيحة يوم السبت ، التاسع والعشرين من الشهر المذكور ، أطلع الله علينا البشرى بالسلامة^٤ بظهور منار الاسكندرية على نحو العشرين ميلا ، والحمد على ذلك حمدا يقتضى المزيد من فضله وكريم صنعه . وفى آخر الساعة الخامسة منه ، كان ارساؤنا بمرسى البلد ، ونزلنا اثر ذلك ، والله المستعان فيما بقى بمنه .

فكانت اقامتنا على متن البحر ثلاثين يوما ، ونزلنا فى الحادى والثلاثين . لأن ركوبنا إياه كان يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال ، ونزلنا عنه فى يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة ، وبموافقة السادس والعشرين من مارس والحمد لله على ما من به من التيسير

والتسهيل ، وهو سبحانه المسئول بتتميم النعمة علينا ببلوغ الغرض من المقصود ، وتعجيل الاياب الى الوطن على خير وعافية ، انه المنعم بذلك لا رب سواه .

وكان نزولنا بها^١ بفندق يعرف بفندق الصفار ، بمقربة من الصبانة .

شهر ذى الحجة من السنة المذكورة

أوله يوم الأحد ثانى يوم نزولنا بالاسكندرية . فمن أول ما شاهدنا فيها ، يوم نزولنا ، أن طلع أمناء الى المركب ، من قبل^٢ السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه .

فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين ، واحدا واحدا ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ، ليؤدى زكاة ذلك كله ، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل . وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة ، لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم ، فلزموا^٣ أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال^٤ عليه حول أم لا .

واستنزل أحمد بن حسان منا ، ليسأل^٥ عن أنباء المغرب وطلع المركب ، فطيف به مرقبا على السلطان أولا ، ثم على القاضى ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفى كل يستفهم ثم يقيد^٦ قوله ، فخلى سبيله .

وامر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، ومافضل
من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان
يتوكلون بهم ، وبجعل جميع ما أنزلوه الى
الديوان . فاستدعوا واحدا واحدا ، وأحضر
ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد
غص بالزحام .

فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها
وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت
الأيدي الى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون
فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير
ما وجدوا لهم أم لا ، وفي أثناء ذلك ذهب
كثير من أسباب الناس ، لاختلاط الأيدي
وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من
الذل والخزي عظيم . نسأل الله أن يعظم
الأجر بذلك ٢ .

وهذه لا محالة من الأمور الملتبس فيها على
السلطان الكبير ، المعروف بصلاح الدين ،
ولو علم بذلك — على ما يؤثر عنه من العدل ،
وايثار الرفق — لأزال ذلك ، وكفى الله
المؤمنين تلك الخطبة الشاقة ، واستؤدوا ٣
الزكاة على أجمل الوجوه . وما لقينا ببلاد هذا
الرجل ، ما يلم به قبيح لبعض الذكر ، سوى
هذه الأحدوثة التي هي من نتائج عمال
الدواوين .

ذكر بعض اخبار الاسكندرية وأثارها

فأول ذلك حسن وضع البلد ، واتساع
مبايه ٤ ، حتى انا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك
منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل
منه ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضا .

ومن العجب في وضعه ٥ أن بناه تحت
الأرض كبنائها فوقها ، وأعتق وأمتن ، لأن
الماء ٦ من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها
تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ،
ويمد بعضها بعضا .

وعاينا فيها أيضا من سوارى الرخام ،
والواحه كثرة وعلوا واتساعا ٧ وحسنا ، ما لا
يتخيل ٨ بالوهم ، حتى انك تلقى في بعض
المرات ٩ بها سوارى ينص الجو بها صعودا
لا يدرى ما معناها ، ولا لما كان أصل
وضعها . وذكر لنا أنه كان عليها في القديم
مبان للفلاسفة ٤ خاصة ، ولأهل الرئاسة في
ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبه أن يكون
ذلك للرصد .

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها « المنار »
الذي قد وضعه الله عز وجل ، على يدي من
سخر لذلك ، آية للمتوسمين ٥ ، وهذه
للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا في البحر الى
بر الاسكندرية ، يظهر ٦ على أزيد من سبعين
ميلا . ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولا
وعرضا ، يزاحم الجو سموا وارتقاعا ، يقصر
عنه الوصف ، وينحصر دونه الطرف ، الخبر
عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع . ذرعتنا أحد
جوانبه الأربعة ٧ ، فألفينا فيه نيفا وخمسين
بأعا ، ويذكر أن في طوله أزيد من مائة
وخمسين قامة .

وأما داخله فمرأى هائل ، اتساع مغارج
ومداخل ٨ وكثرة مساكن ، حتى ان المتصرف
فيها ، والوالج في مسالكها ٩ ، ربما ضل ،

وبالجملة لا يحصلها القول ، والله لا يخليه من دعوة الاسلام ويبقيه . وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا اليه يوم الخميس الخامس لذي الحجة المؤرخ ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجا لا يستوفيه وصف واصف

ومن مناقب هذا البلد ، ومفاخره العائدة فى الحقيقة الى سلطانه ، المدارس والمحارس الموضوعة فيه^١ لأهل الطلب والتعب ، يقدون من الأنظار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعليمه ، واجراء يقوم به فى جميع أحواله .

واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرؤهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء .

وقد رتب أيضا فيه أقوام ، برسم الزيارة للمرضى الذين يتزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون الى الأطباء أحوالهم ، ليتكفلوا بمعالجتهم .

ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان^٢ فى كل يوم ، بالغما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك ، كل يوم ، انسانا أميناً من قبله ،

وقد ينتهى فى اليوم الى ألفى خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة ، هكذا دائما .

ولهذا كله أوقاف من قبله ، حاشى ما عينه من زكاة العين لذلك ، وأكد على المتولين لذلك ، متى نقصهم من الوظائف المرسومة شئ ، أن يرجعوا الى صلب ماله . وأما أهل بلده ففى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيف البتة .

ولا فائد للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسة ، المعينة من قبله بهذه الوجوه ، وجزية اليهود والنصارى ، وما يطرأ من زكاة العين خاصة ، ليس له منها سوى ثلاثة أثمانها ، والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة .

وهذا السلطان الذى من هذه السنن الحمودة ، ورسم هذه الرسوم ، الكريمة — على عدمها فى المدة البعيدة — هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب وصل الله صلاحه وتوفيقه .

ومن أعجب ما اتفق للغرباء ، أن بعض من يريد التقرب بالنصائح الى السلطان ، ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جزية الخبز ، ولا حاجة لهم بها ، رغبة فى المعيشة ، لأنهم لا يصلون الا يزداد يقلهم ، فكاد يؤثر معنى هذا المتصح .

فلما كان فى أحد الأيام ، خرج السلطان المذكور ، على سبيل التطلع خارج بلده ، فالتقى منهم جماعة قد لفظتهم الصحراء المتصلة بطرابلس ، وهم قد ذهبوا رسومهم عطشا

وجوعا ، فسألهم عن وجهتهم ، واستطلع ما لديهم ، فأعلموه أنهم قاصدون بيت الله الحرام ، وأنهم ركبوا البر ، وكابدوا مشقة صحراوية

فقال : لو وصل هؤلاء - وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التي اعتسفوها ، وكابدوا من الشقاء ما كابدوه - ويبد كل واحد منهم زنته ذهباً وفضة ، لوجب أن يشاركوا ، ولا يقطعوا عن العادة التي أجريناها لهم ، فالمعجب من يسعى على مثل هؤلاء ، ويروم التقرب إلينا بالسعى في قطع ما أوجبناه الله عز وجل خالصا لوجهه . ومأثر هذا السلطان ومقاصده في العدل ، ومقاماته في الذب عن حوزة الدين ، لا تحصى كثرة .

ومن الغريب أيضا ، في أحوال هذا البلد ، تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم ، وهو أكثر بلاد الله مساجد ، حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم الكثير والمقلل : فالكثير ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد ، والمقلل ما دون ذلك لا ينضب : فمنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك .

وبالجملة فهي كثيرة جدا ، تكون منها الأربعة والخمسة في موضع ، وربما كانت مركبة وكلها بأيمة مرتبين من قبل السلطان : فمنهم من له فوق ذلك ، ومنهم من له دونه . وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التي يضيق عنها الحصر .

ثم كان الانفصال عنها - على بركة الله تعالى وحسن عوله - صبيحة يوم الأحد ، الثامن لذي الحجة المذكور ، وهو الثالث لابريل . فكانت مرحلتنا منه إلى موضع يعرف بدمنهور ، وهو بلد مسور ، في بسيط من الأرض أفيح ، متصل من الاسكندرية إليه إلى مصر ، والبسيط كله محرث ، يعمه النيل بفيضه ، والقرى فيه يمينا وشمالا لا تحصى كثرة .

ثم في اليوم الثاني ، وهو يوم الاثنين ، أجزنا النيل بموضع يعرف بصا ، في مركب تعبدية ، واتصل سيرنا إلى موضع يعرف ببرمة ، فكان مبيتنا بها ، وهي قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق .

ثم بكرنا منها يوم الثلاثاء ، وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة المؤرخة ، فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطندة ١ ، وهي من القرى الفسيحة الأهلة ، فأبصرنا بها مجمعا حفيلا ، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة ، واتصل سيرنا إلى موضع يعرف بسبك ، وكان مبيتنا بها ، واجتزنا في ذلك اليوم على موضع حسن يعرف بمليج ، والعمارة متصلة ، والقرى منتظمة في طريقنا كلها .

ثم بكرنا منها يوم الأربعاء بعده ، فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف بقلوب ، على ستة أميال من القاهرة ، فيه الأسواق الجميلة ، ومسجد جامع كبير حفيلا البنيان ، ثم بعده المنبة ، وهو موضع أيضا حفيلا ، ثم

منها الى القاهرة ، وهى مدينة السلطان الحفيلة المتسعة ، ثم منها الى مصر المحروسة .

وكان دخولنا فيها اثر صلاة العصر من يوم الأربعاء ، وهو الحادى عشر من ذى الحجة المذكور ، والسادس من ابريل ، عرفنا الله فيها الخير والخيرة ، وتم علينا صنعه الجميل بالوصول ^٢ الى الغرض المأمول ، ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته ، انه على ما يشاء قدير .

وفى يوم الأربعاء المذكور ، أجزنا القسم الثانى من النيل ، فى مركب تعدية أيضا بموضع يعرف بدجوة ، وذلك وقت الغداة الصغرى ، وكان نزولنا فى مصر بفندق أبى الشاء ، فى زقاق القناديل ، بمقربة من جامع عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، فى حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور .

ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارها العجيبة

فأول ما نبدأ بذكره منها ، الآثار والمشاهد المباركة ، التى يبركتها يمسكها الله عز وجل . فمن ذلك المشهد العظيم الشان ، الذى بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ^١ ، وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنيان حفيلى يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الادراك به ، معجل بأنواع الديباج ، مخفوف بأمثال ^٢ العمد الكبار شمعا أبيض ، ومنه ما هو دون ذلك ، قد وضع أكثرها فى أتوار فضة خالصة ، ومنها ماسية ، وعلقت عليه قناديل

فضة ، وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهباً ، فى مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسناً وجمالاً ، فيه من أنواع الرخام المجزع ، الغريب الصنعة البديع الترصيع ، ما لا يتخيله المتخيلون ، ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون .

والمدخل الى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والغرابة ، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة ، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان ^٣ من كليهما المدخل إليها ، وهما أيضا على تلك الصفة بعينها ، والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع .

ومن أعجب ما شاهدناه ، فى دخولنا الى هذا المسجد المبارك ، حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص ، يصف الأشخاص كلها كأنه المرأة الهندية الحديثة الصقل . وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، واحداً منهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين ، متوسلين الى الله سبحانه ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين ما ^١ يذيب الأكباد ، ويصدع الجباد ، والأمر فيه أعظم ، ومرأى الحال أهول ، نفعا الله ببركة ذلك المشهد الكريم .

وانما وقع الالماع نبذة من صفته ، مستدلاً ^٢ على ما وراء ذلك ، اذ لا ينبغي لعامل أن يتصدى لوصفه ، لأنه يقف موقف التقصير والعجز . وبالجمله فما أظن فى الوجود كله

مصنعا أحقل منه ، ولا مرأى من البناء أعجب
ولا أبدع ، قدس الله العضو الكريم الذى
فيه بمنه وكرمه .

وفى ليلة اليوم المذكور ، بتنا بالجبانة
المعروفة بالقرافة ، وهى ^٢ أيضا إحدى عجائب
الدنيا لما تحسبوى عليه من مشاهد الأنبياء ،
صلوات الله عليهم ، وأهل البيت رضوان الله
عليهم ، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد
والأولياء ، ذوى الكرامات الشهيرة والأبناء
الغريبة .

وانما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته :
فمنها قبر ابن النبى صالح ، وقبر رويسل بن
يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن ،
صلوات الله عليهم أجمعين ، وقبر آسية امرأة
فرعون رضى الله عنها ، ومشاهد أهل البيت
رضى الله عنهم أجمعين : مشاهد أربعة عشر
من الرجال ، وخمس من النساء ، وعلى كل
واحد منها بناء حفيلى ، فهى بأسرها روضات
بديعة الاتقان ، عجيبة البنيان ، قد وكل بها
قوامة يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها
منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها فى
كل شهر

ذكر مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم

مشهد على بن الحسين بن على رضى الله
عنه ، ومشهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق
رضى الله عنهم ، ومشهد القاسم بن محمد بن
جعفر الصادق بن محمد بن على زين العابدين
المذكور رضى الله عنهم ، ومشهدان لابنيه
الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ومشهد

ابنه عبد الله بن القاسم ^١ رضى الله عنه ،
ومشهد ابنه يحيى بن القاسم ، ومشهد على
ابن عبد الله بن القاسم رضى الله عنهم ، ومشهد
أخيه عيسى بن عبد الله رضى الله عنهما ،
ومشهد يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن
رضى الله عنهم ، ومشهد محمد بن عبد الله بن
محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين
ابن على ^٢ رضى الله عنهم ، ومشهد جعفر بن
محمد من ذرية على بن الحسين رضى الله
عنهم ، وذكر لنا أنه كان ربيب مالك رضى
الله عنه .

مشاهد الشريقات العلويات رضى الله عنهم

مشهد السيدة أم كلثوم ابنة القاسم بن
محمد بن جعفر رضى الله عنهم ، ومشهد
السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن على بن
الحسين ^٣ رضى الله عنهم ، ومشهد أم كلثوم
ابنة محمد بن جعفر الصادق رضى الله عنهم ،
ومشهد السيدة أم عبد الله بن القاسم بن
محمد رضى الله عنهم .

وهذا ذكر ما حصله العيان من هذه المشاهد
العلوية المكربة ، وهى أكثر من ذلك ،
وأخبرنا أن فى جملتها مشهدا مباركا لمريم
ابنة لعل ^٤ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو
مشهور ، لكننا ^٥ لم نعاينه .

وأسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة
انما ^٦ تلقيناها من التواريخ الثابتة عليها ، مع
تواتر الأخبار بصحة ذلك ، والله أعلم بها .
وعلى كل واحد منها بناء حفيلى ، فهى بأسرها

مشاهد الأئمة العلماء الزهاد

رضي الله عنهم أجمعين

مشهد الامام الشافعي رضي الله عنه ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا ، وبني بازائه مدرسة لم يعمر * بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بازائها الحمام الى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الامام الزاهد العالم ، المعروف بنجم الدين الخبوشاني ^١ ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ، ويقول ^٢ زد احتفالا وتأنقا ، وعطينا القيام بمؤنة ذلك كله . فسبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه .

ولقينا هذا الرجل الخبوشاني المذكور تبركا بدعائه ، لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس ، فألقيناه في مسجده بالقاهرة ، وفي البيت الذي يسكنه داخل المسجد المذكور ، وهو بيت ضيق الفناء ، فدعا لنا وانصرفنا ، ولم نلق من رجال مصر سواه .

مشهد الزني صاحب الامام الشافعي رضي الله عنه ، مشهد أشهب صاحب مالك رضي الله عنه ، مشهد عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك رضي الله عنهما ، مشهد أصبغ صاحب مالك رضي الله عنهما ، مشهد القاضي عبد الوهاب رضي الله عنه ، مشهد عبد الله بن عبد الحكم ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم رضي الله عنهما ^١ ، مشهد الفقيه الواعظ الزاهد

روضات بديعة الاتقان ، عجبية البنيان ، قد وكل بها قومة يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها في كل شهر .

ذكر مشاهد بعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرافة المذكورة ومشاهد التابعين والأئمة والعلماء والزهاد والأولياء المشتهرين بالكرامات ، رضي الله عنهم أجمعين

والمقيد يبرأ من القطع بصحة ^١ ذلك ، وانما رسم من أسمائهم ما وجدته مرسوما في تواريفها ، وبالجمل فالصحة غالبية لا يشك فيها ان شاء الله عز وجل :

مشهد معاذ بن جبل رضي الله عنه ، مشهد عقبة بن عامر الجهني حامل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشهد صاحب برده صلى الله عليه وسلم ، مشهد أبي الحسن صائغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشهد سارية الجبل رضي الله عنه ^٢ ، مشهد محمد بن أمي بكر الصديق رضي الله عنهما ، مشهد أولاده رضي الله عنهم ، مشهد أحمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، مشهد أسماء ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، مشهد ابن الزبير ^٣ بن العوام رضي الله عنهما ، مشهد عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشهد ابن حليمة وضيع ^٤ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المذكورة بسيط متسع ، يعرف بموضع قبور الشهداء ، وهم الذين استشهدوا مع سارية * رضى الله عنهم . والبسيط المذكور مستنم كله للعيان ، على مثال أسنة القبور دون بناء .

ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ، ومشاهد معبودة ، يأوى إليها القرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، والأجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر ، والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك ، وحقق عندنا أن الأجراء على ذلك كله ينف على ألفى دينار مصرية فى الشهر ، وهى أربعة آلاف دينار مؤمنة ، وذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من القائد ، نحو الثلاثين دينارا مصرية فى كل يوم ، تفرق فى مصالحه ومربيات قومه وسدته وأيمته والقراء فيه .

ومما شاهدناه بالقاهرة أربعة جوامع ، حافلة البنيان ، أئنة الصنعة ، لى مساجد عدة ، وفى أحد الجوامع الخطبة اليوم ، يأخذ الخطيب فيها مأخذ سى ، يجمع فيها الدعاء للصحابة رضى الله عنهم ، وللتابعين ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعميه الكريمين حمزة والعباس رضى الله عنهما ، ويلطف الوعظ ، ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية ، وتتفجر العيون الجامدة . ويأتى للخطبة لأبسا السواد على رسم العباسية ، وصفة لباسه بردة سوداء ، عليها طيلسان شرب أسود — وهو الذى يسمى بالمغرب

أبى الحسن الدينورى رضى الله عنه ، مشهد بنان العابد رضى الله عنه ، مشهد الرجل الصالح العابد الزاهد المعروف بصاحب الأبريق ، وقصته عجيبة فى الكرامة ، مشهد أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه ، مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعيناء رضى الله عنها ، مشهد الروذبارى رضى الله عنه ، مشهد محمد ابن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد — المعروف بالسبى رضى الله عنه ، مشهد الرجل الصالح مقل الحشى رضى الله عنه ، مشهد ذى النون بن ابراهيم المصرى رضى الله عنه ، مشهد القاضي الأبارى ، قبر الناطق الذى سمع عند وضعه فى لحده يقول : « اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » ٢ رضى الله عنه مشهد المروس — ولها أثر من الكرامة ، فى حال جلوتها على زوجها ، لم ٢ يسمع أعجب منه — ومشهد الصامت الذى يعكى عنه أنه لم يتكلم أربعين سنة ، مشهد العصافيرى مشهد عبد العزيز بن أحمد بن على بن الحسن الخوارزمى ، مشهد الفقيه الواعظ الأفضل ، الجوهرى ، ومشاهد أصحابه بازائه رضى الله عنهم أجمعين ، مشهد شقران شيخ ذى النون المصرى ، مشهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربى ، مشهد المقرئ ورش ، مشهد الطبرى ، مشهد شيان الراعى .

والمشاهد الكريمة بها أكثر من أن تضبط بالتقييد ، أو تتحصل بالاحصاء ، وانما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته . وبقبلة القرافة

مرفه ^٢ عن ذلك كله ، ولا وظيفة فى شىء من ذلك على أحد .

ومما شاهدناه أيضا ، من مفاخر هذا السلطان ، المارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا ، وعين قيما من أهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ، ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم .

وبازاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن أيضا من يكفلهن ، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الذناء ، فيه مقاصير عليها شبايك الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان ^٣ يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابة عليها غاية التأكيد .

وبمصر مارستان آخر على مثل ^١ ذلك الرسم بعينه .

وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير ، المنسوب الى أبى العباس أحمد بن طولون ، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان ، جعله السلطان مأوى للغرباء

الأحرام — وعبادة سوداء ، متقلدا ^١ سيف . وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر ، فى أول ارتقائه ، ضربة يسمع بها الحاضرين كأنها ايدان بالإنصات ، وفى توسطه ^٢ أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثلاثة ، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا ، ويقف بين رابتين سوداوين فيهما ^٣ تجزيع يياض قد ركزتا فى أعلى المنبر .

ودعاؤه فى هذا التاريخ للإمام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ابن الامام أبى محمد الحسن المستضى بالله ابن الامام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ، ثم لمحجى دولته أبى المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين ، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين .

وشاهدنا أيضا ببيان القلعة ، وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذها موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخرون فى هذا البنيان ، والمتولون لجميع امتهاناته ومؤتته العظيمة — كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المحدد بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول تقرا فى الصخر ، عجبا من العجائب الباقية الآثار — العلوج الأسارى من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة ، ولا سبيل أن يمتن فى ذلك البنيان أحد سواهم ^١ .

وللسلطان أيضا بمواضع آخر بنيان ، والأعلاج يخدمون فيه ، ومن يمكن استخدامه من المسلمين فى مثل هذه المنفعة العامة

من المغاربة يسكنونه ، ويحلقون فيه ، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر .

ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم اليهم ، ولم يجعل يدا لأحد عليهم . فقدموا من أنفسهم حاكما يمثلون أمره ، ويتحاكمون فى طوارئ أمورهم عنده ، واستصحبوا الدعة والعافية ، وتفرغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله .

وما منها جامع من الجوامع ، ولا مسجد من المساجد ، ولا روضة من الروضات المنية على القبور ، ولا محرس من المحارس ، ولا مدرسة من المدارس ، الا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى اليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال .

ومن مآثره الكريمة ، المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة ، أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم .

ومن مفاخر هذا السلطان ، وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بأزاء مصر ، كأنه جبل ممدود على الأرض ، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل ^٢ بالقنطرة المذكورة ، وهى ^٣ نحو الأربعين قوسا من أكبر ما يكون من قسى القناطر ، والقنطرة متصلة بالصحرى التى يقضى منها الى الاسكندرية .

له فى ذلك تدير عجب من تداير الملوك الحزمة اعدادا لحادثة تطرا ^١ من عدو يدهم ^٢ جهة ثغر الاسكندرية عند فيض النيل ، وانفمار الأرض به ، وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكا فى كل وقت ان احتيج الى ذلك ، والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومخذور بسنه .

ولأهل مصر فى شأن هذه القنطرة انذار من الانذارات الحدثانية ، يرون أن حدوثها ايدان باستيلاء الموحدن عليها ، وعلى الجهات الشرقية . والله أعلم بغيه ، لا اله سواه .

وبمقربة من هذه القنطرة المحدثه « الأهرام » القديمة ، المعجزة البناء ، الغربية المنظر ، المربعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ، ولا سيما الاثنان منها ، فانها يغص الجو بهما سموا ، فى سعة الواحد منها ، من أحد أركانه الى الركن الثانى ، ثلثائة خطوة وست وستون خطوة .

قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، وركبت تركيبا هائلا بديع الالتصاق ، دون أن يتخللها ما يعين على الصاقها ، محددة الأطراف فى رأى العين ، وربما أمكن الصعود اليها على خطر ومشقة ، فتلقى ^٣ أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ، لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك . للناس فى أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبورا لعاد وبنيه ، ومنهم من يزعم غير ذلك ، وبالجملة فلا يعلم شأنها الا الله عز وجل .

ولاحذ الكبيرين منها باب يصعد اليه على
نحو القامة من الأرض أو أزيد ، ويدخل منه
الى بيت كبير سعته نحو خمسين شبرا ،
وطوله نحو ذلك . وفى جوف ذلك البيت
رخامة طويلة مجوفة ، شبه التى تسميها العامة
البيلة ، يقال انها قبر ، والله أعلم بحقيقة
ذلك .

ودون الكبير هرم سعته ، من الركن
الواحد الى الركن الثانى ، مائة وأربعون
خطوة . ودون هذا الصغير خمسة صفار
ثلاثة متصلة ، والاثنان على مقربة منها
متصلان .

وعلى مقربة من هذه الأهرام ، بمقدار
غلو ، صورة غريبة من حجر ، قد قامت
كالصومعة على صفة آدمى هائل المنظر ، وجهه
الى الأهرام ، وظهره الى القبلة مهبط النيل ،
تعرف بأبى الأهوال .

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب
لعمر بن العاص رضى الله عنه ، وله أيضا
بالاسكندرية جامع آخر ، وهو مصلى الجمعة
للمالكيين .

وبمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه
الاحراق الحادث بها وقت الفتنة ، عند اتساخ
دولة العبيدين ، وذلك سنة أربع وستين
 وخسمائة ، وأكثرها الآن مستجد ، والبنيان
بها متصل . وهى مدينة كبيرة ، والآثار
القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ظاهرة
تدل على عظم اختطاطها فيما سلف .

وعلى شط نيلها ٢ - مما يلى غربيها ،
والنيل معترض بينهما - قرية كبيرة الشأن ٣ ،
حفيلة البنيان ، تعرف بالجيزة ، لها كل يوم
أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع اليها ،
ويعترض بينها وبين مصر جزيرة ، فيها
مساكن حسان ، وعلاى مشرفة ، وهى مجتمع
اللهو والنزهة ٤ ، وبينها وبين مصر خليج من
النيل يذهب بطولها نحو الميل ، ولا
مخرج له .

وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه ،
ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه
قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة ،
واستشعار ابتدائه فى شهر يونية * ، ومعظم
انتهائه أغشت ، وآخره أول ١ شهر أكتوبر .

وهذا المقياس عمود رخام أبيض ، مشين ٢
فى موضع ، ينحصر فيه الماء عند انسياحه ٣
اليه ، وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعا ،
مقسمة ٤ على ٥ أربعة وعشرين قسما ١ تعرف
بالأصابع ، فاذا انتهى الفيض عندهم الى أن
يستوفى الماء تسع عشرة ذراعا منغمرة فيه ،
فهى الغاية عندهم فى طيب العام ، وربما كان
العام فيه ٢ كثيرا بعموم الفيض ، والمتوسط
عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعا ، وهو
أحسن ٣ عندهم من الزيادة المذكورة .

والذى يستحق به السلطان خواجه فى بلاد
مصر ست عشرة ذراعا فصاعدا ، وعليها
يعطى ٤ البشارة الذى يراعى * الزيادة فى كل
يوم ، والزيادة فى أقسام الذراع المذكور ،
ويعلم بها مياومة حتى تستوفى الغاية التى

يقضى بها . وان قصر^٦ عن ست عشرة ذراعا ،
فلا مجبى للسلطان فى ذلك العام ، ولا
خراج^٧ .

وذكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب
الأخبار رضى الله عنه ، وفى صدر الجيزة
المذكورة أحجار رخام ، قد صورت فيها
التماسيح ، فيقال ان بسببها لا تظهر
التماسيح ، فيما يلى البلد من النيل ، مقدار
ثلاثة أميال علوا وسفلا ، والله أعلم بحقيقة
ذلك .

ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله
تعالى ، وآثاره التى أبقاها ذكرا جميلا للدين
والدنيا ، ازالته رسم المكس المضروب وظيفة
على الحجاج مدة دولة العبيدين . فكان
الحجاج يلاقون من الضغط فى استيادتها^٨
عنتا مجحفا ، ويسامون^٩ فيها خبطة خسف
باهظة ، وربما ورد منهم من لا فضل لديه
على نفقته ، أو لا نفقة عنده ، فيلزم أداء
الضريبة المعلومة — وكانت سبعة دنائير
ونصف دينار من الدنائير المصرية ، التى هى
خمس عشرة دينارا مؤمنية — على كل رأس ،
ويعجز^{١٠} عن ذلك ، فيتناول باليُم العذاب
بعيذاب ، فكانت كاسمها « مفتوحة العين »^١ ،
وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من
الاثنيين ، أو غير ذلك من الأمور الشنيعة ،
نعوذ بالله من سوء قدره . وكان بجدة أمثال
هذا التكيل وأضعافه لمن لم يؤد مكسه
بعيذاب ، ووصل اسمه غير معلم عليه علامة
الإداء .

فمضى هذا السلطان هذا الرسم اللعين ،
ودفع عوضا منه ما يقوم مقامه من أطعمة
وسواها ، وعين مجبى موضع معين بأسره
لذلك ، وتكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز
لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة
والمدينة ، عمرهما الله^٢ ، فعوض من ذلك
أجمل عوض ، وسهل السبيل للحجاج ،
وكانت فى حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع ،
وكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان
العادل حادثا عظيما وخطبا أليما ، فترتب
الشكر^٣ له على كل من يعتقد من الناس
أن حج البيت الحرام احدى^٤ القواعد الخمس
من الاسلام ، حتى يعم^٥ جميع الآفاق ،
ويوجب الدعاء له فى كل صقع من الأصقاع
وبقعة من البقاع ، والله من وراء مجازاة
المحسنين ، وهو — جلت قدرته — لا يضيع
أجر من أحسن عملا .

الى مكوس كانت فى البلاد المصرية
وسواها ، ضرائب على كل ما يباع ويشترى ،
مما دق أو جل ، حتى كان يؤدى على شرب
ماء النيل المكس ، فضلا عما سواه . فمضى
هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها ، وبسط
العدل ، ونشر الأمن .

ومن عدل هذا السلطان ، وتأمينه للسبل ،
أن الناس فى بلاده لا^٦ يخلعون لباس الليل ،
تصرفا فيما يعينهم ، ولا يستشعرون لسواده
هيبة تشنيم . على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم
بمصر والاسكندرية ، حسبما تقدم ذكره .

شهر المحرم سنة تسع وسبعين عرفنا الله يمينها وبركتها

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، وهو اليوم السادس والعشرون من أبريل ، ونحن بمصر ، يسر الله علينا مرامنا .

وفى صبيحة يوم الأحد ، السادس من محرم المذكور ، كان انفصالنا من مصر ، وصعودنا فى النيل على الصميد قاصدين الى « قوص » . عرفنا الله عادته الجميلة من التيسير وحسن المعونة بمنه .

ووافق يوم اقلعنا المذكور أول يوم من مايه ، بحول الله عز وجل ، والقرى فى طريقنا متصلة فى شطى النيل ، والبلاد الكبار حسبما يأتى ذكره ان شاء الله .

فمنها قرية تعرف « بأسكر »^١ فى الضفة^٢ الشرقية من النيل ، مباشرة للصاعد فيه^٣ ، ويذكر أن فيها كان مولد النبى موسى الكليم ، صلى الله على نبينا وعليه ، ومنها ألقته أمه فى اليم ، وهو النيل حسبما ذكر .

وعاينا أيضا بغربى النيل ميامنا لنا — وذلك كله يوم اقلعنا المذكور وفى الثانى منه — المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق ، صلى الله عليه وسلم ، وبها موضع السجن الذى كان فيه ، وهو الآن ينقض ، وينقل أحجاره الى القلعة المبتناة الآن على القاهرة ، وهو حصن حصين المنعة . وبهذه المدينة المذكورة أهراء^٤ الطعام التى اختزنها يوسف صلى الله عليه وسلم ، وهى مجوفة على ما يذكر .

ومنها الموضع المذكور بمنية ابن الخصيب ، وهو بلد على شط النيل ، ميامنا للصاعد فيه ، كبير فيه الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن . اجتزنا عليه^٥ ليلة الأحد الثالث عشر لمحرم المذكور — وهو الثامن من يوم اقلعنا من مصر — لأن الريح سكنت عنا ، فتربصنا فى الطريق ، ولو ذهبنا الى رسم كل موضع يعترضنا فى شطى النيل يميننا وشمالا ، لضاق الكتاب^٦ عنه ، لكن نقصد من ذلك الى الأكبر الأشهر .

وقابلنا على مقربة من هذا الموضع ، مياسرا لنا ، المسجد المبارك المنسوب لآبراهيم خليل الرحمن ، صلوات الله عليه وعلى نبينا ، وهو مسجد مذكور مشهور ، معلوم بالبركة مقصود ، ويقال ان بفنائنه أثر الدابة التى كان يركبها الخليل صلى الله عليه وسلم .

ومنها موضع يعرف « بأفصنا » مياسرا لنا ، وهى قرية فسيحة جميلة ، بها آثار قديمة ، وكانت فى السالف مدينة عتيقة ، وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين ، وجعل على كل مركب منحدر فى النيل وظيفة من حمل صخرة الى القاهرة ، فنقل بأسره اليها .

وفى صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من محرم المذكور ، وهو التاسع من اقلعنا من مصر ، اجتزنا بالجبل المعروف بجبل المقله ، وهو بالشط الشرقى من النيل ، مياسرا للصاعد فيه ، وهو نصف الطريق الى « قوص » ، من مصر اليه ثلاثة عشر بريدا ، ومنه الى قوص مثلها .

وما يجب ذكره على جهة التعجب أن من حيز مصر — فى شط النيل الشرقى ، مياسرا ٢ للصاعد فيه — حائطا متصلا قديم البنيان ، منه ما قد تهدم ، ومنه ما بقى أثره يتمادى على الشط المذكور الى أسوان آخر صعيد مصر ، وبين أسوان وبين قوص ثمانية برد ، والأقوال فى أمر هذا الحائط تتشعب وتختلف ، وبالجملة فشأنه عجيب ، ولا يعلم سره الا الله عز وجل ، وهو يعرف بحائط العجوز ، ولها خبر مذكور ، أظن هذه العجوز هى الساحرة المذكور ٢ خبرها فى المسالك والممالك ، التى كانت لها الملكة بها مدة .

ذكر ما استدرك خبره مما كان اغفل

وذلك أنا لما حللنا الاسكندرية ، فى الشهر المؤرخ ١ أولا ، عاينا مجتمعا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم الى أذنانها ، وحولهم الطبول والأبواق . فسألنا عن قصصهم ، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأكباد اشفاقا وجزعا .

وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى ٢ أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم ، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا ٢ معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر ، سمروا مراكبهم ، وأكملوا انشاءها وتأليفها ، ودفعوها فى البحر ، وركبوها قاطعين بالحجاج ، وابتعدوا الى بحر النعم ٤ ، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا .

وابتعدوا الى عيذاب ، فأخذوا فيها مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضا فى البر قافلة كبيرة تأتى من قوص الى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحدا ، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة — أعزهما الله — وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها فى الاسلام ، ولا انتهى رومى * الى ذلك الموضع قط .

ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأخراجه من الضريح المقدس ، أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه ، وتعاطيهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه .

ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم ، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والاسكندرية ، دخل فيها الحاجب — المعروف بلؤلؤ — مع أنجاد من المغاربة البحرين ، فلحقوا بالعدو وهو قد قارب النجاة بنفسه ، فأخذوا عن آخرهم ، وكانت آية من آيات العنايات الجارية .

وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان ، نيف على شهر ونصف أو حوله ، وقتلوا وأسروا ، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ، ووجه منهم الى مكة

والمدينة ، وكفى الله — بجيبل صنع —
الاسلام والمسلمين أمرا عظيما ، والحمد لله
رب العالمين .

« رجع الذكر » : ومن المواضع التي اجتزا عليها في الصعيد — بعد جبل المقلة الذي ذكرنا أنه نصف الطريق من مصر الى قوص حسبما تقدم ذكره — موضع يعرف بمنفلوط^١ بمقربة من الشط الغربي ، ميامنا للصاعد في النيل ، فيه الأسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق^٢ في نهاية من الطيب ، ليس في الصعيد مثلها ، وقمحتها يجلب الى مصر لطيبه ورزاقه حبته ، قد اشتهر عندهم بذلك ، فالتجار يصعدون في المراكب لاستجلابه .

ومنها مدينة « أسوط » ، وهي من مدن الصعيد الشهيرة ، بينها وبين الشط الغربي من النيل مقدار ثلاثة أميال ، وهي جميلة المنظر حولها بسايتين النخل ، وسورها سور عتيق .

ومنها موضع يعرف « بأبي تيج »^٣ ، وهو بلد فيه الأسواق وسائر مرافق المدن ، وهو في الشط الغربي من النيل .

ومنها مدينة « أخميم » ، وهي أيضا من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقي النيل وعلى شطه^٤ ، قديمة الاختطاط ، عتيقة الوضع ، فيها مسجد ذى النون المصري ، ومسجد داود أحد الصالحين المشتهرين بالخير والزهادة ، وهما • مسجدان موسومان بالبركة ، دخلنا اليهما متبركين بالصلاة فيهما ، وذلك يوم السبت التاسع عشر المحرم

المذكور ، وبهذه المدينة المذكورة آثار ومصانع من بنيان القبط ، وكنائس معمورة الى الآن بالمعاهدين من نصارى القبط .

ومن أعجب^٥ الهياكل ، المتحدث : بفرائبها في الدنيا ، هيكل عظيم في شرقي المدينة المذكورة وتحت سورها ، طوله مائتا ذراع وعشرون ذراعا ، وسعته مائة وستون^٦ ذراعا ، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبربا ، وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع قديم .

قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية ، حاشى حيطانه ، دور كل سارية منها خسون شبرا ، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبرا ، ورؤوسها في نهاية من العظم والاتقان ، قد نحتت نحتا غريبا ، فجاءت مركبة بدعة الشكل كأن الخراطين تناولوها ، وهي كلها مرقشة بأنواع الأصبغة اللازوردية وسواها .

والسورى كلها منقوشة من أسفلها الى أعلاها ، وقد انتصب على رأس كل سارية منها الى رأس صاحبها التي تليها ، لوح عظيم من الحجر المنحوت ، من أعظمها ، ماكلتنا فيه ستة وخمسين شبرا طولا ، وعشرة أشبار عرضا ، وثمانية أشبار ارتفاعا .

وسقف هذا الهيكل كله من ألواح^٧ الخجارة ، المنتظمة ببديع الالصاق ، فجاءت كأنها فرش واحد ، وقد انتظمت جميعه التضاوير البديعة والأصبغة الغريبة ، حتى يخيل للناظر فيها أنها سقف من الخشب المنقوش .

والمسارب والمواج ، وما تفضل فيه الجماعات من الناس ، ولا يتسدى بعضهم لبعض الا بالنداء العالى ، وعرض حائطه ثمانية عشر شبرا ، وهو كله من حجارة مرصوة على الصفة التى ذكرناها .

وبالجملة فشان هذا الهيكل عظيم ، ومرآه احدى عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف ، ولا ينتهى اليها الحقل وانما وقع الالامع ببذة من وصفه دلالة عليه ، والله المحيط بالعلم فيه ، والخبير بالمعنى الذى وضع له ، فلا يظن المتصفح لهذا المكتوب أن فى الاخبار عنه بعض غلو ، فان كل مخبر عنه لو كان قسا يبالا أو سحبا ، يقف موقف العجز والتقصير والله المحيط بكل شىء علما لا اله سواه .

وبيلاد هذا الصعيد المعترضة فى الطريق ، للحجاج والمسافرين - كاخميم ، وقوص ، ومنيه ابن الحصيب - من التعرض لمراكب المسافرين ، وتكشفها والبحث عنها ، وادخال الأيدى الى أوساط التجار ، فحضا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنائير ، ما يقبح سماعه ، وتستشنع الأحذوثة عنه . كل ذلك يرسم الزكاة ، دون مراعاة لحظها أو ما يدرك النصاب منها ، حسبما ذكرناه فى ذكر الاسكندرية من هذا : المكتوب .

وربما ألزموهم الأيمان على ما بأيديهم ، وهل عندهم غير ذلك ، ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه ، فيقف الحجاج بين أيدي هؤلاء المتناولين لها مواقف خزي ومهانة تذكرهم أيام المكوس .

والتصاوير على أنواع فى كل بلاط من بلاطاته : فمنها ما قد جلته طيور بصور رائعة بأسطة أجنحتها ، توهم الناظر اليها أنها تهم بالطيران ، ومنها ما قد جلته تصاوير آدمية ، زائقة المنظر رائعة الشكل ، قد أعدت لكل صورة منها هيئة ، هى عليها كامسك تمثال يدها ، أو سلاح أو طائر أو كأس ، أو اشارة شخص الى آخر بيده ، أو غير ذلك مما يطول الوصف له ، ولا تنأتى العبارة لاستيفائه .

وداخل هذا الهيكل العظيم ، وخارجه وأعلاه وأسفله ، تصاوير كلها مختلفات الأشكال والصفة : منها تصاوير هائلة المنظر ، خارجة عن صور الآدميين ، يستشعر الناظر اليها رعبا ، ويتملا منها عبرة وتعجبا ، ومافيه مغرر : اشفا ولا ابرة الا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم ، قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع ، ويتأتى فى صم الحجارة من ذلك ما لا يتأتى فى الرخو من الخشب ، فيحسب الناظر استعظاما له أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه . فسبحان الموجد للمعجائب ، لا اله سواه .

وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بالواح الحجارة العظيمة على الصفة المذكورة ، وهو فى نهاية الارتفاع ، فيحار الوهم فيها ، ويضل العقل فى الفكرة فى تظليعها ووضعها . وداخل هذا الهيكل ، من المجالس والزوايا والمدخل والمخارج والمصاعد والمخارج

أيدى هؤلاء الظلمة ، بيد هذا السلطان
العادل وتوفيقه ، ان شاء الله .

ومن المواضع التي اجتزنا عليها ، بعد
اخيم المذكورة ، موضع يعرف بمنشاة^١
السودان على الشط الغربى من النيل ، هي
قرية معمورة ، ويقال انها كانت فى القدم
مدينة كبيرة ، وقد قام امام هذه القرية ، بينها
وبين النيل ، رصيف عال من الحجارة كأنه
السور ، يضرب فيه النيل ، ولا يعلوه عند
فيضه ومده ، فالقرية بسببه فى أمن من
آتيه .

ومنها موضع يعرف بالبلينة ، وهي قرية
حسنة كثيرة النخل ، بالشط الغربى من النيل ،
بينها وبين قوص أربعة برد .

ومنها موضع يعرف « بدشنة » بالشط
الشرقى من النيل ، وهي مدينة مصورة فيها
جميع مرافق المدن ، وبينها وبين قوص
بريدان .

ومنها موضع بغربى النيل ، وعلى مقربة من
شطه ، يعرف بدندرة ، وهي مدينة من مدن
الصعيد ، كثيرة النخل ، مستحسنة المنظر ،
مشتهرة بطيب الرطب ، بينها وبين قوص
بريد . وذكر لنا أن فيها هيكلا عظيما ، وهو
المعروف عند أهل هذه الجهات بالبربا ،
حسبا ذكرنا عند ذكر اخيم ، وهيكلها يقال
ان هيكل دندرة أحفل منه وأعظم .

ومنها مدينة « قنا » ، وهي من مدن
الصعيد ، بيضاء أنيقة المنظر ، ذات مبان
حفيلة ، ومن مآثرها الماثورة صون نساء

وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين
لا يعرفه ، ولو عرفه لأمر بقطعه ، كما أمر
بقطع ما هو أعظم منه ، ولجاهد المتناول له ،
فإن جهادهم من الواجبات ، لما يصدر عنهم
من التعسف ، وعسير الارهاق^١ ، وسوء
المعاملة ، مع غرباء انقطعوا الى الله عز وجل ،
وخرجوا مهاجرين الى حرمة الأمين .

ولو شاء الله لكائن^٢ هذه الخطة مندوحة
فى اقتضاء الزكاة ، على أجمل الوجوه ، من
ذوى البضائع فى التجارات ، مع مراعاة رأس
كل حول الذى هو محل الزكاة ، وبجنب^٣
اعتراض الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له
لا عليه ، وكان يحافظ على جانب هذا السلطان
العادل ، الذى قد شمل البلاد عدله ، وسار فى
الآفاق ذكره ، ولا يسمى فيما يسمى الذكر
بمن قد حسن الله ذكره ، ويقبح المقالة فى
جانب من أجل الله المقالة عنه .

ومن أشنع ما شاهدناه من ذلك ، خروج
شرذمة منردة أعوان الزكاة ، فى أيديهم
المسال الطوال ذوات الأنصبه ، فيصعدون الى
المراكب استكشافا لما فيها ، فلا يتركون عيكا
ولا غرارة الا ويتخللونها بنلك المسال
الملعونة ، مخافة أن يكون فى تلك الغرارة
أو العكم ، اللذين لا يحتويان سوى الزاد ،
شئ غيب عليه من بضاعة أو مال . وهذا أقبح
ما يؤثر فى الأحاديث الملعنة ، وقد نهى الله عن
التجسس^٤ ، فكيف عن الكشف لما يرجى
بستر الصون دونه ، من حال لا يريد صاحبها
أن يطلع عليها ، اما استحقارا أو استنفاسا ،
دون بخل بواجب يلزمه . والله الآخذ على

شهر صفر عرفنا الله بعمته وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء ، وهو الخامس والعشرون^٢ من شهر مايه ، ونحن بقوص نروم السفر الى عيذاب ، يسر^٤ الله علينا مرامنا بعمه وكرمه .

وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه ، وهو السادس من يونيو ، أخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه الى المبرز ، وهو موضع يقبل الى البلد وعلى مقربة منه ، فسيح الساحة ، محدد بالنخيل ، يجتمع فيه رجال الحاج والتجار وتشدد فيه ، ومنه يستقلون ويرحلون ، وفيه يوزن ما يحتاج الى وزنه على الجبالين .

فلما كان اثر صلاة العشاء الآخرة ، رفعنا منه الى ماء يعرف بالحاجر ، فبتنا به ، وأصبحنا يوم الثلاثاء بعده مقيمين به ، بسبب تفقد بعض الجبالين من العرب ليسوتهم ، وكانت على مقربة منهم . وفى ليلة الأربعاء الخامس عشر منه — ونحن بالحاجر * المذكور — خسف القمر خسوفا كليا أول الليل ، وتمادى الى هكده منه .

ثم أصبحنا يوم الأربعاء المذكور ظاعنين ، وقلنا بموضع يعرف بقلاع الضياع ، ثم كان المبيت بموضع يعرف بمحط اللقيطة . كل ذلك فى صحراء لا عبارة فيها .

ثم غدونا يوم الخميس ، فنزلنا على ماء ينسب للعبددين ، ويذكر أنهما ماتا عطشا قبل أن يرداه ، فسمى ذلك الموضع بهما ، وقبراهما به رحمهما الله . ثم تزودنا منه الماء

أهلها ، والتزامهم البيوت ، فلا تظهر فى زقاق من أزقتها امرأة البتة ، صحت بذلك الأخبار عنهم ، وكذلك نساء « دشنة » المذكورة قبيل هذا . وهذه المدينة المذكورة فى الشط الشرقى من النيل ، وبينها وبين قوص نحو البريد .

ومنها « قفط » ، وهى مدينة بشرقى النيل ، وعلى مقدار ثلاثة أميال من شطه ، وهى من المدن المذكورة فى الصعيد حسنا ونظافة بنيان واتقان وضع .

ثم كان الوصول الى « قوص » يوم الخميس الرابع والعشرين لحرم المؤرخ ، وهو التاسع عشر من مايه ، فكان مقامنا فى النيل ثمانية عشر يوما ، ودخلنا قوص فى التاسع عشر .

وهذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الحلق ، لكثرة الصادق والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ، لأنها مخطر للجميع ، ومحط للرجال^١ ، ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المصرية والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم . ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، واليهما انقلابهم فى صدرهم من الحج^٢ . وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن المعجمى بالمنية ، وهى ربض كبير خارج المدينة على باب الفندق المذكور .

ثلاثة أيام ، وفوزنا سحر يوم الجمعة السابع عشر منه ، وسرنا في الصحراء نبيت منها حيث جئن علينا الليل ، والقوافل العيذاية والقوصية صادرة وواردة ، والمفازة معمورة أمنا .

فلما كان يوم الاثنين ، الموفى عشرين منه ، نزلنا على ماء بموضع يعرف بدقاش ، وهي بئر معينة ، يرد فيها من الأنعام والأنام ما لا يحصيه الا الله عز وجل .

ولا يسافر في هذه الصحراء الا على الابل لصبرها على الظماء ، وأحسن ما يستعمل عليها ذوو الترفيه : الشقاديض ، وهي أشباه المحامل ، وأحسن أنواعها اليبانية ، لأنها كالأشباكين ^١ السفرية مجلدة متسعة ، يوصل منها الاثنان بالجمال الوثيقة ، وتوضع على البعير ، ولها أذرع قد حنت بأركانها يكون عليها مظلة ، فيكون الراكب فيها مع عديله في كن من لفتح الهاجرة ، وبعدة مستريحا في بطائه ومثكنا ، ويتناول مع عديله ما يحتاج اليه من زاد وسواه ، ويطلع متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب ، ومن شاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج أن يلعب عديله ، تفكما واجما للنفس ، لاعبه وبالجملة فانها مريحة من نصب السفر ، وأكثر المسافرين يركبون الابل على أحمالها ، فيكابدون من مشقة سبوم الحر عنتا ^٢ ومشقة .

وفي هذا الماء وقعت بين بعض جنالي العرب اليمنيين ، أصحاب طريق عيذاب وضمائها ^٣ - وهم من بكلي من أفخاذ قضاة - بوين

بعض الأغزاز ^٤ ، بسبب التزامهم على الماء * ، مهاوشة كادت تفضي الى الفتنة ، ثم عصم الله منها .

والقصد الى عيذاب من قوص على طريقين : احدهما ^١ تعرف بطريق العبدین ، وهي هذه التي سلكتها ، وهي أقصد مسافة ، والأخرى ^٢ طريق دون قنا ، وهي قرية على شاطئ النيل . ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من ^٣ ماء دنقاش المذكور ، ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب أمام ماء دنقاش بيوم .

فلما كان عشاء يوم الاثنين المذكور تزودنا الماء ليوم وليلة ، ورفعنا الى ماء بموضع يعرف بشاغب ، فوردناه ضحوة يوم الأربعاء الثاني والعشرين لصفر المذكور ، وهذا الماء ثماد يحفر عليه في الأرض ، فتسمح به قريبا غير بعيد الا أنه زعاق ^٤ . ثم رحلنا * منه سحر يوم الخميس بعده ، وتزودنا الماء لثلاثة أيام ، الى ماء بموضع يعرف بأمتان ، وتركنا طريق الماء بموضع يعرف بآ... يسارا ، وليس بينه وبين شاغب غير مسافة يوم ، والطريق عليه وعر للابل .

فلما كان ضحوة يوم الأحد السادس والعشرين لصفر المذكور ، نزلنا بأمتان المذكور ، وفي هذا اليوم المذكور كان فراغنا من حفظ كتاب الله عز وجل ، له الحمد وله الشكر على ما يسر لنا من ذلك . وهذا الماء بأمتان المذكور هو في بئر معينة قد خصها الله بالبركة ، وهو أطيب مياه الطريق وأعذبها

فيلقى فيها من دلاء الوارد ما لا يحصى
كثرة ، فتروى القوافل النازلة عليها على
كثرتها ، وتروى من الابل البعيدة الاطماء ما
لو وردت نهرا من الأنهار لأنضبت وأزفت .

ورمنا فى هذه الطريق احصاء القوافل
الواردة والصادرة ، فما تمكن لنا ، ولا سيما
القوافل العيذاية المتحملة لسلع الهند الواصلة
الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب . وأكثر
ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل ، فلقد خيل
الينا لكثرتة أنه يوازى التراب قيمة .

ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء ،
أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل
والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة لا
حارس لها ، تترك بهذه السبيل ، اما لاعباء
الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ،
وتبقى بموضعها الى أن ينقلها صاحبها مصنونة
من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار
الناس .

ثم كان رفعنا من أمتان المذكور صبيحة
يوم الاثنين ، بعد الأحد المذكور ، ونزلنا
على ماء بموضع يعرف بمجاج ، بمقربة من
الطريق ، ظهر يوم الاثنين المذكور ، ومنه
تزودنا الماء لأربعة أيام ، الى ماء بموضع
يعرف بالعشراء على مسافة يوم من عيذاب ،
ومن هذه المرحلة المجاجية يسلك المصحح ،
وهى رملة ميثاء تتصل بساحل بحر جدة ،
يمشى فيها الى عيذاب ان شاء الله ، وهى فى
أفيح من الأرض مكد البصر يمينا وشمالا ،
وفى ظهر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من

الشهر المذكور ، كان رفعنا من مجاج
المذكور ، سالكين على الوضح .

شهر ربيع الاول عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة الرابع والعشرين
من شهر يونية ، ونحن بآخر الوضح ، على
ضحو ثلاث مراحل من عيذاب . وفى وقت
الغداة من يوم الجمعة المذكور ، كان نزولنا
على الماء بموضع يعرف بالعشراء ، على
مرحلتين من عيذاب ، وبهذا الموضع كثير
من شجر العشر ، وهو شبيه بشجر الأترج
لكن لا شوك له .

وماء هذا الموضع ليس بخالص العذوبة ،
وهو فى بئر غير مطوية ، وأنفينا الرمل قد
انفال عليها وغطى ماءها ، فرام الجمالون
حفرها ، واستخراج مائها ، فلم يقدروا على
ذلك ، وبقيت القافلة لا ماء عندها . فأسرنا
تلك الليلة - وهى ليلة السبت الثانى من
الشهر المذكور - فنزلنا ضحوة على ماء
الخبيب ، وهو بموضع برأى العين من
عيذاب ، يستقى منها القوافل وأهل البلد ،
ويعم الجميع ، وهى بئر كبيرة كأنها الجب
الكبير .

فلما كان عشي يوم السبت دخلنا عيذاب ،
وهى مدينة على ساحل بحر جدة غير
مصورة ، أكثر بيوتها الأخصاص ، وفيها الآن
بناء مستحدث بالجص ، وهى من أحفل
مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن
تخط فيها وتقلع منها ، زائدا الى مراكب
الحجاج الصادرة والواردة .

شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنهما^١ محارتا فضة ، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف ، فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق ، فسبحان مقدرها لا اله سواه ، لكنهم ببلدة لا رطب فيها ولا يابس ، قد ألفوا بها عيش البهائم ، فسبحان محبب الأوطان الى أهلها ، على أنهم أقرب الى الوحش منهم الى الانس .

والركوب من جدة اليها آفة للحجاج عظيمة الا الأقل منهم ، ممن يسلمه الله عز وجل ، وذلك أن الرياح تليفهم على الأكثر في مراس^٢ بصحارى تبعد منها مما يلي الجنوب ، فينزل اليهم البجاة — وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال — فيكربون منهم الجمال ، ويسلكون بهم غير طريق الماء ، فربما ذهب أكثرهم عطشا ، وحصلوا على ما يتخلفه^٣ من نفقة أو سواها .

وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه ، فيضل ويهلك عطشا ، والذي يسلم منهم^٤ يصل الى عذاب كأنه منشتر من كفن . شاهدنا منهم ، مدة مقامنا ، أقواما قد وصلوا على هذه الصفة ، فى مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة آية للمتوسمين . وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ، ومنهم من تساعده الريح الى أن يحط بمرسى عذاب ، وهو الأقل .

والجلاب التى يصرفونها فى هذا البحر الفرعونى ملفقة الانشاء ، لا يستعمل فيها مسمار البتة ، انما هى مخيطة بأمراس من

وهى فى صحراء لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شئ الا مجلوب ، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ، ولا سيما مع الحجاج ، لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه^١ ضريبة معلومة خفيفة المؤنة ، بالإضافة الى الوظائف المكوسية التى كانت قبل اليوم ، التى ذكرنا رفع صلاح الدين لها .

ولهم أيضا من المرافق من الحجاج اكراء الجلاب منهم ، وهى المراكب ، فيجتمع لهم من ذلك^٢ مال كثير فى حملهم الى جدة ، وردهم وقت انقضاءهم من أداء الفريضة . وما من أهلها ذوى اليسار الا من له الجلبة والجلبتان فهى تعود عليهم برزق واسع ، فسبحان قاسم الأرزاق على اختلاف أسبابها لا اله سواه .

وكان نزولنا فيها بدار تنسب لمونج^٣ ، أحد قوادها الحبشيين الذين تأثلوا بها الديار والرباع والجلاب .

وفى بحر عذاب مغاص على اللؤلؤ ، فى جزائر على مقربة منها ، وأوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيدة فيه هذه الأحرف^٤ ، وهو شهر يونية العجمى والشهر الذى يتلوه ، ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنوية . يذهب الغائصون عليه الى تلك الجزائر فى الزواريق ، ويقيمون فيها الأيام ، فيعودون بها قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق .

والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد ، ويستخرجونه فى أصداف لها أزواج^٥ كأنها نوع من الحيتان أشبه شئ بالسلخفاة ، فاذا

القنبار - وهو قشر جوز النارجيل - يدرسونه الى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراسا يخطون بها المراكب ، ويخلطونها بدهن من عيدان النخل ، فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة ، سقوها بالسمن ، أو بدهن الخروع ، أو بدهن القرش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم في البحر يتلع الغرقى فيه . ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين * عودها ويرطب ، لكثرة الثعالب المعترضة في هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسارى .

وعود هذا الجلاب مطلوب من الهند واليمن ، وكذلك القنبار المذكور . ومن أعجب أمر هذه الجلاب ، أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل ، فمجموعها متناسب في اختلال البنية ووهنها ، فسبحان مسخرها على تلك الحال والمسلم فيها ، لا اله سواه .

ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام^١ الطواغيت ، وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب^٢ حتى يجلس بعضهم على بعض ، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المسلوقة . يحبل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء ، حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها^٣ في طريق واحدة ، ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، ويقولون : « علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح » ، هذا مثل متعارف بينهم .

فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها هذه البلدة ، والأولى بمن يسكنه ذلك ألا يراها ، وأن يكون طريقته على الشام الى

العراق ، ويصل مع أمير الحج البغدادي ، وإن لم يمكنه ذلك أولا فيمكنه آخره عند انقضاء الحجاج^٤ . يتوجه مع أمير الحاج المذكور الى بغداد ، ومنها الى عكة ، فإن شاء رحل^٥ منها الى الاسكندرية ، وإن شاء الى صقلية أو سواها ، ويمكن أن يجد مركبا من الروم يقلع الى سبتة أو سواها من بلاد المسلمين ، وإن طال طريقه بهذا التحليق فيهن^٦ لما يلقي بعيذاب ونحوها .

وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان الذين^٧ يعرفون بالبجاة ، ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها ، وربما وصل في بعض الأحيان ، واجتمع بالوالي الذي فيها من الغز اظهارا للطاعة ، ومستنابه مع الوالى في البلد ، والفوائد كلها له الا البعض منها .

وهذه الفرقة من السودان المذكورين ، فرقة أضل من الأنعام سبيلا ، وأقل عقولا ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها اظهارا للاسلام ، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ، ما لا يرضى ولا يحل ، ورجالهم ونسأؤهم يتصرفون عراة الا خرقا يستررون بها عوراتهم ، وأكثرهم لا يستررون وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم .

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور ، وهو الثامن عشر من يولية ، ركبنا الجلبة للعبور الى جدة ، فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود الريح ومغيب النواتية .

فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء بعده ، أقلعنا على بركة الله عز وجل وحسن عونه المأمول ، فكانت مدة المقام ببيذاب - حاشى يوم الاثنين المذكور - ثلاثة وعشرين يوما ، محتسبة عند الله عز وجل ، لشطف العثر ، وبسوء الحال ، واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة .

وحسبك من بلد كل شئ فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى الى النفس منه ، فأقمنا بين هواء- يذيب الأجسام ، وماء يشعل المعدة عن اشتهاؤ الطعام ، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله : « ماء زعاق وجو كله لهب » . فالحلول بها من أعظم المكاره التى خف بها السبيل الى البيت الفتيق ، زاده الله تشريفا وتكريما ، وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدون ، ولا سيما فى تلك البلدة الملعونة .

ومما لهج الناس بذكره ^١ قبائحها ، حتى يزعمون أن سليمان بن داود ، على نبينا وعليه السلام ، كان اتخذها سجنا للعقارة ^٢ . أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة الى بيته الحرام ، وهى السبيل التى من مصر على عقبة ^٣ أيلة الى المدينة المقدسة ، وهى مسافة قريبة ، يكون البحر منها يمينا وجبل الطور المعظم يسارا ، لكن للافرنج بمقربة منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه ، والله ينصر دينه ، ويعز كلمته بنه .

فتمادى سيرنا ^١ فى البحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الأول المذكور ، ويوم الأربعاء بعده بريح قاترة ^٢ المهب ، فلما

كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس - ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المعلقه من بر الحجاز - لمع برق من جهة البر المذكور ، وهى جهة الشرق ، ثم نشأ نوء أظلم له الأفق الى أن كسا الآفاق كلها ، وهبت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه راجعا وراه ، وتمادى عصف الرياح ، واشتدت حلكة الظلمة ، وعمت ^٢ الآفاق ، فلم ندر الجهة المقصودة منها ، الى أن ظهر بعض النجوم ، فاستدل بها بعض الاستدلال وحط القلع الى أسفل الدقل ، وهو الصارى .

وأقمنا ليلتنا تلك فى هول يؤذن باليأس ، وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة ، الى أن أتى الله بالفرج مقترنا مع الصباح قياد الرياح ، وأقشع النسيم وأصحت السماء ، ولاح لنا بر الحجاز على بعد لا يبصر منه الا بعض جباله ، وهى شرقا ^٤ من جدة ، زعم ربان المركب - وهو الرئس - أن بين تلك الجبال التى لاحت لنا وبر جدة يومين ، والله يسهل لنا كل صعب ، ويسر لنا كل عسير بعزته وكرمه .

فجرينا يومنا ذلك - وهو يوم الخميس المذكور - بريح رخاء طيبة ، ثم أرسينا عشية فى جزيرة صغيرة فى البحر ، على مقربة من البر المذكور ، بعد أن لقينا شعابا كثيرة يكسر فيها الماء ويضحك ^٥ علينا ، فتخللنا أثناءها ^٦ على حذر وتحفظ . وكان الربان بصيرا بصنعتة ، حاذقا فيها ، فخلصنا الله منها حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة ، ونزلنا اليها ، وبتنا بها ليلة الجمعة التاسع والعشرين لربيع

الأول المذكور ، وأصبح ، الهواء راكدا ،
والرياح غير متنفسة الا من الجهة التي لا
توافقنا ، فأقمنا بها يوم الجمعة المذكور

فلما كان يوم السبت الموفى ثلاثين ،
تنفست الرياح بعض تنفس ، فأقلعنا بذلك
النفس نسير سيرا رويدا ، وسكن البحر
حتى خيل لناظره أنه صحن زجاج أزرق ،
فأقمنا على تلك الحال نرجو لطف صنع الله
عز وجل . وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عاتقة
السفن ، فعصمنا الله عز وجل من فال اسمها
المذموم ، وله الحمد والشكر على ذلك .

شهر ربيع الآخر عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة السبت ونحن بالجزيرة
المذكورة ، ولم يظهر تلك الليلة للأبصار
بسبب النوء ، لكن ظهر في الليلة الثانية كبيرا
مرتفعا ، فتحققنا اهلاله ليلة السبت المذكور ،
وهو الثالث والعشرون^١ من شهر يولية .
وفي عشي يوم الأحد ثانيه ، أرسينا بمرسى
يعرف بأبحر^٢ ، وهو على بعض يوم من
جدة ، وهو من أعجب المراسي وضعا ، وذلك
أن خليجا من البحر يدخل الى البر ، والبر
مطيف به من كلتا حافتيه ، فترسى الجلاب^٣
منه في قرارة مكنة هادية .

فلما كان سحر^٤ يوم الاثنين بعده ، أقلعنا
مه على بركة الله تعالى بريح فاترة ، والله
الميسر لا رب سواه . فلما جن الليل أرسينا
على مقربة من جدة ، وهى بمرأى العين منا ،
وحالت الرياح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيننا
وبين دخول مرساها .

ودخول هذه المراسى صعب المرام ، بسبب
كثرة الشعاب والتفافها ، وأبصرنا من صنعة
هؤلاء الرؤساء والنوائية ، فى التعرف
بالجبله أثناءها ، أمرا ضخما^١ : يدخلونها على
مضايق ، ويصرفونها خلالها تصرف الفارس
للجواد الرطب العنان السلس : القياد ، ويأتون
فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه .

وفى ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع
الآخر المذكور ، وهو السادس والعشرون^١
من شهر يولية^٢ ، كان نزولنا بجدة ، حامدين
له عز وجل ، وشاكرين على السلامة والنجاة
من هول ما عايناه فى تلك الثمانية أيام طول
مقامنا على البحر .

وكانت أهوالا شتى عصمنا الله منها بفضل
وكرمه : فمتها ما كان يطرأ من البحر ،
واختلاف رياحه ، وكثرة شعابه المعترضة
فيه . ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب
واختلالها ، واقتصامها المرة بعد المرة ، عند
رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسى من
مراسيه ، وربما سحنت^٢ الجبله بأسفلها على
شعب من تلك الشعاب أثناء تحللها ، فنسمع
لها هدا يوذ بالياس ، فكنا فيها لموت
مرارا ونحيى مرارا ، والحمد لله على ما من به
من العصمة ، وتكفل به من الوقاية والكفاية ،
حمدا يبلغ رضاه ، ويستهدى المزيد من نعمه
بعزته وقدرته ، لا اله سواه .

وكان نزولنا فيها بدار القائد على - وهو
صاحب جدة من قبل أمير مكة المذكور^١ -
فى صرح من تلك الصروح الخصوصية التى

ينونها في أعالي ديارهم ، ويخرجون منها الى سطوح ييتون * فيها .

وعند احتلالنا جدة المذكورة ، عاهدنا الله عز وجل - سرورا بما أنعم الله به من السلامة - ألا يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون ، الا ان طرأت ضرورة تحول بيننا وبين سواه من الطرق ، والله ولي الخيرة في جميع ما يقضيه ويسنيه بعزته .

وجدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخصاص ، وفيها ٦ فنادق مبنية بالحجارة والطين ، وفي أعلاها ييتون من الأخصاص كالغرف ، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر .

وبهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة ، وأثر سورها المحدث بها باق الى اليوم ١ ، وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة ، يذكر أنه كان منزل حواء أم البشر ، صلى الله عليها ، عند توجهها الى مكة ، فبنى ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته وفضله ، والله أعلم بذلك .

وفيها ٢ مسجد مبارك منسوب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومسجد آخر له ساريتان من خشب الأبنوس ينسب أيضا اليه رضي الله عنه ، ومنهم من ينسبه الى هارون الرشيد رحمة الله عليه .

وأكثر مكان هذه البلدة - مع ما يليها من الصحراء والجبال - أشراف علويون ٣ وحسينيون وحسينيون وجعفريون ، رضي الله

عن سلفهم الكريم ، وهم من شطف العيش بحال يتصدع له الجباد اشفاقا ، ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن : من اكراء جمال ٤ ان كانت لهم ، أو مبيع لبن أو ماء ، الى غير ذلك من تمر يلتقطونه ، أو حطب يخطبونه ، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن ، فسبحان المقدر لما يشاء . ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ، ولم يرتض لهم الدنيا ، جعلنا الله من يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا .

وبخارج هذه البلد مصانع قديمة تدل على قدم اختطاطها ، ويذكر أنها كانت من مدن الفرس ، وبها جباب منقورة في الحجر الصلد ، يتصل بعضها ببعض ، تفوت الاحصاء كثرة ، هي داخل البلد وخارجه ، حتى أنهم يزعمون أن التي خارج البلد ثلثمائة وستون ٥ جبا ، ومثل ذلك داخل البلد ، وعائنا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الاحصاء . وعجائب الموضوعات كثيرة ، فسبحان المحيط علما بها .

وأكثر أهل ٦ هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم ، قد تفرقوا على مذاهب شتى ، وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة ، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها ، ينتهبونهم انتهايا ، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا . فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤنة الى أن يسر الله رجوعه الى وطنه .

ودمائهم . فمن يعتقدا من قهءاء : أهل الأندلس
اسقاط هذه الفريضة عنهم ، فاعتقاده صحيح
لهذا السبب ، وبما يصنع بالحاج مما لا
يرتضيه الله عز وجل .

فراكب هذا السبيل راكب خطر ومعتسف
غرر ، والله قد أوجد الرخصة فيه على غير
هذه الحال ، فكيف وبيت الله الآن بأيدي
أقوام قد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سببا
الى استلاب الأموال واستحقاقها من غير
حل ، ومصادرة الحاج عليها ، وضرب الذلة
والمسكنة الدينية عليهم . تلافاه الله عن قريب
بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين
بسيوف الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله
أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله
عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين
فى اعلاء كلمته واظهار دعوته ونصر ملته . انه
على ما يشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم
النصير .

وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح
الاعتقاد ، أنه لا اسلام الا ببلاد المغرب ، لأنهم
على جادة واضحة لا بنيات لها ، وما سوى
ذلك — مما بهذه الجهات الشرقية — فأهواء
وبدع ، وفرق ضالة وشيع ، الا من عصم الله
عز وجل من أهلها . كما أنه لا عدل ولا حق
ولا دين على وجهها ^١ الا عند الموحدين —
أعزهم الله — فهم آخر أئمة العدل فى
الزمان .

ولولا ما تلافى الله به المسلمين فى هذه
الجهات بصلاح الدين ، لكانوا من الظلم فى
أمر لا يتأدى وليده ولا يلتن شديده ، فانه
رفع ضرائب المكوس عن الحاج ، وجعل
عوض ذلك مالا وطلاما يأمر بتوصيلهما ^١ الى
مكثر ، أمير مكة ، فمتى أبطأت عنهم تلك
الوظيفة المترتبة نهم ، عاد هذا الأمير الى
ترويع الحاج واظهار تثقيفهم بسبب المكوس .

واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جدة ،
فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر ، الأمير
المذكور ، فورد أمره بأن يضمن الحاج
بعضهم بعضا ، ويدخلوا الى حرم الله ، فان
ورد المال والطعام للذان برسمه من قبل
صلاح الدين ، والا فهو لا يترك ماله قبل
الحاج ، هذا لفظه ، كأن حرم الله ميراث
بيده ، محلل له أكثرؤه ^٢ من الحاج ، فسبحان
مغير السنن ومبدلها .

والذى جعل له صلاح الدين ، بدلا من
مكس الحاج ، ألفا دينار اثنان ، وألفا اردب
من القمح — وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل
الاشبيلي عندنا — حاشى اقطاعات أقطعها
بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم
المذكور . ولولا مغيب هذا السلطان العادل
صلاح الدين بجهة الشام ، فى حروب له هناك
مع الافرنج ، لما صدر عن هذا الأمير المذكور
ما صدر فى جهة الحاج .

فأحق بلاد الله بأن يظهرها السيف ، ويفسل
أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل
الله ، هذه البلاد الحجازية ، لما هم عليه من
حل عرى الاسلام ، واستحلال أموال الحاج

أهله لهم أن شاء الله ، ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صبحا جليا ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقمونها ارتقاب الساعة التي لا يمترون في انجاز وعددها .

شاهدنا من ذلك بالاسكندرية ومصر وسواهما^٢ ، مشافهة وسماعا ، أمرا غريبا يدل على أن ذلك الأمر العزيز أمر الله الحق بدعوته الصديق . ونرى الينا أن بعض فقهاء هذه البلاد^٣ المذكورة وزعمائها ، قد حر خطبا أعدها للقيام بها بين يدي سيدنا أمير المؤمنين — أعلى الله أمره — وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، ويتنظره انتظار الفرج بالصبر الذي هو عبادة ، والله عز وجل يسطها من كلمة ، ويعطيها من دعوة ، انه على ما يشاء قدير .

وفي عشي يوم الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثانى من شهر أغسطس ، كان انفصالنا من جدة ، بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضا ، وثبتت أسماؤهم فى زمام عند قائد جدة على بن موفق ، حسبما نفذ اليه أمر^٤ . ذلك من سلطانه صاحب مكة مكث بن عيسى المذكور . وهذا الرجل مكث من ذرية الحسن بن على رضوان الله عليهما ، لكنه ممن يعمل غير صالح ، فليس من أهل سلفه الكريم رضى الله عنهم .

وأسرنا تلك الليلة الى أن وصلنا القرين مع طلوع الشمس ، وهذا الموضع هو منزل

وال من سواهم من الملوك فى هذا الأوان^٥ فعلى غير الطريقة : يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلا . اللهم الا هذا السلطان العادل صلاح الدين الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه ، لو كان له أعوان على الحق ... مما أريد ، والله عز وجل يتلافى المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه .

ومن عجيب ما شاهدناه فى أمر الدعوة المؤنبة الموحدية ، وانتشار كلمتها بهذه البلاد ، واستشعار أهلها لملكها ، أن أكثر أهلها منهم ، بل الكل منهم ، يرمزون بذلك ومزا خفيا ، حتى يؤدى ذلك بهم الى التصريح ، وينسبون ذلك لآثار حدثانية وقعت بأيدي بعضهم ، أنذرت بأشياء من الكوائن ، فعاينوها صحيحة .

فمن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم ، أن بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقترين هتيقى^٦ البناء ، على أحدهما تمثال ناظر الى جهة المغرب ، وكان على الآخر تمثال ناظر الى المشرق ، فكانوا يرون أن أحدهما اذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة التى كان ناظرا اليها على ديار مصر وسواها .

وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر الى المشرق ، قتلا وقبوعه استيلاء الغز على الدولة الميمنية ، وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد . وهم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربى ، وحدثان ما يؤملونه من ملكة

الحاج ومحظ رجالهم ، ومنه يحرمون ، وبه يرمحون اليوم الذي يصبحونه ، فإذا كان في عشية رفعوا وأسروا ليلتهم ، وصباحوا الحرم الشريف - زاده الله تشريفا وتعظيما - واصادرون من الحج يتزلون به أيضا ، ويسرون منه الى جدة وبهذا الموضع المذكور بئر معينة عذبة ، والحاج بسببها لا يحتاجون الى تزود الماء غير ليلة اسراهم اليه

فأقمنا بياض يوم الأربعاء المذكور مريحين بالقرين ، فلما حان العشي رحنا منه محرمين بعرة ، فاسرنا ليلتنا تلك ، فكان وصولنا مع الفجر الى قرب الحرم ، فنزلنا مرتقبين لاقتشار الضيوف ، ودخلنا مكة ، حرسها ٢ الله ، في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور ، وهو الرابع من شهر أغسطس ، على باب العرة

وكان اسراؤنا تلك الليلة المذكورة ، والقمر قد ألتى على السيطه شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه ، الأصوات تصلك ٣ الأذان بالتلبية من كل مكان ، الألسنة تصيح بالدعاء ، وتبتل الى الله بالرجاء ٤ ، فتارة تشتد بالتلبية وآونة تنضرع بالأدعية ، فيالها ليلة كانت في الحسن بيضة العقد ، فهي عروس ليالى العمر ، وبكر بيات الدهر

الى أن وصلنا في الساعة المذكورة ، من اليوم المذكور ، حرم الله العظيم ، ومبواً الخليل ابراهيم ، فأقمنا الكعبة البيت الحرام عروسا مجلوة مزفوفة الى جنة الرضوان ، محفوفة بوفود الرحمن ، فطفنا طواف

القدوم ، ثم صلينا بالمقام الكريم ، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم - وهو بين الحجر الأسود والباب ، وهو موضع استجابة الدعوة - ودخلنا قبة رمزم ، وشربنا من مائها ، وهو « لما شرب له » كما قال صلى الله عليه وسلم ، ثم سمينا بين الصفا والمروة ، ثم حلقنا وأحللنا ، بالحمد لله الذي كرمنا بالفادة عليه ، وجعلنا ممن انتهت الدعوة الابراهيمية اليه ، وهو حسنا ونعم الوكيل .

وكان ثرولنا فيها بدار تعرف بالنسبة الى الحلال ، قريبا من الحرم ومن باب السدة ، أحد أبوابه ، في حجرة كثيرة المرافق المسكنية ، مشرفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة

شهر جمادى الأولى ، عرفنا الله برحمته

استهل علاه ليلة الاثنين الثاني والعشرين لأغشت ، وقد كمل لنا بمكة - شرفها الله تعالى - ثمانية عشر يوما . فהלال هذا الشهر أسعد هلال اجتلته أبصارنا فيما سلف من أعمارنا ، طلع علينا وقد تبوأنا مقعد الجدار الكريم ، وحرم الله العظيم ، والقبة ٢ التي فيها مقام ابراهيم مبعث الرسول ، ومهبط الروح الأمين جبريل بالوحي والتنزيل . فأوزعنا الله شكر هذه المنة ، وعرفنا قدر ما خصنا به من نعمة ، وختم لنا بالقبول ، وأجرانا على كريم عوائده من الصنع الجميل ، ولطيف التيسير والتسهيل ، بمزته وقدرته لا اله سواه .

ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق كرمه الله وشرفه

البيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من الترييع ، وأخبرني زعيم الشييين الذين اليهم سداثة البيت - وهو محمد بن اسماعيل بن عبد الرحمن ابن من ذرية عثمان بن طلحة بن شبة بن طلحة بن عبد الدار ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب حجابة البيت - أن ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا ، وهو من الحجر الأسود الى الركن اليماني ، تسع وعشرون ذراعا ، وسائر الجوانب ثمان وعشرون ، بسبب انصباب السطح الى الميزاب .

فأول أركانه الركن الذي فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، وينتهقر الطائف عنه ليمر جميع بدنه به ^١ والبيت المكرم عن يساره .

وأول ما يلتقى بعده الركن العراقي وهو ناظر الى الجهة الشمال ، ثم الركن الشامى وهو ناظر الى جهة الغرب ، ثم الركن اليماني وهو ناظر الى جهة الجنوب ، ثم يعود الى الركن الأسود وهو ناظر الى جهة الشرق ، وعند ذلك يتم شوطا واحدا .

وباب البيت الكريم فى الصفح الذى بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود ، وهو قريب من الحجر بعشرة أشبار مخففة ، وذلك الموضع الذى بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم ، وهو موضع استجابة الدعاء .

والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبرا ونصف ، وهو من فضة مذهبة ، بديع الصنعة رائق الصفة ، يستوقف الأبصار حسنا وخشوعا للمهابة التى كساها الله بيته ، وعضاداته كذلك ، والعتبة العليا كذلك أيضا ، وعلى رأسها لوح ذهب خالص ابريز ، فى سعته مقدار شبرين ، وللباب تقارنا ^٢ فضة كيرتان يتعلق ^٣ عليهما قفل الباب ، وهو ناظر للشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا ، وغلظ الحائط الذى ينطوى عليه الباب خمسة أشبار .

وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع ، وحيطانه كلها رخام ^٤ مجزع ، قد قام على ثلاثة أعمدة من السجاج مفرطة ^٥ الطول ، وبين كل عمود وعمود أربع خطا ، وهى على طول البيت متوسطة فيه ، فاحد الأعمدة - وهو أولها - يقابل نصف الصفح الذى يحف به الركنان اليمانيان ^١ ، وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خطا ، والعمود الثالث - وهو آخرها - يقابل الصفح الذى يحف به ^٢ الركنان العراقي والشامى .

ودائر البيت كله ، من تصفه الأعلى ، مطلق بالفضة المذهبة الثخينة ^٣ ، يخل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها ، وهى تحف بالجوانب الأربعة ^٤ ، وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلى ، وسقف البيت مجلى بكساء من الحرير الملون .

وظاهر الكعبة كلها ، من الأربعة جوانب ، مكسو بستور من الحرير الأخضر ، وسداها قطن ، وفي أعلاها رسم بالحرير الأحمر ^٦ ، فيه مكتوب « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة » الآية ^٧ ، واسم الامام الناصر لدين الله في سحته قدر ثلاث ^٨ أذرع يطيف بها كلها . قد شكل في هذه الستور من الصنعة الغربية التي دمصره ^٩ أشكال محارب راتقة ، ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى ، وبالثناء للناصر العباسي المذكور الأمر بإقامتها ، وكل ذلك لا يخالف لونها . وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترا ، وفي الصفحين الكبيرين ^{١٠} منها ثمانية عشر ، وفي الصفحين الصغيرين ^{١١} ستة عشر ، وله خمسة مضاو ، وعليها زجاج عراقى بديع النقش ، أحدها ^{١٢} في وسط السقف ، ومع كل ركن مضوى ^{١٣} . والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاث عشرة ^{١٤} ، واحداها من ذهب .

وأول ما يلقي ^{١٥} الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود ، وفيه صندوقان فيهما مصاحف ، وقد علاهما في الركن بويبان من فضة كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن ، وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة . وفي الركن الذي يليه — وهو اليماني — كذلك ، لكنهما انقلعا ، وبقي العود الذي كانا ملصقين عليه ، وفي الركن الشامي كذلك وهما باقيان ، وفي جهة الركن العراقي كذلك .

وعن يمينه الركن العراقي ، وفيه باب يسمى بباب الرحمة ، يصعد منه الى سطح البيت المكرم ، وقد قام له قبو ، فهو متصل بأعلى سطح البيت ، داخله الأدراج ، وفي أوله البيت المحتوى على المقام الكريم ، فتجد للبيت العتيق ^{١٦} بسب هذا القبو خمسة أركان ، وفي سعة صفحية قمتان ، وهو محتو على الركن العراقي بنصفين من كل صفح ^{١٧} ، وثلثا قناة هذا القبو مكسوان بسرق ^{١٨} الحرير الملون كأنه قد لف فيه ثم وضع .

وهذا المقام الكريم ، الذي داخل هذا القبو ، هو مقام ابراهيم صلى الله على نبينا وعليه ، وهو حجر مغشى بالفضة ، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعته مقدار شبرين ، وأعلاه أوسع من أسفله ، فكأنه — وله التنزيه والمثل الأعلى — كانون فخار كبير ، أوسطه يضيق عن أسفله وعن أعلاه . عايناه وتبركنا بلمسه وتقبيله ، وصب لنا في أثر القدمين المباركين ^{١٩} ماء زمزم فشربناه ، نعمنا الله به ، وأثرهما بين وأثر الأصابع المكرمة المباركة ، فسبحان من ألانه لواطئه حتى أثرت ^{٢٠} فيه ولا تأثير القدم في الرمل الوثير ، سبحان جاعله من الآيات البيّنات .

ولعاينته ومعينة البيت الكريم هول يشمر النفوس من الدهول ، ويطيش الأفئدة والعقول ، فلا تبصر الا لحظات خاشعة ، وعبرات هامة ، ومدامع باكية ، والسنة الى الله عز وجل ضارعة داعية .

وبين الباب الكريم والركن العراقي نحوض طوله اثنا عشر شبرا ، وعرضه خمسة أشبار ونصف ، وارتفاعه نحو شبر متصل من قبالة عضادة الباب التي تلى الركن المذكور ، آخذا الى جهته ، وهو علامة موضع المقام مدة ابراهيم عليه السلام ، الى أن صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذي هو الآن مصلى ، وبقي النحوض المذكور مصبا لماء البيت اذا غسل ، وهو موضع مبارك ، يقال انه روضة من رياض الجنة ، والناس يزدهنون للصلاة فيه ، وأسفله مفروش برملة بيضاء وثيرة .

وموضع المقام الكريم هو الذي يصلى خلفه ، يقال ما بين الباب الكريم والركن العراقي ، وهو الى الباب أميل بكثير ، وعليه قبة خشبية في مقدار القامة أو أزيد ، مركبة ١ محددة بديعة النقش ، سعتها من ركنها الواحد الى الثاني أربعة أشبار .

وقد نصبت على الموضع الذي كان فيه المقام وحوله تكيف من حجارة ، نصت على حرف ٢ كالحوض المستطيل في ارتفاعه نحو شبر ، وطوله خمس خطا ، وعرضه ثلاث لخطا ، وأدخل ٣ المقام الى الموضع الذي وصفناه في البيت الكريم احتياطا عليه ، بينه وبين صفح البيت الذي يقابله سبع عشرة خطوة ، والخطوة كلها فيها ثلاثة أشبار ، ولموضع المقام أيضا قبة مصنوعة من حديد ، موضوعة الى جانب قبة زمزم . فاذا كان في أشهر الحج ، وكثر الناس ، ووصل العراقيون والخراسانيون ، رفعت قبة الخشب ، ووضعت قبة الحديد لتكون أحمل ، للازدحام .

ومن . الركن الذي فيه الحجر الأسود الى الركن العراقي أربعة وخمسون شبرا مخففة ١ ، ومن الحجر الأسود الى الأرض ستة أشبار ، فالطويل يتطامن اليه ، والقصير يتناول اليه . ومن الركن العراقي الى الركن الشامي ثمانية وأربعون شبرا مخففة ، وذلك داخل الحجر ، وأما من خارج فبنيه اليه أربعون خطوة ، وهي مائة وعشرون شبرا مخففة ، ومن خارجه يكون الطواف . ومن الركن الشامي الى الركن اليمني ما من الركن الأسود الى العراقي ، لأنه الصفح الذي يقابله . ومن اليمني الى الأسود ما من العراقي الى الشامي داخل الحجر ، لأنه الصفح الذي يقابله .

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام حسنا ، منها سود وسمر وبيض ، قد ألصق بعضها الى بعض ، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا ، الا في الجهة التي تقابل المقام ، فانها امتدت اليها حتى أحاطت به . وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة .

وبين الركن العراقي وبين أول جدار الحجر مدخل الى الحجر سبعة أربع خطا ، وهي ست أذرع محققة كلناها باليد ، وهذا الموضع الذي لم يحجر عليه ، هو الذي تركت قريش من البيت ، وهو ست ٢ أذرع حسبا وردت به الآثار الصحاح ، ويقابله عند الركن الشامي مدخل آخر على مثال تلك السعة .

التوريق الرقيق ، والتشجير والتقضيبي^٦ ما لا يحده الصنع اليدين في الكاغد قطعاً بالجلمين ، فمرآهما عجيب ، أمر بصنعهما^٧ على هذه الصفة امام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستفى بالله أبى محمد الحسن ، ابن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف العباسى ، رضى الله عنه .

ويقابل الميزاب فى وسط الحجر ، وفى نصف جداره الرخامى ، رخامة قد نقشت أبدع نقش ، وحفت بها^٨ طرة منقوشة نقشا مكحلا عجيبا ، فيه مكتوب ، مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، وذلك فى سنة ست وسبعين وخمسمائة .

والميزاب فى أعلى الصفح الذى يلى^٩ الحجر المذكور ، وهو من صفر مذهب قد خرج الى الحجر بمقدار أربع أذرع ، وسعته مقدار شبر ، وهذا الموضع تحت الميزاب هو^{١٠} أيضا مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى ، وكذلك الركن اليمانى ، ويسمى المستجار ما يليه ، وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامى .

وتحت الميزاب ، فى صحن الحجر بقربة من جدار البيت الكريم ، قبر^{١١} اسماعيل صلى الله عليه وسلم ، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب ، تتصل بها رخامة خضراء مستديرة ، وكلتاهما^{١٢} غريبة المنظر ، فيهما نكت تنفتح عن لونها الى الصفرة قليلا كأنها تجزيع ، وهى أشبه الأشياء

وبين جدار البيت الذى تحت الميزاب ، والذى^{١٣} يقابله من جدار الحجر على خط استواء يشق وسط الصحن المذكور أربعون شبرا ، وسعته من المدخل الى المدخل ست عشرة خطوة ، وهى ثمانية وأربعون شبرا^{١٤} . وهو - يعنى دور الجدار - رخام كله مجزوع بديع ، اللصاق قضبان صفر مذهبة ، وضع منها فى صفحه أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض ، وصفات محاريب ، فاذا ضربت الشمس فيها ، لاح لها بصيص ولألاء يخيّل للناظر اليها أنها ذهب يرتى بالأبصار شعاعه ، وفى ارتفاع جدار هذا الحجر الرخامى خمسة أشبار ونصف ، وسعته أربعة أشبار ونصف .

وداخل الحجر بلاط واسع ، ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة ، وهو مفروش بالرخام المجزوع ، المقطع فى دور الكف^{١٥} الى دور الدينار الى ما فوق ذلك^{١٦} ، ثم ألصق بانتظام بديع ، وتآليف معجز الصنعة ، غريب الاتقان ، رائع الترصيع والتجزيع ، رائع التركيب والرصف ، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية ، وسواها على اختلاف أنواعها^{١٧} وصفاتها ، ما يقيد بصره حسنا ، فكأنه يجيله^{١٨} فى أزهار مفروشة مختلفات الألوان ، الى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسى ، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة .

وبازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب ، أحدث الصانع فيهما^{١٩} من

بالنكت التي تبقى في البيدق * من حل الذهب فيه . والى جانبه ، مما يلي الركن العراقي ، قبر أمه هاجر رضى الله عنهما ، وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف . يترك الناس بالضلالة في هذين الموضعين من الحجر ، وحق لهم ذلك ، لأنهما من البيت العتيق ، وقد انطبقا على جسدين مقدسين سكرمين ، نورهما الله ونفع ببركتهما كل من صلى عليهما ، وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار .

وقبة بئر زمزم تقابل الركن الأسود ، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة ، والمقام المذكور الذي يصلى خلفه عن يمين القبة ، ومن ركنها إليه ٦ عشر خطا ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض ، وتنور البئر المباركة في وسطها مائل عن الوسط الى جهة الجدار الذي يقابل البيت المكرم ، وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذرعه ، وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر .

وباب القبة ناظر الى الشرق ، وبابا قبة العباس وقبة اليهودية ناظران الى الشمال ، والركن من الصفح - الناظر الى البيت العتيق من القبة المنسوبة الى اليهودية - متصل بالركن الأيسر من الصفح الأخير الناظر الى الشرق من القبة العباسية ، فينبغي هذا القد من الانحراف .

وتلى قبة بئر زمزم من ورائها قبة الشراب ، وهي المنسوبة للعباس رضى الله عنه ، وتلى هذه القبة العباسية على انحراف

عنها قبة تنسب لليهودية ، وهاتان القبتان مخزانان لأوقاف البيت الكريم ، من مصاحف وكتب وأتوار شمع وغير ذلك . والقبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرايية لأنها كانت سقاية الحاج ، وهي حتى الآن يرد فيها ماء زمزم ، ويخرج مع الليل لستى الحاج في قبال يسمونها الدوارق ، كل دورق منها ذو مقبض واحد .

وتنور بئر زمزم من رخام قد ألصق بعضه ببعض الصاقا لا تحيله الأيام ، وأفرغ في أثائه الرصاص وكذلك داخل التنور ، وحفت به من أعمدة الرصاص الملصقة اليه - ابلاغا في قوة لزه ورصه - اثنان وثلاثون عمودا قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة الشر دائرة بالتنور كله ، ودوره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف ، وغلظه شبر ونصف .

وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر ، وعمقها نحو شبرين ، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار ، تملأ ماء للوضوء ، وحولها مسطبة دائرة يرتفع الناس اليها ، ويتوضؤون عليها .

والحجر الأسود المبارك ملصق في الركن الناظر الى جهة المشرق ، ولا يدري قدر ما دخل في الركن : وقيل انه داخل في الجدار بمقدار ذراعين ، وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعقد ، وفيه أربع قطع ملصقة ، ويقال ان القرمطي - لعنه الله - كان الذي كسره ، وقد شدت جوانبه بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر

وروثقه الصقيل ، قيصر الرائي من ذلك منظرا عجيبا هو قيد الأبصار ، وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم ، حتى يود اللائم ألا يقلع فمه عنه ، وذلك خاصة من خواص العناية الالهية ، وكفى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وانه يعين الله في أرضه »^١ ، فعننا الله باستلامه ومصافحته ، وأوفد عليه كل شيق اليه بمنه .

وفي القطعة الصحيحة من الحجر — مما يلي جانبه الذي يلي يمين المستلم له اذا وقف مستقبله — نقطة بيضاء صغيرة مشرقة ، تلوح كأنها خال في تلك الصفحة المباركة ، وفي هذه الشامة البيضاء أثر أن النظر اليها يجلو البصر ، فيجب على المقبل أن يقصد بتقبيله موضع الشامة المذكورة ما استطاع .

والمسجد الحرام يطيف به ثلاثة بلاطات ، على ثلاث سوار من الرخام ، منتظمة كأنها بلاط واحد ، ذرعها في الطول أربعمائة ذراع ، وفي العرض ثلثمائة ذراع ، فيكون تكسيره محققا ثمانية وأربعين مرجعا ، وما بين البلاطات قضاء كبير ، وكان على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صغيرا ، وقبة زمزم خارجة عنه .

وفي مقابلة الركن الشامي رأس سارية ثابتة في الأرض ، منها كان حد الحرم أولا ، وبين رأس السارية وبين الركن الشامي المذكور اثنتان وعشرون خطوة ، والكعبة في وسطه على استواء من الجوانب الأربعة ما بين الشرق والجنوب والشمال والغرب ،

وعدد سواريه الرخامية — التي عددها بنفسى — أربعمائة سارية واحدة وسبعون سارية ، حاشى الجصية^٢ التي منها في دار الندوة ، وهي التي زيدت في الحرم ، وهي داخلة في البلاط^٣ الآخذ من الغرب الى الشمال ، ويقابلها المقام مع الركن العراقي ، وفضاؤها متسع يدخل من البلاط^٤ اليه .

ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب ، تحت قسي حنايا ، يجلس فيها النساخون والمقرئون وبعض أهل صنعة الخياطة ، والحرم محدد بحلقات المدرسين وأهل العلم ، وفي جدار البلاط الذي يقابله أيضا مصاطب تحت حنايا على تلك الصفة ، وهو البلاط الآخذ من الجنوب الى الشرق .

وسائر البلاطات تحت جداراتها مصاطب دون حنايا عليها ، والبنيان فيها الآن على أكمل ما يكون ، وعند باب ابراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ^١ من الغرب الى الجنوب ، فيه أيضا سوار جصية^٢ ، ووجدت بخط أبي جعفر بن علي^٣ الفسكي القرطبي الفقيه المحدث أن عدد سواريه أربعمائة وثمانون ، لأنى لم أحسب التي خارج باب الصفا .

وللمهدى محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي ، في توسعة المسجد الحرام والتأنيق في بنائه آثار كريمة ، وجدت^٤ في الجهة التي من الغرب الى الشمال ، مكتوبا في أعلى جدار البلاط « أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين — أصلحه الله — بتوسعة

المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره في سنة سبع وستين ومائة .

وللحرم سبع صوامع : أربع في الأربعة * جوانب ، وواحدة في دار الندوة ، وأخرى على باب الصفا — وهي أصغرهما ، وهي علم لباب الصفا ، وليس يصعد إليها لضيقها — وعلى باب إبراهيم صومعة قد ذكرت عند باب إبراهيم فيما بعد .

وباب الصفا يقابل الركن الأسود ، في البلاط الذي من الجنوب الى الشرق ، وفي وسط البلاط المقابل للباب ساريتان مقابلتان ^١ الركن المذكور ، فيهما ^٢ منقوش « أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين — أصلحه الله — بإقامة هاتين الأسطواتين ، علما لطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصفا ، ليتأسي به حاج بيت الله وعماره ، على يدي يقطين بن موسى وإبراهيم بن صالح ، في سنة سبع وستين ومائة » .

وفي باب الكعبة المقدسة نقش بالذهب ، ورائق الخط ، طويل الحروف غليظها ، يرتقى الأبصار ^٣ بروقه وحسنه ، مكتوب فيه « ما أمر بعمله عبد الله وخليفته الامام أبو عبد الله محمد المقتنى لأمر الله أمير المؤمنين — صلى الله عليه وعلى الأئمة آبائه الطاهرين وخلص ميراث النبوة لديه ، وجعلها كلمة باقية في عقبه الى يوم الدين — في سنة خمسين وخمسائة ، في صفحتي البابين ، على هذا النص المذكور » .

ويكتنف البابين الكريمين عضادة غليظة من الفضة المذهبة ، البديعة النقش ، تصعد الى العتبة المباركة وتشف ^٤ عليها ، وتستدير بجانبى البابين ، ويعترض أيضا بين البابين — عند اغلاقهما — شبه العضادة الكبيرة من الفضة المذهبة ، هي بطول البابين ، متصلة بالواحد منهما الذي عن يسار الداخل الى البيت .

وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه ، وهي أربع وثلاثون شقة : في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامي منها تسع ، وفي الصفح الذي يقابله بين الركن الأسود والعراقي تسع أيضا ، وفي الصفح بين العراقي والشامي ثمان ، وفي الصفح بين اليماني والأسود ثمان أيضا . قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة ^٥ جوانب .

وقد أحاط بها من أسفلها تكيف مبنى بالجص ، في ارتفاعه أزيد من شبر ، وفي سمته شبران أو أزيد قليلا ، في داخله خشب غير ظاهر ، وقد سميت فيه أوتاد حديد في رؤوسها حلقات حديد ظاهرة ، قد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول ، واستدار بالجوانب الأربعة ^٦ ، بعد أن وضع في أذيال الستور شبه حجز ^٧ السراويلات ، وأدخل فيها ذلك المرس ، وخيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة ، ومجتمع الستور في الأركان الأربعة مخيط الى أزيد من قامة ، ثم منها الى أعلاها تتصل بعري من حديد تسخل ^٨ بعضها في بعض .

وفى أثناء محاولة فتح الباب الكريم ، يقف الناس مستقبلين اياه بأبصار خاشعة ، وأيد مبسوطة الى الله ضارعة . واذا افتتح الباب كبر الناس ، وعلا ضجيجهم ، ونادوا بالسنة مستهلة : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين . ثم دخلوا بسلام آمنين ^٢ .

وفى الصفح المقابل للداخل فيه ، الذى هو من الركن اليماني الى الركن الشامي ، خمس رخامات منتصبات طولا كأنها أبواب ، تنتهى الى مقدار خمسة أشبار من الأرض ، وكل واحدة منها نحو القامة ، الثلاث منها حمر ، والاثنان خضراوان ، فى كل واحدة منها تجزيع بياض لم ير أحسن منظرا منه ، كأنه فيها تنقيط ، فتصل ^١ بالركن اليماني منها الحمراء ، ثم تليها بخمسة أشبار الخضراء . والموضع الذى يقابلها متقهقرا عنها بثلاثة أذرع ، هو مصلى النبی صلي الله عليه وسلم ، فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركا به .

ووضعن على هذا الترتيب ، وبين كل واحدة وأخرى القدر المذكور ، ويتصل بينهما رخام أبيض صافى اللون ناصع البياض ، قد أحدث الله عز وجل فى أصل خلقته ^٢ أشكالا غريبة مائلة الى الزرقة مشجرة مفضنة ، وفى التى تليها مثل ذلك بعينه من الأشكال ، كأنها مقسومة ، فلو انطبقتا لعاد كل شكل يضافح شكله ، فكل واحدة شقة الأخرى لا محالة ، عندما نشرت انشقت على تلك الأشكال ، فوضعت كل واحدة بإزاء أختها ،

واستدار أيضا بأعلاها ، على جواب السطح ، تكيف ثان ، وقعت فيه أعالي الستور فى حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة ، فجاءت الكسوة المباركة مخططة الأعلى والأسفل ، وثيقة الأزرار ، لا تخلع الا من عام الى عام عند تجديدها . فسبحان من خلدها الشرف الى يوم القيامة لا اله سواه .

وباب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين ويوم جمعة ، الا فى رجب فانه يفتح فى كل يوم ، وفتحه أول بزوغ الشمس .

يقبل سدة البيت الشيبون ، فيأدر منهم من ينقل كرسيًا كبيرًا شبه المنبر الواسع ، له تسعة أدراج مستطيلة ، قد وضعت له قوائم من الخشب متطامنة مع الأرض ، لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد أباشرتها الأرض ، يجرى الكرسي عليها حتى يصل الى البيت الكريم ، فيقع درجه الأعلى متصلا بالعتبة المباركة من الباب .

فيصعد زعيم الشيبين اليه — وهو كهل جميل الهيئة والشارة — ويده مفتاح القفل المبارك ، ومعه من السدة من يمسك فى يده سترا أسود ، يفتح يديه ^١ به أمام الباب خلال ما يفتحه الزعيم الشيبى المذكور ، فاذا فتح القفل قبل العتبة ، ثم دخل البيت وحده وسد ^٢ الباب خلفه ، وأقام قدر ما يركع ركعتين ، ثم يدخل الشيبون ويسدون الباب أيضا ويركعون ، ثم يفتح الباب ويأدر الناس بالدخول .

قدر شبرين ذهب مرسوم فى اللازورد ، قد
خط فيه خط بديع ، وتتصل الطرتان بالذهب
المنقوش على نصف الجدار الأعلى ، والجهة
التي عن يمين الداخل لها طرة واحدة ، وفى
هاتين الطرتين بعض مواضع دراسة .

وفى كل ركن من الأركان الأربعة - مما
يلى الأرض - رخامتان خضراوان صغيرتان
تكتنفان الركن ^٢ ، وتكتنف أيضا كل باين
من الفضة اللذين فى كل ركن ، كأنهما
طاقان ، عضادتان من الرخام الأخضر صغيرتان
على قدر تقييها .

وفى أول كل صفح من الصفحات المذكورة
رخامة حمراء ، وفى آخره مثلها ، والخضراء
بينهما على الترتيب المذكور . الا الصفح الذى
عن يسار الداخل ، فأول رخامة تجدها متصلة
بالركن الأسود رخامة خضراء ، ثم حمراء الى
كمال الترتيب الموصوف .

وبازاء المقام الكريم منبر الخطيب ، وهو
أيضا على بكرات أربع شبه التي ^٤ ذكرناها
فاذا كان يوم الجمعة ، وقرب وقت الصلاة ،
ضم الى صفح الكعبة الذى يقابل المقام ،
وهو بين الركن الأسود والعراقى ، فيسند
المنبر اليه .

ثم يقبل الخطيب داخلا على باب النبى
صلى الله عليه وسلم - وهو يقابل المقام
فى البلاط الآخذ من الشرق الى الشمال -
لابسا ثوب سواد مرسوما بذهب ، ومتعمما
بعمامة سوداء مرسومة أيضا ، وعليه طيلسان
شرب رقيق - كل ذلك من كساء الخليفة

والفاضل منها بين كل خضراء وحمراء
رخامتان ، سعتهما خمسة أشبار لأعداد ^٢
الأشبار المذكورة ^٤ ، والأشكال فيها تختلف
ميتاتها ، وكل أخت منها بازاء أختها . وقد
شدت جواب هذه الرخامات بتكافيف ^٥ ، غلظها
قدر أصبعين ، من الرخام المجزع من الأخضر
والأحمر المنقطين ، والأبيض ذى الخيلان ،
كأنها أنابيب مخروطية يحار الوهم فيها .

فاعترضت فى هذا الصفح المذكور من فرج
الرخام الأبيض ست فرج ، وفى الصفح الذى
عن يسار الداخل - وهو من الركن الأسود
الى اليسانى - أربع رخامات : اثنتان
خضراوان ، واثنتان حمراوان ، وبينهما خمس
فرج من الرخام الأبيض ، وكل ذلك على
الصفة المذكورة .

وفى الصفح الذى عن يمين الداخل -
وهو من الركن الأسود الى العراقى - ثلاث :
اثنتان حمراوان ، وواحدة خضراء ، ويتصل
بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض . وهذا
الصفح هو المتصل بالركن الذى فيه باب
الرحمة ، وسعته ثلاثة أشبار ، وطوله سبعة ^١
وعضادته التى عن يمينك اذا استقبلت رخامة
خضراء فى سعة ثلثى شبر . وفى الصفح
الذى من الشامى الى العراقى ثلاث : اثنتان
حمراوان ، وواحدة خضراء ، ويتصل بها
ثلاث فرج من الرخام الأبيض على الصفة
المذكورة .

ويككل ^٢ هذا الرخام المذكور طرتان ،
واحدة على الأخرى ، سعة كل واحدة منهما

التي أرسلها الى تخطباء بلاده * - يرقل فيها ،
وعليه السكينة والوقار ، يتهادى رويدا بين
رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة
المؤذنين وبين يديه ساعيا أحد القومة ، وفي يده
عود مخروط أحمر قد ربط في رأسه مرس من
الأديم المفتول ، رقيق طويل ، في طرفه عذبة
صغيرة ، ينفضها بيده في الهواء نفضا ، فتأتي
بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه ،
كأنه ايدان بوصول الخطيب ، لا يزال في
تقضها الى أن يقرب من المنبر ، ويسمونها
الفرقة .

فاذا قرب من المنبر عرج الى الحجر الأسود
فقبله ودعا عنده ، ثم سعى الى المنبر ، والمؤذن
الزمرى - رئيس المؤذنين بالحرم الشريف
- ساعيا أمامه ، لابسا ثياب السواد أيضا ،
وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد
له . فعند صعوده في أول درجة ، قلده
المؤذن المذكور السيف ، ثم ضرب بنعلة سيفه
فيها ضربة أسمع بها الحاضرين ، ثم في
الثانية ، ثم في الثالثة ، فاذا انتهى الى الدرجة
العليا ضرب ضربة رابعة ، ووقف داعيا
مستقبل الكعبة بدعاء خفي ، ثم انفتل عن
يمينه وشماله ، وقال السلام عليكم ورحمة
الله وبركاته ، فيرد الناس عليه السلام .

ثم يقعد ويبادر المؤذنون بين يديه في المنبر
بالأذان على لسان واحد ، فاذا فرغوا قام
للخطبة ، فذكر ووعظ وخشع فأبلغ ، ثم
جلس الجلسة الخطيبية ، وضرب بالسيف ضربة
خامسة ، ثم قام للخطبة الثانية ، فأكثر بالصلاة
على محمد ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله ،

ورضى عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء
بالتسمية رضى الله عن جميعهم ، ودعا لعمى
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حمزة والعباس
والحسن والحسين ، ووالى الترضى ^٢ عن
جميعهم ، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي
صلى الله عليه وسلم ، ورضى عن فاطمة الزهراء
وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ ، ثم دعا
للخليفة العباسي أبى العباس أحمد الناصر ،
ثم لأمير مكة مكثر * بن عيسى بن فليته بن
قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم
الحسنى ، ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف
ابن أيوب ولولى عهده أخيه أبى بكر بن
أيوب ، وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق
الأسنة بالتأمين عليه من كل مكان .

واذا أحب الله يوما عبده

ألقى عليه محبة للناس

وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء
بهم ، وحسن النظر لهم ، ولما رفعه من وظائف
المكوس عنهم .

وفى هذا التاريخ أعلننا بأن كتابه وصل
الى الأمير مكثر ، وأهم فصوله التوصية
بالحاج ، والتأكيد في ميرتهم ^١ وتأنيبهم ،
ورفع أيدي الاعتداء عنهم ، والإيعاز في ذلك
الى الخدام والأتباع والأوزاع . وقال : انه
انما نحن وأنت متقبلون في بركة الحاج .
فتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم ،
واحسان الله يتضاعف الى من أحسن الى
عباده ، واعتناؤه الكريم موصول لمن جعل
همته ^٢ الاعتناء بهم ، والله عز وجل كفيل

بجزاء المحسنين ، الله ولي ذلك لا رب
سواه .

وفى أثناء الخطبة تركز الرايتان السوداوان
فى أول درجة من المنبر ، ويمسكهما ٢ رجلان
من المؤذنين ، وفى جانبى باب المنبر حلقتان
تلقى الرايتان فيهما مركوزتين ، فإذا فرغ من
الصلاة خرج والرايتان عن يمينه وشماله ،
والفرقة أمامه على الصفة التى دخل عليها ،
كأن ذلك أيضا ائذان بانصراف الخطيب
والفراغ من الصلاة ، ثم أعيد المنبر الى
موضعه بازاء المقام .

ليلة أهل هلال الشهر المذكور — وهو
جمادى الأولى — بكر أمير مكة مكث
المذكور ، فى صبيحتها ، الى الحرم الكريم
مع طلوع الشمس ، وقواده يحفون به ،
والقراء يقرأون أمامه ، فدخل على باب النبى
صلى الله عليه وسلم ، ورجاله السوداوان
— الذين يعرفونهم بالحراية — يطوفون
أمامه وبأيديهم الحراب ، وهو فى هيئة
اختصار ، عليه السكينة والوقار وسمت سلفه
الكريم رضى الله عنهم ، لابسا ثوب بياض ،
متقلدا سيفا مختصرا ، متعصما بكتريزية صوف
بيضاء رقيقة .

فلما انتهى بازاء المقام الكريم وقف ،
وبسط له وطاء كتان فصلى ركعتين ، ثم تقدم
الى الحجر الأسود فقبله ، وشرع فى
الطواف ، وقد علا فى قبة زمزم صبى ، هو
أخو المؤذن الزمزمى ، هو أول المؤذنين أذانا ،

به يقتدون وله يتبعون ، وقد لبس أفخر ثيابه
وتعمم .

فعندما يكمل الأمير شوطا واحدا ، وبقرب
من الحجر ، يندفع الصبى فى أعلى القبة ،
رافعا صوته بالدعاء ، ويستفتح بصبح الله
مولانا الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة ،
ويصل ذلك بتهنئة الشهر بكلام مسجوع
مطبوع حفيلى الدعاء والثناء ، ثم يختم ذلك
بثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر فى مدحه
ومدح سلفه الكريم ، وذكر سابقة النبوة رضى
الله عنها ، ثم ١ يسكت .

فإذا أظلم من الركن اليمانى يريد الحجر ،
اندفع بدعاء آخر على ذلك الأسلوب ،
ووصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأخر
فى ذلك المعنى بعينه ، كأنها منتزعة من قصائد
مدح بها ، هكذا فى السبعة الأشواط الى أن
يفرغ منها ، والقراء فى أثناء طوافه أمامه .
فينتظم من هذه الحال والأبهة ، وحسن صوت
ذلك الداعى على صفه — لأنه ابن احدى
عشرة سنة أو نحوها — وحسن الكلام الذى
يورده ثرا ونظما ، وأصوات القراء وعلوها
بكتاب الله عز وجل ، مجموع يعرك النفوس
ويشجئها ، ويستوكف العيون ويكيها ، تذكر
لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس ،
وطهرهم تطهيرا .

فإذا فرغ من الطواف ركن عند الملتزم
ركعتين ، ثم جاء وركع خلف المقام أيضا ،
ثم ولى منصرفا وحلقته ٢ تحف به ، ولا يظهر
فى الحرم الا لمستهل هلال آخر ، هكذا
دائما .

والبيت العتيق مبنى بالحجارة الكبار
الصم * السر ، قد رص بعضها على بعض ،
وأصقت بالعقد الوثيق الصاقا لا تحيله الأيام ،
ولا تقصمه الأزمان . ومن العجيب أن قطعة
انصدعت من الركن اليماني ، فسمرت
بمسامير فضة ، وأعيدت كأحسن ما كانت ^١
عليه ، والمسامير فيها ظاهرة . ومن آيات
البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبرج
المشيد ، وله التنزيه الأعلى .

وحمام الحرم لا تحصى كثرة ، وهى من
الأمن بحيث يضرب بها المثل ، ولا سبيل أن
تنزل بسطحه الأعلى حمامة ، ولا تحل فيه
بوجه ولا على حال ، فترى الحمام تتجلل ^٢
على الحرم كله ، فإذا قربت من البيت عرجت
عنه يمينا أو شمالا ، والطيور سواها كذلك .
وقرأت فى أخبار مكة أنه لا ينزل عليه ^٣ طائر
الا عند مرض يصيبه ، فاما أن يموت لحينه
أو ييرا . فسبحان من أورثه التشريف
والتكريم .

ومن آياته أن يابه الكريم يفتح فى الأيام
المعلومة المذكورة ، والحرم قد غص بالخلق ،
فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم قدرة الله عز
وجل ، ولا يبقى فيه موضع الا ويصلى فيه
كل أحد ، ويتلاقى الناس عند الخروج منه ،
فيسال بعضهم بعضا : هل دخل البيت ذلك
اليوم ؟ فكل يقول : دخلت وصليت فى موضع
كذا وموضع كذا حيث صلى الجميع . والله
الآيات البيّنات ، والبراهين المعجزات ، سبحانه
وتعالى .

ومن عجائب امتناء الله تبارك وتعالى به أنه
لا يخلو من الطائفتين ساعة من النهار ، ولا وقتا
من الليل ، فلا تجد من يخبر أنه رآه دون طائف
به . فسبحان من كرمه وعظمه ، وخلد له
التشريف الى يوم القيامة .

وفى أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها
كلها من الجوانب الأربعة ، وهو مشرف كله
بشرفات مبسوطة مركنة ، فى كل جانب من
الشرفة ثلاثة أركان كأنها أيضا شرفات أخر
صغار ، والركن الأسفل منها متصل بالركن
الذى يليه من الشرفة الأخرى * ، وتحت
كل صلة منها ثقب مستدير فى دور الشبر ،
منفوذ يخترقه الهواء ، يضرب فيه شعاع الشمس
أو القمر ، فيلوح كأنها أقمار مستديرة متصل
ذلك بالجوانب الأربعة ^١ كلها ، كأن الشرفات
المذكورة بنيت شقة واحدة ، ثم أحدثت فيها
هذه التقاطيع والتراكين فجاءت عجيبة المنظر
والشكل .

وفى النصف من كل جانب من الجوانب
الأربعة المذكورة ، شقة من الجص معترضة
بين الشرفات مخرمة فرجية ^٢ ، طولها نحو
الثلاثين شبرا تقديرا ، يقابل كل شقة منها
صفحا من صفحات الكعبة المقدسة ، قد علت
على الشرفات كالتاج .

وللصوامع أيضا أشكال بديمة ، وذلك أنها
ارتفعت بمقدار النصف مركنة من الأربعة ^١
جوانب بحجارة رائعة النقش عجيبة الوضع ،
قد أحاط بها شبك من الخشب الغريب الصنعة ،
وارتفع عن الشباك عمود فى الهواء كأنه
مخروط مختم كله بالأجر تختيما يتداخل

بكل سارية منها رهوض ثلاثة أو أربعة ، وتحت ما بين كل رأس ورأس وأحدثت ^١ ، فيه صنائع من النقش عجبية المنظر ، وربما قتل بنفضها على الصفة السوارية .

وهذا الجانب الذى يقابل الحجر الأسود من القبة المذكورة تتصل به ^٢ مصطبة من الرخام دائرة مائقة ، يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع ، لأنه أشرف مواضع الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة لأن الحجر الأسود أمامك ، والباب الكريم مع البيت قبالتك ، والمقام عن يمينك ، وباب الصفا عن يسارك ، وبئر زمزم وراء ظهرك ، وناهيك بهذا .

وينطبق على كل شرجب من تلك الشراحيب أعمدة حديد قد تركب بعضها على بعض كأنها شراحيب آخر ، وأحد أركان شباك الخشب المحقق بالقبة العباسية تتصل بأحد أركانه شباك قبة ^٣ اليهودية حتى يتماسا ، فمن يكون فى أعلى سطح هذه ينفتل الى سطح الأخرى من الركنين المذكورين ، وداخل هذه القباب صنعة من القرصنة الجصية رائقة الحسن .

وللحرم أربعة أئمة سنية ، وامام خامس لفرقة تسمى الزيدية ، وأشرف أهل هذه البلدة على مذهبهم ، وهم يزيديون فى الأذان « حى على خير العمل » اثر قول المؤذن « حى على الفلاح » ، وهم روافض سبابون ، والله من وراء حسابهم وجزائهم ، ولا يجمعون

بعضه على بعض ، بصنعة تستميل الأبصار حسنا ، وفى أعلى ذلك العمود الفحل ، وقد استدار به أيضا ، شباك آخر من الخشب على تلك الصنعة بعينها ، وهى متميزة الأشكال كلها ، لا يشبه بعضها بعضا ، لكنها على هذا المثال المذكور من كون نصفها الأول مركنا ، ونصفها الأعلى عمودا لا ركن له .

وفى النصف الأعلى من قبة زمزم ، والقبة العباسية التى تسمى السقاية ، والقبة التى تليها ^٤ منحرفة عنها يسيرا المنسوبة لليهودية ، صنعة من قرصنة الخشب عجبية ، قد تألق الصانع فيها ، وأحذق بأعلاها شباك مشرجب من الخشب رائق الخلل والتفاريح ، وداخل شباك قبة زمزم سطح ، وقد قام فى وسطه شبه فحل الصومعة ، وفى ذلك السطح يؤذن المؤذن الزمزمى ، وقد انخرط من ذلك الفحل عمود من الجص ، واستقر فى رأسه صفحة ^٥ حديد تتخذ مشعلا فى شهر رمضان المعظم .

وفى الصفح الناظر الى البيت العتيق من القبة سلاسل فيها قناديل من زجاج معلقة ، توقد كل ليلة ، وفى الصفح الذى عن يمينه كذلك - وهو الناظر الى الشمال - وفى كل جانب منها ثلاثة شراحيب مقومة كأنها أبواب ، قد قامت على سوار من الزجاج صغار لم ير أبدع منها صنعة ، منها ما هو مفتول قتل السوار ، ولا سيما الجانب الذى يقابل الحجر الأسود من قبة زمزم ، فان سواريه فى نهاية من اتقان الصنعة ، قد أدير

مع الناس انما يصلون ظهرا أربعاً^١ ، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها .

فأول الأئمة السنية الشافعى رحمه الله وانما قدمنا ذكره لأنه المقدم من الامام العباسى ، وهو أول من صلى ، وصلاته خلف مقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم .

الا صلاة المغرب فان الأربعة الأئمة يصلونها فى وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها يبدأ مؤذن الشافعى بالاقامة ، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة ، وربما دخل فى هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة ، فربما ركع المالكى بركوع الشافعى أو الحنفى ، أو سلم أحدهم بغير سلام امامه ، فترى كل أذن مصيخة لصوت امامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو ، ومع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس .

ثم المالكى رحمه الله ، وهو يصلى قبالة الركن اليمانى ، وله محراب^٢ حجر يشبه محارب الطرق الموضوعة فيها .

ثم الحنفى رحمه الله ، وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له ، وهو أعظم الأئمة أبهة ، وأفخرهم آلة من الشمع وسواها ، بسبب أن الدولة الأعجمية كلها على مذهبه ، فالاحتفال له كثير ، وصلاته آخرها .

ثم الحنبلى رحمه الله ، وصلاته مع صلاة المالكى فى حين واحد ، وموضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليمانى ، ويصلى الظهر والعصر قريباً من الحنفى فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال ، والحنفى

يصليهما^٣ فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب قبالة محرابه ، ولا حطيم له .

وللشافعى بازاء المقام حطيم خفيل . وصفة الحطيم خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلم ، تقابلهما^٤ خشبتان على تلك الصفة ، قد عقدت هذه الخشب على رجلين من الجص غير بائلة الارتفاع ، واعترض فى أعلى الخشب خشبة مسرة فيها ، قد نزلت منها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج ، وربما وصل بالخشبة المعترضة العليا شباك مشرج بطول الخشب .

وللحنفى بين الرجلين الجصيتين ، المنعقدتين على الخشب ، محراب يصلى فيه . وللحنبل حطيم معطل ، هو قريب من حطيم الحنفى ، وهو منسوب لرامشت^١ أحد الأعاجم ذوى الثراء^٢ ، وكانت له فى الحرم آثار كريمة من النفقات رحمه الله ، ويقابل الحجر حطيم معطل أيضاً ينسب للوزير المقدم بهذا اللفظ المجهول .

ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق ، وعلى بعد منه يسيراً ، مشاعيل توقد فى صحاف حديد فوق خشب مركوزة ، فيتقد الحرم الشريف كله نورا ، ويوضع الشمع بين أيدي الأئمة فى محاريبهم ، والمالكى أقلهم شمعا وأضعفهم حالاً ، لأن مذهبه فى هذه البلاد غريب ، والجمهور على مذهب الشافعى ، وعليه علماء البلاد وفقهاؤها الا الاسكندرية وأكثر أهلها مالكيون ، وبها

الفتية ابن عوف ، وهو شيخ كبير من أهل العلم بقية الأئمة المالكية .

وفى أثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمى فى سطح قبة زمزم — ولها مطلع على أدراج من عود فى الجهة التى تقابل باب الصفا — رافعا صوته بالدعاء للإمام العباسي أحمد الناصر لدين الله ، ثم للأمير مكثرا ، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن ، ذى المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة فإذا انتهى الى ذكره بالدعاء ، ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بالسنة تمدها القلوب الخالصة والنياب الصادقة ، وتنفق الألسنة بذلك خففا يذيب القلوب^٢ خشوعا طما وهب الله لهذا السلطان العادل من الشاء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس وعماذ الله شهدائه فى أرضه . ثم يصل ذلك بدعاء لأمرأ اليمن من جهة صلاح الدين ، ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين وينزل ، هكذا دأبه دائما أبدا .

وفى القبة العباسية المذكورة خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع ، وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة ، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبخط زيد بن ثابت رضى الله عنه ، منتسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقص منه ورقات كثيرة ، وهو بين دفتى عود مجلد^١ بمغاليق من صفر ، كييسر الورقات واسمها ، عايناه وتبركتنا بتقبيله ومسح الخدود فيه ، نفع الله بالية فى ذلك .

وأعلنا صاحب القبة ، المتولى لعرشه علينا ، أن أهل مكة متى أصابهم قحط أو فالتهم شدة فى أسعارهم ، أخرجوا المصحف المذكور ، وفتحوا باب البيت الكريم ، ووضعوه فى العتبة المباركة مع المقام الكريم — مقام الخليل إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم — واجتمع الناس كاشفين رهوسهم داعين متضرعين ، وبالمصحف الكريم والمقام العظيم^٢ الى الله متوسلين ، فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك الا ورحمة الله عز وجل قد تداركتهم ، والله لطيف بعباده لا اله سواه .

وبإزاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب يخرج منها إليه — وناهيك بهذا الجوار الكريم — كدار زبيدة ، ودار القاضي ، ودار تعرف بالمجلة ، وسواها من الديار ، وحول الحرم أيضا ديار كثيرة تطيف به ، ذات مناظر وسطوح ، يخرج منها الى سطح الحرم ، فيبيت أهلها فيه ، ويبردون ماءهم فى أعالي شرفاته ، فهم من النظر الى البيت العتيق دائما فى عبادة متصلة ، الله يهنئهم ما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه وكرمه .

وألفت بخط الفقيه الزاهد الورع ، أبى جعفر الفكي القرطبي ، أن ذرع المسجد الحرام فى الطول والعرض ما أثبتته أولا ، وطول مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة ذراع ، وعرضه مائتان ، وعدد سواريه ثلاثمائة ، ومباراته ثلاث ، فيكون تكسيه أربعة وعشرين^١ مرجعا من المراجع المغربية ، وهى خمسون ذراعا فى مثلها .

وطول مسجد بيت المقدس — أعاده الله ٢
للاسلام — سبعمائة وثمانون ذراعا ، وعرضه
أربعمائة وخمسون ذراعا ، وسواريه أربعمائة
وأربع عشرة سارية ، وقناديله خمسمائة ،
وأبوابه خمسون بابا ، فيكون تكسيره من
المراجع المذكورة مائة مرجع وأربعين مرجعا
وخمسي مرجع .

ذكر ابواب الحرم الشريف قدسه الله

للعلم تسعة عشر بابا أكثرها مفتوح على
أبواب كثيرة حسيبا يأتي ذكره ان شاء الله .

باب الصفا : يفتح على خمسة أبواب ، وكان
يسمى قديما بباب بنى مخزوم .

باب الخلقين : ويسمى بباب جياذ الأصغر ،
مفتاح على بايين ، وهو محدث .

باب العباس رضي الله عنه : وهو يفتح على
ثلاثة أبواب .

باب على رضي الله عنه : مفتوح على ثلاثة
أبواب .

باب النبي صلى الله عليه وسلم : يفتح على
بايين .

باب صغير أيضا بازاء باب بنى شيبه
المذكور ، لا اسم له ٤ .

باب بنى شيبه : وهو يفتح على ثلاثة
أبواب ، وهو باب بنى عبد شمس ، ومنه كان
دخول الخلفاء .

باب دار الندوة : ثلاثة ، البابان من دار
الندوة منتظمان ، والثالث في الركن الغربي من

الدار ، فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب
المنفرد عشرين بابا .

باب صغير بازاء باب بنى شيبه ، شبه خوخة
الأبواب ، لا اسم له ، وقيل انه يسمى باب
الرباط ، لأنه يدخل منه لرباط الصوفية .

باب صغير لدار المجلة محدث .

باب السدة واحد .

باب العمرة واحد .

باب حزورة على بايين .

باب ابراهيم صلى الله عليه وسلم واحد .

باب ينسب لحزورة أيضا على بايين .

باب جياذ الأكبر على بايين .

باب جياذ الأكبر أيضا على بايين ١ .

باب ينسب لجياذ أيضا على بايين .

ومنهم من ينسب البابين من هذه الأبواب
الأربعة الجياذية الى الدقاقين ، والروايات
فيها تختلف ، لكننا اجتهدنا في اثبات الأقرب
من أسمائها الى الصحة ، والله المستعان لا رب
سواه .

وباب ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، هو
في زاوية كبيرة متسعة ، فيها دار المكناس
الفقيه الذي كان امام المالكية في الحرم رحمه
الله ، وفيها أيضا غرفة هي خزانة للكتب ٢
المحبة على المالكية في الحرم ، والزاوية
المذكورة متصلة بالبلاط الآخذ من الغرب الى
الجنوب وخارجة عنه .

وبازاء الباب المذكور ، عن يمين الداخل عليه ، صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة ، فيها تخاريم فى الجص ، مستطيلة الشكل كأنها محاريب ، قد حفت قرنصة غريبة الصنعة ، وعلى الباب قبة عظيمة بآئنة العلو ، يقترب من الصومعة ارتفاعها ، قد ضمن داخلها غرائب من الصنعة الجصية والتخاريم القرنصية ، يعجز عنها الوصف ، وظاهرها أيضا تقاطيع فى الجص كأنها أرجل مدورة ، قد تركبت دائرة على دائرة ، وفحل الصومعة المذكورة على أرجل من الجص ، مفتوح ما بين (كل) رجل ورجل ، وخارج باب ابراهيم يتر تنسب اليه عليه السلام .

وانما بدىء بباب الصفا لأنه أكبر الأبواب ، وهو الذى يخرج عليه الى السعى ، وكل وافاد الى مكة — شرفها الله — يدخلها بعمرة ، فيستحب له الدخول على باب بنى شيبه ، ثم يطوف سبعا ويخرج على باب الصفا ، ويجعل طريقه بين الأسطواتين اللتين أمر المهدي — رحمه الله — باقامتهما علما لطريق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى الصفا ، حسبما تقدم ذكره ، وبين الركن اليماني وبينهما ست وأربعون ^٢ خطوة ، ومنهما ^٤ الى باب الصفا ثلاثون خطوة ، ومن باب الصفا الى الصفا ست وسبعون خطوة .

وللصفا أربعة عشر درجا ، وهو على ثلاثة أقواس مشرقة ، والدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة ، وقد أهدقت به الديار ، وفى سبعة سبع عشرة خطوة ، وبين الصفا والميل الأخضر ما يأتى ذكره .

والميل سارية خضراء ، وهى خضرة صباغية ، وهى التى الى ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم على قارة المسيل ^١ الى المروة وعن يسار الساعى اليها ، ومنها يرمل فى السعى الى الميلىن الأخضرين ، وهما أيضا ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة : الواحدة منهما بازاء باب على ^٢ فى جدار الحرم وعن يسار الخارج من الباب ، والميل الآخر ^٢ يقابله فى جدار دار تتصل بدار الأمير مكثر ، وعلى كل واحدة منهما لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج ، ألفت فيه منقوشا برسم مذهب « ان الصفا والمروة من شعائر الله » الآية ^٣ ، وبعدها « أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته ، أبو محمد المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين — أعز الله نصره — فى سنة ثلاث وسبعين وخمسائة » .

وبين الصفا والميل الأول ثلاث وتسعون خطوة ، ومن الميل الى الميلىن خمس وسبعون خطوة — وهى مسافة الرمل جائيا وذاها من الميل الى الميلىن ، ثم من الميلىن الى الميل — ومن الميلىن الى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة ، فجميع خطأ الساعى من الصفا الى المروة أربعمائة خطوة وثلاث وتسعون خطوة . وأدراج المروة خمسة ، وهى بقوس واحد كبير ، وسعتها سعة الصفا سبع عشرة (خطوة) .

وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية ، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام ، وحوانيت الباعة يمينا وشمالا ، وما للبلدة سوق منتظمة سواها الا البازين والعطارين ، فهم عند باب

بنى شعبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد
تصل بها .

وعلى ٤ الحرم الشريف جبل * أبى
قيس . وهو فى الجهة الشرقية يقابل ركن
الحجر الأسود ، وفى أعلاه رباط مبارك فيه
مسجد ، وعليه سطح مشرف على البلدة الطيبة ،
ومنه يظهر حسنهما وحسن الحرم واتساعه وجمال
الكعبة المقدسة القائمة وسطه .

وقرأت فى « أخبار مكة » لأبى الوليد
الأزرقى ١ أنه أول جبل خلقه الله عز وجل ،
وفيه استودع الحجر زمن ٢ الطوفان ، وكانت
قريش تسميه الأمين لأنه أدى الحجر الى
ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وفيه قبر آدم
صلوات الله عليه ، وهو أحد أخشبي مكة ،
والأخشب الثانى الجبل ٢ المتصل بقميقعان فى
الجهة الغربية ٣ .

صعدنا الى جبل أبى قيس المذكور ،
وصلينا فى المسجد المبارك ، وفيه موضع موقف
النبي صلى الله عليه وسلم ، عند انشقاق القمر
له بقدرة الله عز وجل . وناهيك بهذه الفضيلة
والبركة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ،
حتى الجمادات من مخلوقاته ، لا اله سواه .

وفى أعلاه آثار بناء حص مشيد كان اتخذ
معقلا أمير البلد عيسى أبو مكثر المذكور ،
فهدمه عليه أمير الحج العراقى لمخالفة صدرت
عنه ، فغادره خرابا .

وألقيت منقوشا على سارية خارج باب
الصفاء - تقابل السارية الواحدة من اللتين
أقيمتا علما لطريق النبي ، صلى الله عليه وسلم ،

الى الصفاء داخل الحرم المتقدم ذكر
« أمر عبد الله محمد الهدى أمير المؤمنين ،
أصلحه الله تعالى ، بتوسعه المسجد الحرام ٤
مما يلى باب الصفاء لتكون الكعبة فى وسط
المسجد ، فى سنة سبع وستين ومائة » . فدل
ذلك المكتوب على أن الكعبة المقدسة فى وسط
المسجد ، وكان يظن بها الانحراف الى جهة
باب الصفاء ، فاختبرنا جوانبها المباركة بالكيل ،
فوجدنا الأمر صحيحا حسبما تضمنه رسم
السارية .

وتحت ذلك النقش ، فى أسفل السارية ،
منقوش أيضا * : « أمر عبد الله (محمد)
المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بتوسعة
الباب الأوسط الذى بين هاتين الأسطواناتين ،
وهو طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
الى الصفاء » ، وفى أعلى السارية التى تليها
منقوش أيضا « أمر عبد الله محمد المهدى ١
أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بصرف الوادى
الى مجراه على عهد أبيه ٢ ابراهيم صلى
الله عليه وسلم ، وتوسعته بالرحاب ٣ التى حول
المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره » ،
وتحتها أيضا منقوش ما تحت الأول من ذكر
توسعة الباب الأوسط .

والوادى المذكور هو الوادى المنسوب
لابراهيم ، صلى الله عليه وسلم ، ومجراه على
باب الصفاء المذكور . وكان السيل قد خالف
مجراه ، فكان يأتى على المسيل بين الصفاء
والمروة ويدخل الحرم ، فكان ممتدة مده -
بالأمطار يطاف حول الكعبة سحبا . فأمر
المهدى ، رحمه الله ، برفع موضع فى أعلى

البلد يسمى رأس الردم ، فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم الى مجراه ، واستمر على باب ابراهيم الى الموضع الذى يسمى المسفلة ، ويخرج عن البلد ، ولا يجرى الماء فيه الا عند نزول ديم المطر الكثير . وهو الوادى الذى عنى صلى الله عليه وسلم بقوله - حيث حكى الله تبارك وتعالى عنه - « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع ؟ » . فسبحان من أبقى له الآيات البينات .

ذكر مكة ، شرفها الله تعالى ، وأثارها الكريمة وأخبارها الشريفة

هى بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال معدقة بها ، وهى بطن واد مقدس كبير * مستطيلة ، تسع من الخلائق ما لا يحصيه الا الله عز وجل ، ولها ثلاثة أبواب :

أولها « باب المعلى » : ومنه يخرج الى الجبانة المباركة ، وهى بالموضع الذى يعرف بالحجون ، وعن يسار المار اليها جبل فى أعلاه ثنية عليها علم شبيه ^١ البرج يخرج منها الى طريق ، العمرة ، وتلك الثنية تعرف بكداء ، وهى التى عنى حسان بقوله فى شعره ^١ : « تشير النقع موعدها كداء » .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح : « ادخلوا من حيث قال حسان » ، فدخلوا من تلك الثنية . وهذا الموضع الذى يعرف بالحجون هو الذى عناه الحارث بن مضاض الجرهمى ^٢ بقوله :

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالى والجدود العواثر

وبالجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين قد دثرت مشاهدهم المباركة ، وذهبت عن أهل البلد أسماءهم ، وفيه الموضع (الذى) صلب فيه الحجاج بن يوسف - جازاه الله - جثة عبد الله ابن الزبير رضى الله عنهما .

وعلى الموضع بقية علم ظاهر الى اليوم وكان عليه مبنى ^٢ مرتفع ، فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور .

وعن يمينك اذا استقبلت الجبانة المذكورة ، مسجد فى مسيل بين جبلين ، يقال انه المسجد الذى بايعت فيه الجن النبى ^٣ ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم .

وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف ، وطريق العراق ، والصعود الى عرفات . جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها - وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال ، وهو الى الشرق أميل .

ثم « باب المسفل » * ، وهو الى جهة الجنوب ، وعليه طريق اليمن ، ومنه كان دخول خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، يوم الفتح .

ثم « باب الزاهر » ^٤ : ويعرف أيضا بباب العمرة ، وهو غربى ، وعليه طريق مدينة

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وطريق الشام وطريق جدة ، ومنه يتوجه الى التنعيم ، وهو أقرب ميقات المعتمرين ، يخرج من الحرم اليه على باب العمرة ، ولذلك^١ أيضا يسمى هو بهذا الاسم .

والتنعيم من البلدة على فرسخ ، وهو طريق حسن فسيح ، فيه الآبار العذبة التي تسمى بالشبيكة . وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل ، تلقى مسجدا بازائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة ، يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم ، يقال انه الموضع الذي قعد فيه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، مستريحا عند مجيئه من العمرة ، فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود فيه - وحق ذلك لهم - ويستندون اليه لتنال أجسامهم بركة لسه .

ثم بعد هذا الموضع ، بمقدار غلوة ، تلقى على قارعة الطريق ، من جهة اليسار للمتوجه الى العمرة ، قبرين قد علتها أكوام من الصخر عظام ، يقال انهما قبر أبى لهب وامراته لعهما الله ، فما زال الناس في القديم الى هلم جرًا يتخذون سنة رجهما بالحجارة ، حتى علاهما من ذلك جبالان عظيمان ، ثم تسير منها بمقدار ميل ، وتلقى الزاهر^٢ ، وهو مبتنى على جانبى الطرق يحتوى على دار^٣ وبساتين ، والجميع ملك أحد المكيين^٤ .

وقد أحدث في المكان مظاهر وسقاية للمعتمرين ، وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الماء ، ومراكن ملووة للوضوء وهى القصارى الصغار ، وفى الموضع

بئر عذبة يملأ منها المظاهر المذكورة ، فيجدها المعتمرون فيها مرفقا كبيرا للظهور والوضوء والشرب ، فصاحبها على سبيل معمورة بالأجر والثواب ، وكثير من الناس المتأجرين^١ من يعينه على ما هو بسبيله ، وقيل ان له من ذلك فائدا كبيرا^٢ .

وعن جانبى الطريق فى هذا الموضع^٣ جبال أربعة : جبالان من هنا ، وجبالان من هنا ، عليها أغلام من الحجارة ، وذكر لنا أنها الجبال المباركة التي جعل ابراهيم ، عليه السلام ، عليها أجزاء الطر ثم دعاها - حسبما حكى الله عز وجل سؤاله اياه ، جل وعلا ، أن يريه كيف يحيى الموتى^٤ - وحول تلك الجبال الأربعة جبال غيرها ، وقيل ان التي جعل ابراهيم عليها الطير سبعة منها ، والله أعلم .

وعند اجازتك الزاهر^٥ المذكور ، تسر بالوادي ، المعروف بدى طوى ، الذى ذكر أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، نزل فيه عند دخول مكة . وكان ابن عمر ، رضى الله عنهما ، يغتسل فيه وحينئذ يدخلها ، وحوله آبار تعرف بالشبيكة ، وفيه مسجد يقال انه مسجد ابراهيم عليه السلام . فتأمل بركة هذا الطريق ، ومجبوب الآيات التي فيه ، والآبار المقدسة التي اكتنفتها .

وتحيز^٦ الوادى الى مضيق تخرج منه الى الأعلام التي وضعت حجاز بين الحبل والحرم ، فما داخلها الى مكة حرم ، وما خارجها حل ، وهى كالأبراج مصفوفة^٧ كبار وصغار واحد بازاء آخر على مقربة منه ، تأخذ من أعلى

الجبل الذي ^٨ يعترض عن يمين الطريق في التوجه الى العمرة ، وتشق الطريق الى أعلى الجبل عن يساره ، ومنه ^٩ ميقات المعتمرين ، وفيها مساجد مبنية بالحجارة يصلى المعتمرون فيها ويحرمون منها . ومسجد عائشة ، رضى الله عنها ، خارج هذه الأعلام بمقدار غلوتين ، واليه يصل المالكيون ، ومنه يحرمون . وأما الشافعيون فيحرمون من المساجد التي حول الأعلام المذكور وأمام ^١ مسجد عائشة ، رضى الله عنها ، مسجد ينسب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .

ومن عجيب ما عرض علينا بباب بنى شيبه المذكور عتب من الحجارة العظام ، طوال كأنها مصاطب ، صفت أمام الأبواب الثلاثة المنسوبة لبنى شيبه ، ذكر ^٢ لنا أنها الأصنام التي كانت قرينش تعيدها في جاهليتها — وكبيرها هبل بينها — قد كتبت على وجوهها تطأها الأقدام ، وتمتتها بأغلقتها العوام ، ولم تغن عن أنفسها — فصلا عن عابديها — شيئا ، فسبحان المنفرد بالوحدانية ، لا اله سواه . والصحيح في أمر تلك الحجارة أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أمر يوم فتح مكة بكسر الأصنام وإحراقها ، وهذا الذي نقل إلينا غير صحيح ، وإنما تلك التي على الباب حجارة منقولة ، وعينت القوم بتشييدها الى الأصنام لعظمها .

ومن جبال مكة المشهورة — بعد جبل أبى قبيس — « جبل حراء » ، وهو في الشرق ، على مقدار فرسخ أو نحوه ، مشرف على

منى ، وهو مرتفع في الهواء على القنة ^٣ . وهو جبل مبارك ، كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما ينتابه ويتعبد فيه ، واهتز تحته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم . « ولكن حراء » فما عليك الا بنى وصديق وشهيد ^٤ ، كان معه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ويروى « أثبت فما عليك الا بنى وصديق وشهيدان » وكان عثمان رضى الله عنه معهم . وأول آية نزلت من القرآن على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، نزلت ^٥ في الجبل المذكور ، وهو آخذ من الغرب الى الشمال ، ووراء طرفه الشمالى جبانة الحجون ^٦ التي تقدم ذكرها .

وسور مكة إنما كان من جهة الملى — وهو مدخل الى البلد ، ومن جهة المسفل ، وهو مدخل أيضا اليه ، ومن جهة باب * العمرة ، وسائر الجوانب — جبالا لا تحتاج معها الى سور ، وسورها اليوم منهدم الا آثاره الباقية وأبوابه القائمة .

ذكر بعض مشاهدتها العظيمة وآثارها المقدسة

مكة ، شرفها الله ، كلها مشهد كريم . كفاهها شرقا ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم ، وما سبق لها من دعوة الخليل ابراهيم ، وأنها حرم الله وأمنه ، وكفاهها أنها مشأ النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الذي آثره الله بالتسريف والتكريم ، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم . فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل ، وأول مهبط (الروح) الأمين جبريل ، وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الأكرمين ، وهي أيضا مسقط

وهو س جاعة من الصحابة القرشيين ،
المهاجرين الذين جعلهم الله مصاييح الدين ،
ونجوما للمهتدين .

فمن مشاهدها التي عاينها قبة الوحي ،
وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ،
وبها كان ابتناء النبي صلى الله عليه وسلم بها ،
وقبة ١ صغيرة أيضا في الدار المذكورة ، فيها
كان مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وفيها ٢
أيضا ولدت سيدتى شباب أهل الجنة الحسن
والحسين رضى الله عنهما . وهذه المواضع
المقدسة المذكورة مغلقة مصونة ، قد بنيت بناء
يليق بمثلها .

ومن مشاهدها الكريمة أيضا مولد النبي
صلى الله عليه وسلم ، والتربة الطاهرة التي هي
أول تربة مست جسمه الطاهر ، بنى عليه
مسجد لم ير أحفل بناء منه ، أكثره ذهب منزل
به . والموضع المقدس الذي سقط فيه صلى
الله عليه وسلم ساعة الولادة السعيدة المباركة ،
التي جعلها الله رحمة للأمة أجمعين ، محفوظ
بالفضة . فيالها تربة شرفها الله بأن جعلها
مسقط أطهر الأجسام ، ومولد خير الأنام
صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام
وسلم تسليما .

يفتح هذا الموضع المبارك ، فيدخله ٣ الناس
كافة متبركين به ، في شهر ربيع الأول
ويوم الاثنين منه ، لأنه كان شهر مولد
النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي اليوم المذكور
ولد صلى الله عليه وسلم ، وتفتح المواضع
المقدسة المذكورة كلها ، وهو يوم مشهور
بمكة دائما .

ومن مشاهدها الكريمة أيضا دار الخيزران ،
وهي الدار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم
يعبد الله فيها سرا ، مع الطائفة الكريمة المبادرة
للإسلام من أصحابه رضى الله عنهم ، حتى نشر
الله الإسلام منها على يدى الفاروق عمر بن
الخطاب رضى الله عنه ، وكفى بهذه الفضيلة .

ومن مشاهدها أيضا : دار أبي بكر الصديق
رضى الله عنه ، وهي اليوم دراسة الأثر ،
ويقابلها جدار فيه حجر مبارك بتبرك الناس
يلمسه ، يقال انه كان يسلم على النبي صلى
الله عليه وسلم متى اجتاز عليه . وذكر أنه جاء
يوما ، صلى الله عليه وسلم ، الى دار أبي بكر
رضى الله عنه ، فنادى به - ولم يكن
حاضرا - فأنطق الله عز وجل الحجر المذكور ،
وقال : يا رسول الله ليس بحاضر . وكانت من
أحدى آياته المعجزات صلى الله عليه وسلم .

ومن مشاهدها : قبة بين الصفا والمروة ،
تسبب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ٤ ، وفي
وسطها بئر يقال انه كان يجلس فيها للحكم
رضى الله عنه ، والصحيح في هذه القبة أنها
قبة حفيده ٥ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ،
وبازاء داره المنسوبة إليه ، وفيها كان يجلس
للحكم أيام توليه مكة ، كذلك حكى لنا أحد
أشياخنا الموثوقين . ويقال ان البشر كانت
في القديم فيها ، ولا بئر فيها الآن لأنها دخلناها
فألقيناها مسطحة ، وهي خفيلة الصنعة .

وكانت بقربة من الدار التي نزلنا فيها دار
جعفر بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، ذي
الجناحين . وبجهة السفلى - وهو آخر
البلد - مسجد منسوب لأبي بكر الصديق

رضى الله عنه ، يحف^٦ به بستان حسن ، فيه النخيل والرمان وشجر العناب ، وغينا فيه شجر الحناء ، وأمام المسجد بيت صغير فيه محراب ، يقال انه كان مختبأ له رضى الله عنه من المشركين الطالبين له .

وعلى مقربة من دار خديجة رضى الله عنها المذكورة ، وفي الزقاق الذى الدار المكرمة فيه ، مصطبة فيها متكأ يقصد الناس اليها ، ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها ، لأن فى موضعها كان موضع قعود النبی صلى الله عليه وسلم .

ومن الجبال التى فيها أثر كريم ومشهد عظيم : الجبل المعروف « بأبى ثور »^١ ، وهو فى الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد ، وفيه الغار الذى أوى اليه النبی صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضى الله عنه ، حسبما ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز^٢ . وقرأت فى كتاب « أخبار مكة » لأبى الوليد الأزرقى^٣ أن الجبل نادى النبی صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الیَّ یامحمد ، الیَّ یامحمد ، فقد آویت قبلك نبیا » .

وخص الله عز وجل نبيه فيه بآيات بينات : فمنها أنه ، صلى الله عليه وسلم ، دخل مع صاحبه على شق فيه ثلثا شبر وطوله ذراع ، فلما اطمأنا فيه ، أمر الله العنكبوت فأتخذت عليه بيتا ، والحمام^٤ فصنعت عليه عشا وفرخت ، فأتتهى المشرفون اليه بدليل قصاص للأثر ، مستاف أخلاق الطريق ، فوقف لهم على الغار وقال : وهنا انقطع الأثر ، فاما سعد

بصاحبكم من ههنا الى السماء أو غيض به فى الأرض . ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار ، والحمام مفرخة فيه ، فقالوا : ما دخل هنا أحد . فأخذوا فى الانصراف .

فقال الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله لو ولجوا علينا من فم الغار ما كنا نصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولو ولجوا علينا منه كنا نخرج من هناك » . وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر من الغار — ولم يكن فيه شق — فانفتح للحين فيه باب بقدرة الله عز وجل ، وهو سبحانه قدير على ما يشاء .

وأكثر الناس « يتأهبون هذا الغاز المبارك ، ويتجنبون دخوله من الباب الذى أحدث الله عز وجل فيه ، ويرومون دخوله من الشق الذى دخل النبی — صلى الله عليه وسلم — تبركا به . فيمتد المحاول لذلك على الأرض ، ويسط خده بازاء الشق ، ويولج يديه ورأسه أولا ، ثم يعالج ادخال سائر جسده : فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضاة بدنه ، ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضه ، فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر ، فينشب ويلاقى مشقة وصعوبة ، حتى يتناول بالجذب العنيف من ورائه .

فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب ، ولا سيما ويتصل به سبب آخر مخجل فاضح ، وذلك أن عوام الناس يزعمون أن الذى لا يسع عليه ، ويتمسك فيه ولا يلج به ، ليس لرشدة . جرى هذا الخبر على ألسنتهم

والنساء قد وقفن خارج الحجر ينظرن
بعيون دوامع وقلوب خواشع ، يتنين ذلك
الموقف لو ظفروا به ، وكان بعض الحجاج
المتأجرين^١ المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء
المبارك ، ويخرج اليهن ويعصره في أيدي
البعض منهن ، فتلقينه شربا ومسحا على
الوجوه والأبدان .

وتمادت تلك السحابة المباركة الى قريب
المغرب ، وتمادى الناس — على تلك الحال
من الازدحام — على تلقى ماء الميزاب بالأيدي
والوجوه والأفواه ، وربما رفعوا الأواني ليقع
فيها ، فكانت عشية عظيمة استشعرت النفوس
فيها الفوز بالرحمة ثقة بفضلته وكرمه ، ولما
اقترن بها من القرائن المباركة .

فمنها أنها كانت عشية الجمعة ، وفضل
اليوم فضله ، والدعاء فيها يرجى من الله تعالى
قبوله ، لما ورد فيها من الأثر الصحيح وأبواب
السماء تفتح عند نزول المطر ، وقد وقف
الناس تحت الميزاب ، وهو من المواضع التي
يستجاب فيها الدعاء ، وظهرت أبدانهم رحمة
الله النازلة من سمائه الى سطح بيته العتيق
الذي هو حيال البيت المعمور ، وكفى بهذا
المجتمع الكريم والمنتظم الشريف ، جعلنا الله
منهم طهر فيه من أرجاس الذنوب ، واختص
من رحمة الله تعالى بذنوب ، ورحمته واسعة
تسع عباده المذنبين ، انه غفور رحيم .

وذكروا أن الامام أبا حامد الغزالي دعا الله
عز وجل بدعوات ، وهو في حرمة الكريم ،
في رغبات رفعها الى الله جل وتعالى ، فأعطى

حتى عاد عندهم قطعاً على صحته لا يشكون .
فبحسب المنتشب فيه ، المتعذر ولوجه عليه ،
ما يكسوه هذا الظن الفاضح المخجل ، زائدا
الى ما يكابده بدنه من اللز في ذلك المضيق ،
واشرافه منه على المنية توجعا واقطاع نفس
وبرح ألم . فالبعض من الناس يقولون في
مثّل : « ليس يصعد جبل أبي ثور الا ثور » .

وعلى مقربة من هذا الفار ، في الجبل
بمينه ، عمود منقطع من الجبل قد قام شبه
الذراع المرتفعة بمقدار نصف القامة^١ ،
وانسط له في أعلاه شبه الكف خارجا عن
الذراع ، كأنه القبة المبسوطة ، بقدرة الله عز
وجل ، يستظل تحتها^٢ نحو العشرين رجلا ،
وتسمى قبة جبريل صلى الله عليه وسلم .

ومما يجب أن يثبت ويؤثر ، لبركة معانيته
وفضل مشاهدته ، أن في يوم الجمعة التاسع
عشر من جمادى الأولى — وهو التاسع من
شتمر — أنشأ الله بحرية ، فتشاءمت فانهلت
عيننا غديقة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وذلك اثر صلاة العصر . ، ومع العشى
من اليوم المذكور ، فجاءت بمطر جود .

وتبادر الناس الى الحر ، فوقفوا تحت
الميزاب المبارك متجردين عن ثيابهم يتلقون الماء
الذي يصبه الميزاب برؤوسهم أيديهم
وأفواههم ، مزدحمين عليه ازدحاما عظيما
أحدث ضوضاء عظيمة ، كل يحرص على أن
ينال جسده من رحمة الله نصيبا ، ردعاؤهم قد
علا ، ودموع أهل الخشوع منهم تسيل ، فلا
تسمع الا ضجيج دعاء أو نحيب بكاء .

بعضاً ومنع بعضاً ، وكان مما منع نزول المطر وقت مقامه بمكة ، وكان تمنى أن يغتسل به تحت الميزاب ، ويدعو الله عز وجل عند بيته الكريم في الساعة التي أبواب سمائه فيها مفتوحة ، فمنع ذلك وأجيب دعائه في سائر ما سأل ، فله الحمد وله الشكر على ما أنعم به علينا . ولعل عبداً من عباده الصالحين ، الوافدين على بيته الكريم ، خصه الله بهذه الكرامة ، فدخلنا جميع المذنبين في شفاعته . والله يتفمنا بدعاء المخلصين من عباده ، ولا يجعلنا ممن شقى بدعائه ، إله منعم كبير .

ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولاهلها الدعوة الخيلية الابراهيمية ، وذلك أن الله عز وجل يقول حاكياً عن خليله صلى الله عليه وسلم : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا »^٢ ، وقال عز وجل : « أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء »^٣ .

فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل الى يوم القيامة ، وذلك أن أفئدة الناس تهوى إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة^٤ ، فالطريق إليها ملقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة ، والثمرات تجبى إليها من كل مكان ، فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر .

ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب ، فيباع فيها في يوم واحد — فضلاً عما يتبعه من الذخائر

النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار ، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية ، الى غير ذلك من جلب الهند والحشة ، الى الأمتعة العراقية واليمانية ، الى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية الى ما لا يحصر ولا ينضب — ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق * النافقة ، ولعم جبيهما بالمنفعة التجارية^١ .

كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها — مع طول الأيام^٢ — من اليمن وسواها ، فما على الأرض سلعة من السلع ، ولا ذخيرة من الذخائر ، إلا وهى موجودة فيها مدة الموسم ، فهذه بركة لا خفاء بها ، وآية من آياتها التي خصها الله بها .

وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات ، فكننا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد ، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة ، فألفيناها تفص بالنعم والفواكه : كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار ، الى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرب الى سائرها ، الى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة .

وأكثر هذه البقول — كالباذنجان والقثاء والبطيخ — لا يكاد ينقطع مع طول العام ، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداداه وذكره ، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة

موجودة فى خاصة الذوق يفضل بها نوعها
الموجود فى سائر البلاد ، فالعجب من ذلك
يطول .

ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ
والسفرجل ، وكل فواكهها عجب ، لكن للبطيخ
فيها خاصة من الفضل عجيبه ، وذلك لأن
رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ، يدخل به
الداخل عليك ، فتجد رائحته العبة قد سبقت
إليك ، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه
عن أكلك إياه ، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه
شيب بسكر مذاق ، أو بجنى النحل اللباب ،
ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن فى
الوصف بعض غلو ، كلا — لعمر الله — انه
لأكثر مما وصفت وفوق ما قلت .

وبها غسل أطيب من الماذى المضروب به
المثل ، يعرف عندهم بالمسعودى ، وأنواع اللبن
بها فى نهاية من الطيب ، وكل ما يصنع ^٢ *
منها من السمن ، فانه لا تكاد تميزه من العسل
طيبا ولذاذة . ويجلب اليها قوم من اليمن
— يعرفون بالسرو ^١ — نوعا من الزبيب
الأسود والأحمر فى نهاية الطيب ، ويحبسون
معه من اللوز كثيرا . وبها قصب السكر أيضا
كثير ، يجلب من حيث تجلب البقول التى
ذكرناها ، والسكر بها كثير محبوب ، وسائر
النعم والطيبات من الرزق والحمد لله

وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من
العسل والسكر العقود على صفات شتى ، انهم
يصنعون ^٢ بها حكايات جميع الفواكه الرطبة
واليابسة ، وفى الأشهر الثلاثة رجب وشعبان

ورمضان يتصل منها أسطة بين الصفا
والمروة ، ولم يشاهد أحد أكمل منظرا منها ،
لا بمصر ولا بسواها ، قد صورت منها
تساوير انسانية وفاكية ، وجلت فى منصات
كأنها العرائس ، ونضدت بسائر أنواعها
المنضدة الملونة ، فتلوح كأنها الأزاهر حسنا ،
فتقيد الأبصار ، وتستنزل الدرهم والدينار .

وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب .
قد وقع القمطع من كل من تطوف على الآفاق ،
وضرب نواحي الأفطار ، أنها أطيب لحم يؤكل
فى الدنيا ، وما ذاك — والله أعلم — الا لبركة
مراعيها ، هذا على افراط سمه ، ولو كان
سواه من لحوم البلاد ينتهى ذلك المنتهى فى
السمن للفظته الأفواه ودكا ^٢ ، ولعاقته
وتجنبته ، والأمر فى هذا بالضد ، كلما ازداد
سمنا زادت النفوس فيه رغبة والنفس له
قبولا ، فتجده هنيئا رخصا بذوب فى الفهم
قبل أن يلاك مضغا ، ويسرع لخفته عن المعدة
انهضاما .

وما أرى ذلك الا من الخواص الغريبة ،
وبركة البلد الأمين قد تكفلت بعبئه لا شك
فيه ، والخبر عنه يضيق عن الخبر له . والله
يجعل فيه رزقا لمن تشوق ببلده الحرام ،
وتمنى ^١ هذه المشاهد العظام والمناسك *
الكرام ، بعزته وقدرته .

وهذه الفواكه تجلب اليها من الطائف
— وهى على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق
والثؤدة — ومن قرى حولها . وأقرب هذه
المواضع يعرف با ^١ هو من مكة على

مسيرة يوم أو أزيد قليلا ، وهو من بطن الطائف ، ويحتوى على قرى كثيرة ، ومن بطن مر ، وهو على مسيرة يوم أو أقل ، ومن نخلة وهى على مثل هذه المسافة ، ومن أودية بقرب من البلد — كعين سليمان وسواها — قد جلب الله اليها من المغاربة ذوى البصارة بالفلاحة والزراعة ، فأحدثوا فيها بنسائين ومزارع ، فكافوا أحد الأسباب فى خصب هذه الجهات ، وذلك بفضل الله عز وجل ، وكريم امتنائه بحرمه الكريم وبلده الأمين .

ومن أغرب ما ألقيناه فاستمتعنا بأكله ، وأجرينا الحديث باستطابته — ولا سيما لكوننا لم نعهده — الرطب ، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجره يعجن ويؤكل ، وهو فى نهاية من الطيب واللذابة لا يسأم التفكه به ، وإبانه عندهم عظيم ، يخرج الناس اليه كخروجهم الى الضيعة ، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك ، عند تناهى نضجه ، ييسط على الأرض قدر ما يجف قليلا ، ثم يركم بعضه على بعض فى السلال والظروف ويرفع .

ومن صنع الله الجميل لنا ، وفضله العيم علينا ، أنا وصلنا الى هذه البلدة المكرمة ، فألقينا كل من بها من الحجاج المجاورين ، ممن قدم عهده فيها وطال مقامه بها ، يتحدث على جهة العجب بآمنها من الحرابة المتلصصين فيها على الحاج ، المختلسين ما بأيديهم ، والذين كانوا آفة الحرم الشريف ، لا يفعل أحد عن متاعه طرفة عين ، الا اختلس من يديه أو من وسطه ، بحيل عجيبة ولطافة غريبة ، فما منهم

الا أخذ يد^٢ القميص ، فكفى الله فى هذا العام شرهم الا القليل ، وأظهر أمير البلد التشديد عليهم ، فتوقف شرهم ، وبطيب هوائها فى هذا العام ، وفتور حمارة قيظها المعهود فيها ، وانكسار حدة سيومها . وكنا نبيت فى سطح الموضع الذى كنا نسكنه ، فربما يصيبنا من يرد هواء الليل ما نحتاج معه الى دثار يقينا^٢ منه ، وذلك أمر مستغرب بمكة .

وكانوا أيضا يتحدثون بكثرة نعمها فى هذا العام ، ولين سعرها ، وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم . كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمنى — وهى أوبتان من كيل مصر وجهاتها ، والأوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربى — وهذا السعر فى بلد لا ضيعة فيه ، ولا قوام معيشة لأعله الا بالميرة المجلوبة اليه ، سعر لاخفاء يمينه^٢ وبركته ، على كثرة المجاورين فيها فى هذا العام ، وانجلاب الناس اليها وترادفهم عليها . فحدثنا غير واحد من المجاورين ، الذين لهم بها سنون طائلة ، أنهم لم يروا هذا الجمع بها قط ، ولا سمع بمثله فيها ، والله يجعله جمعا مرحوما معصوما بئنه

وما زال الناس فيها يسلسلون أوصاف أحوالها فى هذه السنة ، وتمييزها عما سلف من السنين ، حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن قبل بصادقها . وهذا الماء المبارك فى أمره عجب ، وذلك أنك تشربه عن خروجه من قراراته ، فتجده فى حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع

دفيئا ، وتلك فيه من الله تعالى آية وعناية ، وبركته أشهر من أن يحتاج لوصف واصف ، وهو لما شرب له ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، أروى الله منه كل ظمى ، إليه بعزته وكرمه .

ومن الأمور المجربة في هذا الماء المبارك ، أن الإنسان * ربما وجد مس الاعياء وفتور الأعضاء ، اما من كثرة الطواف أو من عبدة يعتمرها على قدميه ، أو من غير ذلك من الأسباب المؤدية الى تعب البدن ، فيصب من ذلك الماء على بدنه ، فيجد الراحة والنشاط لحينه ، ويذهب عنه ما كان أصابه .

شهر جمادى الآخرة عرفنا الله بعنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء — وهو الحادى والعشرون من شهر شتبر العجمى — ونحن بالحرم المقدس ، زاده الله تعظيما وتشريفا . وفى صيحة الليلة المذكورة ، وافى الأمير مكثر بأتباعه وأشياعه على العادة السالفة المذكورة فى الشهر الأول ، وعلى ذلك الرسم بعينه ، والزمنى المغرد بثنائه ^١ والدعاء له فوق قبة زمزم يرفع ^٢ عقيرته بالدعاء والثناء عند كل شوط يطوفه الأمير ، والقراء أمامه ، الى أن فرغ من طوافه ، وأخذ فى طريق انصرافه .

ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة ، عند مستهل كل شهر من شهور العام ، يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضا ، ويتغافرون ، ويدعو بعضهم لبعض كفعالهم فى الأعياد ،

هكذا دائما . وتلك طريقة من الخير واقعة فى النفوس ، تجدد الاخلاص ، وتستمد الرحمة من الله عز وجل بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضا ، وبركة ما يتهادونه من الدعاء . والجماعة رحمة ، ودعاؤهم من الله بمكان .

ولهذه البلدة المباركة حمامان : أحدهما ينسب للمفقيه المياثنى ^٣ أحد الأسيخ المحققين بالحرم المكرم ، والثانى — وهو الأكبر — ينسب لجمال الدين ^٤ . وكان هذا الرجل ، كصفته جمال الدين * ، له رحمه الله بمكة والمدينة — شرفهما الله — من الآثار الكريمة ، والصنائع الحميدة ، والمصانع المبنية فى ذات الله المشيدة ، ما لم يسبقه أحد اليه فيما سلف من الزمان ، ولا أكابر الخلفاء فضلا عن الوزراء .

وكان — رحمه الله — وزير صاحب الموصل ، تنادى على هذه المقاصد السنية ، المشتملة على المنافع العامة للمسلمين فى حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، أكثر من خمس عشرة ^١ سنة ، لم يزل فيها باذلا أموالا لا تحصى فى بناء رباغ بمكة ، مسبلة فى طريق الخير والبر مؤبدة محبسة ، واختطاط صهاريج للماء ، ووضع جباب فى الطرق يستقر فيها ماء المطر ، الى تجديد آثار من البناء فى الحرمين الكريمين .

وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء الى غرفات ، وقاطع عليه العرب بنى شعبة ، سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء ، بوظيفة من المال كبيرة ، على أن لا يقطعوا الماء عن الحاج .

وسنذكر تاريخ وفاته اذا وقفنا عليه من التاريخ
الثابت فى روضته ، ان شاء الله عز وجل ،
وهو ولى التيسير لا رب غيره .

ولهذا الرجل — رحمه الله — من الآثار
السنية ، والمفاخر العلية ، التى لم يسبقه اليها
أكابر الأجواد وسراة الأمجاد ، فيما سلف من
الزمان ، ما يفوت الاحصاء ، ويستغرق الثناء ،
ويستصحب طول الأيام من الألسنة بالدعاء .
وحسبك أنه اتسع اعتناؤه باصلاح عامة طرق
المسلمين بجهة المشرق ، من العراق الى الشام
الى الحجاز حسبما نذكره ، واستبسط المياه ،
وبنى الجباب ، واختط المنازل فى المفاخرات ،
وأمر بعمارها مأوى لأبناء السبيل وكافة
المسافرين ، وابتنى بالمدن المتصلة من العراق
الى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء أبناء
السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية ،
وأجرى على قومة تلك الفنادق والمنازل ما يقوم
بمعيشتهم ، وعين لهم ذلك فى وجوه تأبدت
لهم ، فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على
حالتها الى الآن ، فسارت بجميل ذكر هذا
الرجل الرفاق ، وملئت ثناء عليه الآفاق .

وكان مدة حياته بالموصل ، على ما أخبرنا
به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن
شاهد ذلك ، قد اتخذ دار كرامة واسعة الفناء
فسيحة الأرجاء ، يدعو اليها كل يوم الجفلى
من الغرباء ، فيعهم شبما وريا ، ويرد
الصادر والوارد من أبناء السبيل فى ظله عيشا
هنيئا ، لم يزل على ذلك مدة حياته رحمه
الله . فبقيت آثاره مخلدة ، وأخباره بالسنة

فلما توفى الرجل — رحمه الله عليه — عادوا
الى عادتهم الذميمة من قطعه . ومن سفاخره
ومناقبه أيضا ، أنه جعل مدينة الرسول ، صلى
الله عليه وسلم ، تحت سورين عتيقين ، أنفق
فيهما أموالا لا تحصى كثرة .

ومن أعجب ماوقفه الله تعالى اليه ، أنه جدد
أبواب الحرم كلها ، وجدد باب الكعبة المقدسة
وغشاه فضة مذهبة — وهو الذى فيها الآن
حسبما تقدم وصفه — وجلال العتبة المباركة
بلوح ذهب ابريز — وقد تقدم ذكره أيضا —
فأخذ الباب القديم ، وأمر بأن يصنع له منه
تابوت يدفن فيه . فلما حانت وفاته أوصى بأن
يوضع فى ذلك التابوت المبارك ، ويحج به
ميثا .

فسيق الى عرفات ، ووقف به على بعد ،
وكشف عن التابوت ، فلما أفاض الناس أفيض
به ، وقضيت له المناسك كلها ، وطيف به طواف
الافاضة — وكان الرجل رحمه الله لم يحج
فى حياته — ثم حمل الى مدينة الرسول صلى
الله عليه وسلم — وله فيها من الآثار الكريمة
ما قدمنا ذكره — وكاد أشرافها يحملونه
رؤوسهم .

وبنيت له روضة بازاء روضة المصطفى صلى
الله عليه وسلم ، وفتح فيها موضع يلاحظ
الروضة المقدسة ، وأيىح له ذلك — على شدة
الضمانة بمثله — لسابق أفعاله الكريمة ، ودفن
فى تلك الروضة ، وأسعده الله بالجوار
الكريم ، وخصه بالموارة فى تربة القديس
والتعظيم ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

الذكر مجددة ، وقضى حميدا سعيدا . والذكر
الجميل للسعداء حياة باقية ، ومدة من العمر
ثانية ، والله الكفيل بجزاء المحسنين الى عباده ،
فهو أكرم الكرماء ، وأكمل الكفلاء .

ومن الأمور المحظورة بهذا الحرم الشريف
— زاده الله تعظيما وتكريما — أن النفقة فيه
ممنوعة ، لا يجد المتأجر من ذوى اليسار إليها
سيلا ، فى تجديد بناء ، أو اقامة حطيم ، أو
غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك . ولو كان
الأمر مباحا فى ذلك ، لجعل الراغبون فى ثنقات
البر ، من أهل الجدة ، حيطانه عسجدا وترابه
عنبرا ، لكنهم لا يجدون السبيل الى ذلك .

فتمنى ذهب أحد أرباب الدنيا الى تجديد أثر
من آثاره ، أو اقامة رسم كريم من رسومه ،
أخذ اذن الخليفة فى ذلك ، فان كان منا ينقش
عليه أو يرسم فيه ، طرز باسم الخليفة وتقود
أمره بعمله ، ولم يذكر اسم المتولى لذلك .
ولا بد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة
لأمير البلد ، ربما يوازى قدر المنفوق فيه ،
فتتضاعف المؤنة على صاحبه ، وحينئذ يصل
الى غرضه من ذلك .

ومن أغرب ما اتفق لأحد نهاة الأعاجم ،
دوى الملك والثراء ، أنه وصل الى الحرم
الكريم ، مدة جد هذا الأمير مكثرا ، فرأى
تنور بشر زمزم وقبتها على صفة لم يرضاها ،
فاجتمع بالأمير وقال : أريد أن أتأق فى بناء
تنور زمزم وطيه وتجديد قبته ، وأبلغ فى ذلك
الغاية الممكنة ، وأتفق فيه من مسيم مالى ،
ولك على فى ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك
غرض المقصود ، وهو أن تجعل ثقه من قبلك

يقيد مبلغ النفقة فى ذلك ، فإذا استوفى البناء
التمام ، وانتهت النفقة منتهاها ، وتحصلت
محاصة ، بذلت لك مثلها جزاء على إباحتك لى
ذلك .

فاهتز الأمير طمعا ، وعلم أن النفقة فى ذلك
تنتهى الى آلاف من الدنانير * على الصفة التى
وصفها له ، فأباح له ذلك ، وألزمه مقيدا يحصى
قليل الاتفاق وكثيره . وشرع الرجل فى بنائه ،
واحتفل ، واستفرغ الوسع ، وتأق وبذل
المجهود — فعمل من يقصد بفعله ذات الله عز
وجل ويقرضه قرضا حسنا ^١ — والمقيد يسود
طواميره بالتقييد ، والأمير يتطلع الى ما لديه ،
ويؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط
يديه ، الى أن فرغ البناء على الصفة التى تقدم
ذكرها أولا عند ذكر بشر زمزم وقبته .

فلما لم يبق الا أن يصبح صاحب النفقة
بالحساب ، ويستقضى منه السدد المجتمع ^٢
فيها ، خلا منه المكان وأصبح فى خبر كان ،
وركب الليل جملا ، وأصبح الأمير بقلب كفيه ،
ويضرب أصدريه ولم يمكنه أن يحدث فى بناء
وضع فى حزم الله تعالى حادثا يحيله ، أو قضا
يزيله . وفاز الرجل بشوابه ، وتكفل الله به فى
انقلابه ، وتحسين مآبه « وما أفقتم من شئ
فهو يخلفه وهو خير الرازقين » . وبقي خبر
هذا الرجل مع الأمير يتهادى غرابة وعجبا
ويدعوا له كل شارب من ذلك الماء المبارك .

شهر رجب الفرد عرفنا الله ببركته

استهل هلاله ليلة الخميس ، الموافق عشرين
شهر أكتوبر ، بشهادة خلق كثير من الحجاج

المجاورين والأشراف أهل مكة ، ذكروا أنهم رأوه بطريق العمرة ومن جبل قيعان وجبل أبي قيس ، فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير والقاضى ، وأما من المسجد الحرام فلم يصره أحد .

وهذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة ، وهو أكبر أعيادهم ، ولم يزالوا على ذلك قديما وحديثا ، يتوارثه خلف عن سلف متصلا ، ميراث ذلك الى الجاهلية ، لأنهم كانوا يسمونه متصل السنة ، وهو أحد الأشهر الحرم ، وكانوا يحرمون القتال فيه ، وهو شهر الله الأصم كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والعمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة المرفية ، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذى لم يسمع بشئله ، ويبادر اليها أهل الجهات المتصلة بها ، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز وجل ، فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابة وعجبا ، شاهدنا من ذلك أمرا يعجز الوصف عنه . والمقصود منه الليلة التى يستهل فيها الهلال مع صبيحتها ^١ ، ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام ، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار .

وذلك لأننا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الأربعاء — وهى العشية التى ارتقب فيها الهلال — قد امتلأت هودج مشدودة على الابل ، مكسوة بأنواع كساء الحرير ، وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة ، بحسب سعة أحوال

أربابها ووفرهم ^٢ ، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته ، فأخذوا فى الخروج الى التعميم ميقات المعتمرين ، فسالت تلك ^٣ الهودج فى أباطح مكة وشعابها ، والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين ، وأشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره .

وربما فاضت الأستار التى على الهودج حتى تسحب أذيالها على الأرض . ومن أغرب ما شاهدنا من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليته عمه الأمير مكثرا ، فإن أذيال ستره كانت تسحب على الأرض السحابا ، وغيره من هودج حرم الأمير وحرم قواده ، الى غير ذلك من هودج لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الاحصاء ، فكانت تلوح على ظهور الابل كالأبواب المضروبة فيخيل للناظر اليها أنها محلة قد ضربت أبينتها من كل لون رائع .

ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة الا من خرج للعمرة من أهلها ، ومن المجاورين . وكنا فى جملة من خرج — ابتغاء بركة الليلة العظيمة — فكدنا لا نتخلص الى مسجد عائشة من الزحام ، وانسداد ثنيات الطريق بالهودج ، والنيران قد أشملت بحافتى الطريق كله ، والشع يتقد بين أيدي الابل التى عليها هودج من يشار اليه ^١ من عقائل نساء مكة .

فلما قضينا العمرة وطفنا ، وجئنا للسعى بين الصفا والمروة — وقد مضى هده من الليل — أبصرناه كله شرجا ونيرانا ، وقد غص بالساعين والساعيات على هوداجهن ، فكنا لا نتخلص الا بين هوداجهن وبين قوائم الابل ،

لكثرة الزحام ، واصطكاك الهوادج بعضها على بعض

فعاينا ليلة هي أغرب ليالى الدنيا فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجايب يحدث به ولا عجايب يذكره مرأى الحشر يوم القيامة ، لكثرة الخلائق فيه محرمين ملين ، داعين الى الله عز وجل ضارعين ، والجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيهم بصداها ، حتى سكنت المسامع ، وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع ، وذابت القلوب الخواشع . وفي تلك الليلة ملئ المسجد الحرام كله سرجا ، فتلاأ نورا ، وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير ، أمر بضرب الطبول والديابب والبوقات اشعارا بأنها ليلة الموسم .

فلما كانت صبيحة ليلة الخميس ، خرج الى العمرة في احتفال لم يسمع بمثله ، انحشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم ، فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة حارة ، شاكين في الأسلحة فرسانا ورجالة ، فاجتمع منهم عند لا يحصى كثرة ، يتعجب المعانين لهم لوفور عددهم ، ففؤ أنهم من بلاد حجة لكانوا عجايب ، فكيف وهم من بلد واحد . وهذا أدل الدلائل على بركة البلد .

فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب : * قالفرسان منهم يخرجون بخيولهم ويلعبون بالأسلحة عليها ، والرجالة يتنواثون ويتناقضون بالأسلحة في أيديهم حرايا وسيوفا وحجا ، وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض ، والتضارب بالسيوف ، والمدافعة بالحجف التي

يستجنون بها ، وأظهروا من الحذق بالتفاف كل أمر مستغرب . وكانوا يرمون بالحرايا الى الهواء ، ويبادرون اليها لقفا بأيديهم ، وهي قد تصوبت أستها على رؤوسهم ، وهم في زحام لا يمكن فيه المجال ، وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء ، فثبثونها قبضا على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم

الى أن خرج الأمير يزحف بين قواده ، وأبناءؤه أمامه وقد قاربوا من الشباب ، والرايات تغشق أمامه ، والتابول والديابب بين يديه ، والسكينة تفيض عليه ، وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظاره من جميع المجاورين .

فلما اتى الى المقات وقضى غرضه ، أخذ من الرجوع ، وقد ترتب العسكران بين يديه على أعينهم وسرحهم ، والرجالة على الصفة المذكورة من التجاول ، وقد ركب جملة من أعراب البوادي نجبا صعبا لم ير أجمل منظرا منها ، وركابها يسابقون الخيل بها بين يدي الأمير ، راقعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه ، الى أن وصل المسجد الحرام ، فطاق بالكعبة والقراء أمامه ، والمؤذن الزمزم يردد في سطح قبة زمزم رافعا عقيرته تنهتته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة

فلما فرغ من الطواف صلى عند المنبر ، ثم جاء الى المقام صلى خلفه - وقد أخرج له من الكنية ، ووصح في قبته الخشبية التي صلى خلفها - فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام ، فاستلمه وتمسح به ، ثم أعيدت القبة عليه ، وأخذ في الخروج على باب الصفا

الى المسمى ، وانجفل بين يديه ، فسعى راكبا والقواد مطيفون به ، والرجالة الحراية أمامه . فلما فرغ من السعى استلت السبوف أمامه ، وأحدثت الأشياح به ، وتوجه الى منزله على هذه الحالة الهائلة مزحوظا به ، وبقي المسمى يومه ذلك يموج بالساعين والساعات .

فلما كان اليوم الثانى — وهو يوم الجمعة — كان طريق العمرة فى العمارة قريبا من أمسه ، راكبين وماشين رجالا ونساء ، والنساء الماشيات المتأجرات كثير ١ يسابقن الرجال فى تلك السيل المباركة ، تقبّل الله من جميعهم بمنه . وفى أثناء ذلك يلاقى الرجال بعضهم بعضا ، فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم ، والنساء كذلك ، والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد .

وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم ، له يعبون وله يحتفلون ، وفى المباهاة فيه يتنافسون ، وله يعظمون ، وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم ، يقدمون النظر فى ذلك والاستعداد له بأشهر .

ومن لطيف صنع الله عز وجل لهم فيه ، اعتناء كريم منه سبحانه بحرمه الأمين ، أن قبائل من اليمن تعرف بالسرو — وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة ، كأنها مضافة لسراة الرجال على ما أخبرنى به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبى الصيف ، فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم ، وهم قبائل شتى كجيلة وسواها — يستعدون

للوصول الى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام ، فيجمعون بين النية فى العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة ، كالحنطة وسائر الحبوب الى اللوباء الى ما دونها ، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز ، فتجتمع ميرتهم بين الطعام والأدام والفاكهة ، ويصلون فى آلاف من العدد رجالا وجمالا موقرة بجميع ما ذكر ، فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه : يتقوتون ويدخرون ، وترخص الأسعار وتعم المرافق ، فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم الى ميرة أخرى ، ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة فى شظف من العيش .

ومن العجب فى أمر هؤلاء المأثرين ، أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم ، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل ، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك ، مع الأتعة والملاحف المتان ١ وما أشبه ذلك مما يلبس الأعراب ، ويبيعونهم به ويشارونهم ٢ .

ويذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجذب ، ويقع الموتان فى مواشيهم وأنعامهم ، وبوصلاتهم بها تخلص بلادهم ، وتقع البركة فى أموالهم ، فتنى قرب الوقت ، ووقعت منهم بعض غفلة فى التأهب للخروج ، اجتمع نساؤهم فأخرجتهم ، وكل هذا لطف من الله تعالى لحرمة البلد الأمين .

وبلادهم على ما ذكر لنا خصيبة متسعة ، كثيرة التين والعنب ، واسعة المحرث ، وافرة الغلات وقد اعتقدوا اعتقادا صحيحا أن

البركة كلها فى هذه الميرة التى يجلبونها ، فهم من ذلك فى تجارة رابحة مع الله عز وجل .

والقوم عرب صرخاء فصحاء ، جفاة أصحاء ، لم تغذهم الرقة الحضرية ، ولا هذبهم السير المدنية ، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية . فلا تعبد لديهم من أعمال المصادات سوى صدق النية ، فهم اذا طافوا بالكمة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة ، لائذن بجوارها ، متعلقين بأستارها ، فحيث ما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها ، وانكبابهم عليها . وفى أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب ، وتتفحصر لها الأعين الجوامد فتصوب ، فترى الناس حولهم باسطى أيديهم ، مؤمنين على أديعيتهم ، متلقنين لها من ألسنتهم .

على أنهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف ، ولا يوجد سبل الى استلام الحجر ، واذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام ، فتراهم فى محاولة دخولهم يتسلسلون ، كأنهم بعض ببعض مرتبطون ، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون الى أزيد من ذلك ، والسلاسل منهم تمتع بعضهم بعضا ، وربما انفصلت بواحد منهم يسيل عن المطلق المبارك الى البيت الكريم ، فيقع الكل لوقوعه ، فيشاهد الناظر لذلك مראى يؤدى الى الضحك .

وأما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الأعراب أغرف منها ، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم ، فيسجدون دون ركوع ،

وينقرون بالسجود تقرا ، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا ، وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يمينا وشمالا التفتات المروع ، ثم يسلمون ، أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد . وربما تكلموا فى أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده الى صاحبه ، وصاح به ووصاه بما شاء ، ثم عاد الى سجوده ، الى غير ذلك من أحوالهم الغريبة ، ولا ملبس لهم سوى أزرق وسخة ، أو جلود يستترون بها .

وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة ، لهم القسى العربية الكبار كأنها قسى القطانين لا تفارقهم فى أسفارهم ، فمتى رحلوا الى الزيارة هاب أعراب الطريق ، المسكون للحاج ، مقدمهم ، وتجنبوا اعتراضهم ، وخلوا لهم عن الطريق ، ويصحبهم الحجاج الزائرون ، فيحمدون صحبتهم . وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للإيمان صحيح .

وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكرهم ، وأثنى عليهم خيرا ، وقال : « علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء » ، وكفى بأن دخلوا فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم « الايمان يمان » الى عبر ذلك من الأحاديث الواردة فى اليمن وأهله . وذكر أن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، كان يحترم وقت طوافهم ، ويتحرى الدخول فى جبلتهم تبركا بأديعيتهم ، فشأنهم عجيب كله .

وشاهدنا منهم صبيا فى الحجر ، قد جلس الى أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب وسورة * الاخلاص ^١ ، فكان يقول له : قل هو الله أحد ، فيقول الصبي : الله أحد ، فيعيد عليه المعلم ، فيقول له : ألم تأمرنى بأن أقول هو الله أحد ؟ قد قلت ، فكابد فى تلقينه مشقة ، وبعد لأى ما علفت بلسانه .

وكان يقول له : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، فيقول الصبي : بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله ، فيعيد عليه المعلم ، ويقول له : لا تقل والحمد لله انما قل الحمد لله ، فيقول الصبي : اذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم أقول والحمد لله للاتصال ، واذا لم أقل بسم الله وبدأت قلت الحمد لله . فمجبنا من أمره ومن معرفته طبعاً بصلة الكلام وفصله ^٢ دون تعلم ، وأما فصاحتهم فبديعة جدا ، ودعاؤهم كثير التشخيص للنفوس ، والله يصلح أحوالهم وأحوال جميع عباديه بمنه .

والعمرة فى هذا الشهر كله متصلة ليلا ونهارا ، رجالا ونساء ، لكن المجتمع كله انما كان فى الليلة الأولى ، وهى ليلة الموسم عندهم . والبيت الكريم يفتح كل يوم من هذا الشهر المبارك ، فاذا كان اليوم التاسع والعشرون منه أفرد للنساء خاصة ، فيظهر للنساء بمكة فى ذلك اليوم احتفال عظيم ، فهو عندهم يوم زينتهم ^٣ المشهور المستعد له .

وفى يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور ، شاهدنا من الاحتفال للعمرة قريبا من المشهد الأول المذكور فى أوله ، فكان

لا يبقى أحد من الرجال والنساء الا خرج لما . وبالجمل فالثمن المبارك كله معمور بأنواع العبادات من العمرة وسواها ، ويختص ^٤ أوله ونصفه من ذلك بحظ متميز ، وكذلك السابع والعشرون * منه .

وفى عشيّ يوم الخميس المذكور كنا جلوسا بالحجر المكرم ، فما راعنا الا الأمير مكثر طالما محرما ، قد وصل من ميقات العمرة تبركا بذلك اليوم ، وجريا فيه على * الرسم ، وأبناءؤه وراه محرمين ، وقد حلف به بعض خاصته ، وبادر المؤذن الزمزمى للحين الى سطح قبة زمزم داعيا على عادته ، متناوبا ^١ فى ذلك مع أخيه صغيره ، وحانت صلاة العشاء ^٢ مع فراغ الأمير من طوافه ، فصلى خلف الامام الشافعى ، وخرج الى المسمى المبارك .

وفى يوم الجمعة السادس عشر منه خرجت قافلة كبيرة من الحاج : فى ^٣ نحو أربعمائة جبل مع الشريف الداودى ، الى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم . وفى جمادى الثانية قبله كانت أيضا زيارة أخرى لبعض الحجاج فى قافلة أصغر من هذه المذكورة ، وبقيت الزيارة الشوالية ، والتي مع الحاج ^٤ العراقى ، اثر الوقفة ان شاء الله عز وجل . وفى التاسع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة فى كنف السلامة ، والحمد لله .

وفى ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه — أعنى من رجب — ظهر لأهل مكة أيضا احتفال عظيم فى الخروج الى العمرة لم يقصر عن الاحتفال الأول ، فاحفل الجميع اليها تلك

وأعادها على ما كانت عليه مدة قريش ، لأنهم كانوا اقتصروا في بشائه عن قواعد إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وأبقى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك على حاله ، لحدثان عهدهم بالكفر ، حسب ما ثبت في رواية ١ رضى الله عنها في « موطأ » مالك بن أنس رضى الله عنه .

وفى اليوم التاسع والعشرين منه - وهو يوم الخميس - أفرد البيت للنساء خاصة ، فاجتمعن من كل أوب ، وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهن للمشاهد المكرمة ، ولم تبق امرأة بمكة الا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم . فلما وصل الشيبون لفتح (البيت) الكريم على العادة ، أسرعوا^٢ في الخروج منه ، وأفرجوا للنساء عنه ، وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر ، ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال .

وتبادر النساء الى الصعود حتى كاد الشيبون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم^٣ من البيت الكريم ، وتسلسل النساء بعضهن ببعض ، وتشابكن حتى توقعن ، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهلفة ، وظهر من تراحمهن ما ظهر من السرو اليميني^٤ مدة مقامهم بمكة ، وصعدوهم يوم فتح البيت المقدس ، وأثبتت الحال الحال ، وتمادين على ذلك صدرا من النهار ، وانفسحن في الطواف والحجر ، وتشفين من تقيل الحجر واستلام الأركان ، وكان ذلك اليوم عدهن الأكبر ، ويومهن الأزهر الأشهر ، فغفهن الله به ، وجعله خالصا لكريم وجهه .

الليلة رجالا ونساء على الصفات والهيئات المتقدمة الذكر ، تبركا بفضل هذه الليلة ، لأنها من الليالي الشهيرة الفضل ، فكانت مع صبيحتها عجبا في الاحتفال وحسن المنظر ، جعل الله ذلك كله خالصا لوجهه الكريم . وهذه العمرة يسمونها عمرة الأكمة لأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة رضى الله عنها ، بمقدار غلوة ، وهى على مقربة من المسجد المنسوب لعلى عليه السلام .

والأصل في هذه انعمرة الأكمة عندهم أن عبد الله بن الزبير ، رضى الله عنها ، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة ، خرج ماشيا حافيا معتمرا وأهل مكة معه فانتهى الى تلك الأكمة فأحرم منها - وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب - وجعل طريقه على ثنية الحجون المفضية الى المعلى ، التى كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها حسبا تقدم ذكره ، فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة في ذلك اليوم بعينه ، وعلى تلك الأكمة بعينها .

وكان يوم عبد الله ، رضى الله عنه ، مذكورا مشهورا ، لأنه أهدى فيه كذا وكذا بدنة عددا لم تتحصل صحته فكانت أثبتة ، لكنه بالجملة كثير . ولم يبق من أشراف مكة وذوى الاستطاعة فيها الا من أهدى ، وأقام أهلها أياما يطعمون ويطعمون ويتنعمون وينعمون ، شكرا لله عز وجل على ما وهبهم من المعونة والتيسير في بناء بيته الحرام ، على الصفة التى كان عليها مدة الخليل إبراهيم صلى الله عليه وسلم . فنقضها الحجاج - نعمة الله -

منه ، أو شبهة من شبهات ، الظنون تدفع^١
عنه ، والنيات عند الله تعالى مقبولة ، والثابرة
على تعظيم حرمانه برضاه موصولة ، وهو
المجازى على الضمائر وخفيات السرائر ، لا اله
سواه .

شهر شعبان المكرم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة السبت التاسع عشر لشهر
نوتبر^٢ . وفي صبيحته بكر الأمير مكر إلى
الطواف ، على العادة في ذلك رأس كل شهر ،
مع أخيه وبنه^٣ ، ومن جرى الرسم باستصحابه
من القواد والأشياع والأتباع ، وعلى الأسلوب
المتقدم الذكر ، والزمى يصرخ في مراقبته
على عادته ، متأوبا مع أخيه صغيره .

وفي سحر يوم الخميس الثالث عشر منه
— وهو أول يوم من دجنبر^٤ — بعد طلوع
الفجر كسف القمر ، وبدأ الكسوف والناس
في صلاة الصبح في الحرم الشريف ، رعاب
مكسوفاً ، وانتهى الكسوف إلى ثلثه^٥ ، والله
يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته .

وفي يوم الجمعة ، الثاني من ذلك اليوم ،
أصبح بالحرم أمر عجيب ، وذلك أنه لم يبق
بسكة صبي إلا وصبحه ، واجتمعوا كلهم في
قبة زمزم ، وينادون بلسان واحد : هلموا
وكبروا يا عباد الله ، فيهلل الناس ويكبرون ،
وربما دخل معهم من عرض^٦ العامة من ينادي
معههم بندايمهم ، والناس والنساء يزدحمون على
قبة البئر المباركة ، لأنهم يزعمون — بل
يقطعون (قطعا) جهليا لا قطعا عقليا — أن
ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان ،

وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات
مغبونات ، يرين البيت الكريم ولا يلجنه ،
ويلحظن الحجر المبارك ، ولا يستلمنه^١ ،
فحظهن من ذلك كله النظر والأسف المستطير
المستشعر ، فليس لهن سوى الطواف على
البعد . وهذا اليوم الذي هو من عام إلى عام
فهن يرتقبنه^٢ ارتقاب أشرف الأعياد ، ويكثرن
له من التأهب والاستعداد ، والله ينفعهن في
ذلك بحسن النية والاعتقاد بمنه وكرمه .

وفي اليوم الثاني منه بكر الشيعيون إلى
غسله بماء زمزم المبارك ، بسبب أن كثيرا من
النساء أدخلن أبناءهن الصغار والرضع معهن ،
فيتحرى غسله تكريما وتزجيا ، وإزالة لما يحيك
في النفوس من هواجس الظنون ، فيمن ليست
له ملكة عقلية تمنعه من أن تصدر عنه حادثة
نجس في ذلك الموطن الكريم ، والمحل
المخصوص بالتقديس والتعظيم .

فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال
والنساء يبادرون^٣ إليه ، تبركا بغسل أوجهم
وأيديهم فيه ، وربما جمعوا منه في أوان^٤ قد
أعدوها لذلك ، ولم يراعوا العلة التي غسل
لها ، وكان منهم من توقف عن ذلك ، وربما
لحظ الحال لحظة من لا يستجيزها ، ولا يصبوب
العقل في ذلك .

وما ظنك بماء زمزم المبارك قد صب داخل
بيت الله الحرام ، وماج في جنبات أركانه
الكرام ، ثم * بازاء الملتزم والركن الأسود
المستلم ، أليس جديرا بأن تلتقاه الأفواه فضلا
عن الأيدي ، وتغمس فيه الوجوه فضلا عن
الأقدام ؟ وحاشا لله أن تعرض في ذلك علة تمنع

وكانوا على ظن من هلال الشهر لأنه قيل انه
رؤى ليلة الجمعة في جهة الين .

فبكر الناس الى القبة ، وكان فيها من
الازدحام ما لم يعهد مثله ، ومقصد الناس في
ذلك الترك بذلك الماء المبارك الذي قد ظهر
فيضه ، والسقاة فوق التور يستقون
ويفيضون على رؤوس الناس الماء ^١ بالدلاء
قذفا : فمنهم من يصبه في وجهه ، ومنهم من
يصبه في رأسه الى غير ذلك ، وربما تبادى
لشدة نفوذه من أيديهم .

والناس مع ذلك يستزيدون ويبسكون ،
والنساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء
ويطارحنهم بالدعاء ، والصبيان يصيحون
بالتهليل والتكبير . فكان مرأى هائلا مسموعا
رائعا ، لم يتخلص للطائفتين ^٢ بسنة الطواف ،
ولا للمصلين صلاة ، لعلو تلك الأصوات ،
واشتغال الأسماع والأذهان بها .

ودخل الى القبة المذكورة أحدنا ذلك اليوم ،
فكان من لزوم الزحام عنتا ومشقة ، فسمع
الناس يقولون : زاد الماء سبع ^٣ أذرع ، فجعل
يقصد الى من يتوسم فيه بعض عقل ونظر من
ذوى ^٤ السبال البيض ، فيسأله عن ذلك فيقول
وأدعه تسيل : نعم زاد الماء سبع ^٣ أذرع لاشك
في ذلك ، فيقول : أعن خبرة وحقيقة ؟ فيقول
نعم . ومن العجيب أن كان منهم من قال : انه
بكر سحر يوم الجمعة المذكور ^٥ ، فألقى الماء
قد قارب التور بنحو القامة ، فيا عجبا لهذا
الاختراع الكاذب ! نعوذ بالله من الفتنة .

وكان من الاتفاق أن اعتسنا بهذا الأمر لغلبة
الاستفاضة التي سبغناها في ذلك ، واستمرارها
من سوائف الأزمنة عند عوام أهل مكة ،
فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه في البئر
المباركة الى أن ضرب في صفح الماء ، وانتهى
الحبل الى حافة التور ، عقد فيه عقدا ^٦
يصح عندنا القياس به في ذلك .

فلما كان في صبيحتها ، وتنادى الناس
بالزيادة ، الزيادة الظاهرة ، خلص أحدنا في
ذلك الزحام على صعوبة ، ومعه من استصحب
الدلو وأدلاء ، فوجد القياس على حاله لم
ينقص ولم يزد ، بل كان من العجب أن عاد
للقياس ليلة السبت ، فألفاه قد نقص يهيرا
لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم ، فلو
امتح من البحر لظهر النقص فيه ، فسبحان من
خص ذلك الماء بما خص به من البركة ، ووضع
فيه من المنفعة .

وفي صبيحة يوم السبت ، الخامس عشر
منه ، تتبعنا هذا القياس استراء لصحة الحال ،
فوجدناه على ما كان عليه . ولو أن لافظا يلفظ
ذلك اليوم بأنه لم يزد لصب في البئر صبا ،
أو لداسته الأقدام حتى تذيبه . نعوذ بالله من
غلبات العوام واعتدائها ، وركوبها جوامح
أهوائها .

وهذه الليلة المباركة — أغنى ليلة النصف
من شعبان عند أهل مكة — معظمة للأثر
الكريم الوارد فيها ، فهم يبادرون فيها الى
أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفرادا
وجماعة ^١ ، فينقسمون في ذلك أنسا ما مباركة .

فشاهدنا ليلة السبت — التي هي ^٢ ليلة النصف حقيقة — احتفالا عظيما في الحرم المقدس اثر صلاة العتمة ، جعل الناس يصلون فيها جماعات جماعات تراويح يقرءون فيها بفاتحة الكتاب وبقل هو الله أحد ، عشر مرات في كل ركعة ، الى أن يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة .

قد قدمت ^٣ كل جماعة اماما ، وبسطت الحصر ، وأوقدت الشمع ، وأشعلت المشاعل ، وأسرجت المصابيح ، ومصباح السماء الأزهر الأقمر قد أفاص نوره على الأرض وبسط شعاعه ، فتلاقت الأنوار في ذلك الحرم الشريف ، الذي هو نور بذاته ، فيا لك مرأى لا يتخيله المتخيل ، ولا يتوهمه المتوهم .

فأقام الناس تلك الليلة على أقسام : فطائفة التزمت تلك التراويح مع الجماعة — وكانت سبع جماعات أو ثمانية — وطائفة التزمت الحجر المبارك للصلاة على انفراد ، وطائفة خرجت للاعتمار ، وطائفة آثرت الطواف على هذا كله ، أغلبها المالكية . فكانت من الليالي الشهيرة المأمولة أن تكون ، من غرر القربات ومحاسنها ، فمع الله بها ، ولا أخلى من بركتها وفضلها ، وأوصل الى هذه المثابة المقدسة كل شيق اليها بمنه .

وفي تلك الليلة المباركة شاهد أحمد بن حسان منا ^١ امرا عجبا ، هو من غرائب الأحاديث الماثورات في رقة النفوس ، وذلك أنه أصابه النوم عند الثلث الباقي من الليل ، فأوى الى المصطبة التي تحف بها قبة زمزم ، مما يقابل

الحجر الأسود وباب البيت ، فاستلقى فيها لينام ، فاذا بانسان من العجم قد جلس على المصطبة بازائه منا يلى رأسه ، فجعل يقرأ بتشويق وترقيق ، ويتبع ذلك بزفير وشهيق ، أحسن قراءة وأوقعها في النفوس ^٢ ، وأشدها تحريكا للساكن ، فامتنع المذكور من المنام استمتاعا بحسن ذلك المسموع ، وما فيه من التشويق والتخسيس ، الى أن قطع القراءة وجعل يقول :

ان كان سوء الفعل أبعدني
فحسن ظني اليك قربني

ويردد ذلك بلحن يتصدع له الجماد ، وينشق عليه الفؤاد ، ومضى في ترديد ذلك البيت — ودموعه تكف ، وصوته ترق وتضعف — الى أن وقع في نفس أحمد بن حسان المذكور أنه سيغشى عليه ، فما كان بين اعتراض هذا خاطر في نفسه ^١ ، وبين وقوع الرجل مفشيا عليه من المصطبة الى الأرض الا كلا ولا ، وبقي ملقى كأنه لقي ^٢ لا حراك به .

فقام ابن حسان مذعورا لهول ما عاينه ، مترددا في حياة الرجل أو موته ، لشدة تلك الوجعة ^٣ والموضع من الأرض بائن الارتفاع ، وقام أحد من كان بازائه قائما ، وأقامنا متحيرين ، ولم نقدا على تحريك الرجل ولا على الدنو منه . الى أن اجتازت امرأة أعجمية وقالت : هكذا تتركون هذا الرجل على مثل هذا الحال ! وبادرت الى شيء من ماء زمزم فضحت به وجهه ، ودنا المذكوران منه وأقاماه ، فعندما أبصرهما زوى وجهه للحين

عنهما ، مخافة أن تثبت له صفة فى أعينهما ،
وقام من فوره آخذا الى جهة باب بنى شيبه .

وبقيا متعجبين مما شاهداه ، وعض ابن
حسان بنان الأسف على ما فاته من بركة دعائه ،
أفلم يمكنه الحال استدعاء منه ، وعلى أنه
لم تثبت له صورة فى نفسه ، فكان يشترك به
متى لقيه . ومقامات هؤلاء الأعاجم فى رقة
الأنفس وتأثرها ١ ، وسرعة انفعالها ، وشدة
مجاهداتها فى العبادات ، وطول مثابرتها على
أفعال البر ، وظهور بركاتها ، مقامات عجيبة
شريفة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وفى سحر يوم الخميس ، الثالث عشر من
الشهر المذكور ، كسف القمر ، وانتهى
الكسوف منه الى مقدار ثلثيه ، وغاب مكسوبا
عند طلوع الشمس ، والله يلهما الاعتبار
بآياته .

شهر رمضان المعظم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر
لدجنبر — عرفنا الله فضله وحقه ، ورزقنا
القبول فيه — وكان صيام أهل مكة له يوم
الأحد بدعوى فى رؤية الهلال لم تصح ، لكن
أمضى الأمير ذلك ، ووقع الايدان بالصوم
بضرب دبادبه ليلة الأحد المذكور ، لموافقته
مذهبه ومذهب شيعته العلويين ومن اليهم ،
لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضا حسيبا
يذكر ، والله أعلم بذلك .

ووقع الاحتفال فى المسجد الحرام لهذا
الشهر المبارك ، وحق ذلك من تجديد الحصر .
وتكثير الشمع والمشاعيل ، وغير ذلك من

الآلات ، حتى تلاأ الحرم نورا ، وسطع ضياءه ،
وتفرقت الأيمة لاقامة التراويح فرقا :
فالشافعية ، فوق كل فرقة منها ، قد نصبت
اماما لها فى ناحية من نواحي المسجد ،
والحنبلية كذلك ، والحنفية كذلك والزيدية .

وأما المالكية ، فاجتمعت على ثلاثة قراء
يتناوبون القراءة ، وهى فى هذا العام أحفل
جمعا ، وأكثر شمعا ، لأن قوما من التجار
المالكين تنافسوا فى ذلك فجلبوا لامام الكعبة
شمعا كثيرا ، من أكبره شمعتان نصبتا أمام
المحراب فيهما قنطان ، وقد حفت بهما شمع
دونهما صغار وكبار ، فجاءت جهة المالكية
تروق حسنا ، وترتمى الأبصار ١ نورا .

وكاد لا يبقى فى المسجد زاوية ، ولا ناحية ،
الا وفيها قارئ يصلى بجماعة خلفه ، فيرتج
المسجد لأصوات القراءة من كل ناحية ،
فتعائين الأبصار ، وتشاهد الأسماع من ذلك
مرأى ومستمعا تخلع له النفوس خشية ورقة .

ومن الغراء من اقتصر على الطواف ، والصلاة
فى الحجر ، ولم يحضر التراويح ، ورأى أن
ذلك أفضل ما ٢ يغتنم ، وأشرف عمل يلتزم ،
وما بكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم .

والشافعى فى التراويح أكثر الأئمة اجتهادا ،
وذلك أنه يكمل التراويح المعتادة التى هى عشر
تسليمات ، ويدخل الطواف مع جماعة ، فاذا
فرغ من الأسبوع وركع ، عاد لاقامة تراويح
أخرى ، وضرب بالفرقة الخطيئة المتقدمة
الذكر ضربة يسمعون ٣ المسجد لعلو صوتها ،
كانها ايدان بالعود الى الصلاة ، فاذا فرغوا من

تسليمتين ، عادوا لطواف أسبوع ، فإذا أكملوه ضربت الفرقة ، وعادوا لصلاة تسليمتين ، ثم عادوا للطواف ، هكذا الى أن يفرغوا من عشر تسليمات ، فيكمل لهم عشرون ركعة ، ثم يصلون الشفع والوتر ، وينصرفون . وسائر الأيمة لا يربدون على العادة شيئا .

والمتناوبون لهذه التراويح المقامية خمسة أيمة : أولهم امام الفريضة ، وأوسطهم صاحبنا القفيه الزاهد الورع أبو جعفر بن (على) الفسكى القرطبي ، وقراءته ترق الجمادات خشوعا .

وهذه الفرقة المذكورة تستعمل في هذا الشهر المبارك ، وذلك أنه يضرب بها ثلاث ضربات : عند الفراغ من أذان المغرب ، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة ، وهي لا محالة من حملة البدع المحدثه في هذا المسجد المعظم ، قدسه الله .

والمؤذن الرمزمي يتولى التسخير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد ، بسبب قربها من دار الأئمة ، فيقوم في وقت السحور فيها دائما ومذكرا ومحرضا على السحور ، ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه ، وقد نصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع ، وفي طرفيه بكرتان صغيرتان ترفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدة التسخير ، فإذا قرب تبين خيطي الفجر ، ووقع الايدان بالقطع مرة بعد مرة ، حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة ، وبدأ بالأذان .

وثوب المؤذنون من كل ناحية بالأذان . وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة ، فمن لم يسمع نداء التسخير ، من يبعد مسكنه من المسجد ، يبصر القنديلين يقدان في أعلى الصومعة ، فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع .

وفي ليلة الثلاثاء الثاني من الشهر مع العشي طاف الأمير مكثرا بالبيت مودعا ، وخرج للقاء الأمير سيف الاسلام طفتكين^٢ بن أيوب أخى صلاح الدين ، وقد تقدم الخبر بوروده من مصر منذ مدة ، ثم تواتر الى أن صبح وصوله الى ينبوع^٣ ، وأنه عرج الى المدينة لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتقدمت أقاله الى الصفراء ، والمتحدث به في وجهته قصد اليمن لاختلاف وقع فيها ، وقتنه حدثت من أمرائها ، لكن وقع في نفوس المكيين منه ابحاس^٤ خيفة واستشعار خطية ، فخرج هذا الأمير المذكور متلقيا مسلما ، وفي الحقيقة مستسلما ، والله تعالى يعرف المسلمين خيرا .

وفي ضحوة يوم الأربعاء ، الثالث من الشهر المبارك المذكور ، كنا جلوسا بالحجر المكرم ، فسمعنا دبابدب الأمير مكثرا وأصوات نساء مكة يتولون^١ عليه . فبينما نحن كذلك دخل منصرفا من لقاء الأمير سيف الاسلام المذكور ، وطائفا بالبيت المكرم طواف التسليم ، والناس قد أظهروا الاستبشار لقدمه والسرور بسلامته ، وقد شاع الخبر بنزول سيف الاسلام الزاهر وضرب أبيته^٢ فيه ، ومقدمته من العسكر قد وصلت الى الحرم ، وزاحمت الأمير مكثرا في الطواف .

فينا الناس ينظرون اليهم اذ سمعوا ضوضاء عظيمة ، وزعقات هائلة ، فما راعهم الا الأمير سيف الاسلام ^٢ داخلا من باب بنى شيبة ، ولعان السيوف أمامه يكاد يحول بين الأبصار وبينه ، والقاضى عن يمينه ، وزعيم الشيبين عن يساره ، والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة والوافدين ، والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع وأذهلت الأذهان ، والمؤذن الزمزمى ^٣ فى مرقبته رافعا عقيرته بالدعاء له والثناء عليه ، وأصوات الناس تملو على صوته ، والهول قد عظم مرأى ومستمعا .

فلحين دنو الأمير من البيت المعظم أغمدت السيوف ، وتضاءلت النفوس ، وخلعت ملابس العزة وذلت الأعناق ، وخضعت الرقاب ، رطاشت الأبواب * مهابة وتعظيما لبيت ملك الملوك العزيز الجبار الواحد القهار ، مؤتى الملك من يشاء ، ونازع الملك ممن يشاء ، سبحانه جلت قدرته وعز سلطانه .

ثم ^٦ تهافتت هذه العصابة الغزية على بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح ، وقد نكس أذقانهم الخضوع ، وبلت سبالهم الدموع ، وطاف القاضى وزعيم الشيبين بسيف الاسلام والأمير مكثرا قد غمره ذلك الزحام ، فأسرع فى الفراغ من الطواف ، وبادر الى منزله .

وعندما أكمل سيف الاسلام طوافه صلى خلف * المقام ، ثم دخل قبة زمزم فشرب من مائها ، ثم خرج على باب الصفا الى السعى ، فابتدأه ماشيا على قدميه تواضعا وتذلا لمن

يجب التواضع له ، والسيوف مصلوطة ^١ أمامه ، وقد اصطف الناس من أول المسعى الى آخره سباطين مثل ماصنعوا أيضا فى الطواف ، فسعى على قدميه طريقين من الصفا الى المروة ، ومنها الى الصفا ، وهروا بين الميلىن الأخضرين ، ثم قيده الأعياء فركب وأكمل السعى راكبا ، وقد حشر الناس ضحى ، يعنى وقتا ^٢ .

ثم عاد هذا الأمير الى المسجد الحرام على حالته من الارهاب والهيبة ، وهو يتهادى بين بروق خواطف السيوف المصلتة ، وقد بادر الشيبين الى باب البيت المكرم ليفتحوه — ولم يكن يوم فتحه — وضم الكرسي الذى يصعد عليه ، فرقى الأمير فيه . وتساوول زعيم الشيبين فتح الباب فاذا المفتاح قد سقط ^٢ من كفه فى ذلك الزحام ، فوقف وقمة دهش مذعور ، ووقف الأمير على الأدراج ، فيسر الله للحين فى وجود المفتاح ، ففتح الباب الكريم ، ودخل الأمير وحده مع الشيبى وأغلق الباب ، وبقي وجوه الأغزاز وأعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسي ، فبعد لآى ما فتح لأمرائهم المقربين فدخلوا ^٤ .

وتمادى مقام سيف الاسلام فى البيت الكريم مدة طويلة ، ثم خرج وافتتح الباب للكافة منهم ، فياله من ازدحام وتراكم وانتظام ، حتى صاروا كالعقد المستطيل ، وقد اتصلوا وتسلسلوا ، فكان يومهم أشبه شئ بأيام السرو * فى دخولهم البيت — حسبما تقدم وصفه — وركب الأمير سيف الاسلام ، وخرج الى مضرب أبيته بالموضع المذكور . وكان هذا اليوم بمكة من الأيام الهائلة المنظر ،

المعجبة المشهد * ، الغريبة الشأن ، فسبحان من لا ينقضى ملكه ، ولا يبيد سلطانه ، لا اله سواه .

وصحب هذا الأمير جملة من حجاج مصر وسواها ، اغتناما لطريق البر والأمن ، فوصلوا فى عافية وسلامة والحمد لله .

وفى ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضا بالحجر المكرم ، فاذا بأصوات طبول ودباب وبوقات قد قرعت الأذان ، وارتجت لها نواحي الحرم الشريف . فبينما نحن نتطلع لاستعلاء خبرها ، طلع علينا الأمير مكثر وغاشيته الأقربون حوله ، وهو رافل فى حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها ، وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابى اللون قد علا كورها على رأسه ، كأنها سحابة مركومة ، وهى مصفحة بالذهب ، وتحت الحلة خلعتان من الديبقتى المرسوم البديع الصنعة ، خلعهما عليه الأمير سيف الاسلام ، فوصل بها فرحا جذلان ، والطبول والدباب تشييعه عن أمر سيف الاسلام ، اشادة بتكرمه واعلاما بمأثره منزلته ، فطاف بالبيت المكرم شكرا لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير ، بعد أن كان أوجس فى نفسه خيفة منه ، والله يصلحه ويوفقه بمنه

وفى يوم الجمعة وصل الأمير سيف الاسلام للصلاة أول الوقت ، وفتح البيت المكرم فدخله مع الأمير مكثر ، وأقاما به مدة طويلة ثم خرجا ، وتزاحم الغز للدخول تزاحما أبهت الناظرين حتى أزيل الكرسي الذى يصعد عليه

فلم يغن عن ذلك شيئا ، وأقاموا على الازدحام فى الصعود باشالة بعضهم على بعض ، وداموا على هذه الحالة الى أن وصل الخطيب ، فخرجوا لاستماع الخطبة ، وأغلق الباب ، وصلى الأمير سيف الاسلام مع الأمير مكثر فى القبة العباسية ، فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا ، وركب الى مضرب أبيته .

وفى يوم الأربعاء العاشر منه ، خرج الأمير المذكور بجنوده الى اليمن ، والله يعرف أهلها من المسلمين فى مقدمه * خيرا بمنه

وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف فى قيامه وصلاة تراويحه ، وكثرة الأيمة فيه . وكل وتر من الليالى العشر الأواخر يختم فيها القرآن . فأولها ليلة احدى وعشرين ختم فيها أحد أبناء أهل مكة ، وحضر الختمة القاضي ونجاعة من الأشياخ ، فلما فرغوا منها قام الصبى فيهم خطيبا ، ثم استدعاهم أبو الصبى المذكور الى منزله الى طعام وحلوا قد أعدهما واحتفل فيهما .

ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين ، وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار ، غلاما لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة ، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديما . وذلك أنه أعد له ثريا مصنوعة من الشمع مفضنة ، قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، وأعد اليها شمعا كثيرا ، ووضع فى وسط الحرم ، مما يلى باب بنى شيبة ، شبيه المحراب المربع من أعواد مشرجة ، قد أقيم على قوائم أربع ، وربطت

فى أعلاه عيدان نزلت منها قناديل ، وأسرجت فى أعلاها مصابيح ومشاعيل ، وسمر^١ دائر المحراب كله بمسامير حديدة الأطراف غرز فيها الشمع ، فاستدار بالمحراب كله ، وأوقدت الشريا المغصنة ذات الفواكه .

وأمن الاحتفال فى هذا كله ، ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان ، وحضر الامام الطفل فصلى التراويح وختم ، وقد انحشد أهل المسجد الحرام اليه رجالا ونساء ، وهو فى محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمع المحدث به ، ثم برز من محرابه رافلا فى أفخر ثيابه بهية امامية ، وسكينة غلامية ، مكحل العينين ، مخضوب الكفين الى الزندين ، فلم يستطع الخلوص الى منبره من كثرة الزحام ، فأخذه أحد سدنة تلك الناحية^٢ فى ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره ، فاستوى ميتسا ، وأشار على الحاضرين مسلما .

وفعد بين يديه قراء ، فابتدروا^١ القراءة على لسان واحد ، فلما أكملوا عشرا من القرآن قام الخطيب ، فصعد بخطبة يحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع ، وبين يديه فى درجات المنبر نفر يسكون أتوار^٢ الشمع فى أيديهم ، ويرفعون أصواتهم يارب يارب عند كل فصل من فصول الخطبة ، يكررون ذلك ، والقراء يتتدرون^٣ القراءة^٤ فى أثناء ذلك ، فيسكت الخطيب الى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته .

وتمادى فيها متصرفا فى فنون من التذكير ، وفى أثناءها اعترضه ذكر البيت العتيق — كرمه الله — فحصر عن ذراعيه مشيرا اليه ، وأردفه بذكر زمزم والمقام ، فأشار اليهما بكلمات أصبعيه ، ثم ختمها^١ بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه ، ثم دعا للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء ، ثم نزل والفض ذلك الجمع العظيم .

وقد استغرق ذلك الخطيب واستقبل^٢ ، وإن لم تبلغ الموعظة من النفوس ما أمل ، والتذكرة اذا خرجت من اللسان لم تتمد مسافة الأذان . ثم ذكر أن المعينين من ذلك الجمع — كالقاضي وسواه — خصوا بطعام خفيف وحلوا ، على عادتهم فى مثل هذا المجتمع ، وكانت لأبى الخطيب فى تلك الليلة نفقة واسعة فى جميع ما ذكر .

ثم كانت ليلة خمس وعشرين ، فكان المخبتم فيها الامام الحنفى ، وقد أعد ابنا له لذلك سنة نحو من سن الخطيب الأول المذكور ، فكان احتفال الامام الحنفى لابنه فى هذه الليلة عظيما ، أحضر فيها من ثريات^١ الشمع أربعة مختلفات الصنعة : منها مشجرة مغصنة^٢ مشرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، ومنها غير مغصنة ، فصفت أمام حطيمه ، وتوج الحطيم بخشب وألواح وضعت أعلاه ، وجلل ذلك كله سرجا ومشاعيل وشبعا ، فاستدار الحطيم كله حتى لاح فى الهواء كالتاج العظيم من النور ، وأحضر الشمع فى أتوار^١ الصفر ، ووضع المحراب العودى المشرجب ، فجلل دائره الأعلى

كله شمعا ، وأحرق الشمع فى الأتوار به ،
فاكتنفته هالات من نور ، ونصب المنبر قبالة
مجللا أيضا بالكسوة الملونة .

واحتفال^٢ الناس لمشاهدة هذا المنظر النير
أعظم من الاحتفال الأول ، فختم الصبح
المذكور ، ثم برز من محرابه الى منبره يسحب
أذيال الخفر فى أثواب رائقة المنظر ، فتسور
منبره وأشار بالسلام على الحاضرين ، وابتدأ
خطبته بسكينة ولين ولسان على حالة الحياء
مبين ، فكان الحال^٣ على طقوسها كانت
أوقر^٤ من الأولى وأخشح ، والموعظة أبلغ
والتذكرة أنفع .

وحضر القراء بين يديه على الرسم الأول .
وفى أثناء فصول الخطبة يتدرون القراءة ،
فيسكت خلال اكمالهم الآية التى اقتزعوها من
القرآن ، ثم يعود الى خطبته . وبين يديه فى
درجات المنبر طائفة من الخدمة بمسكون أتوار
الشمع بأيديهم ، ومنهم من يمسك الجمرة
يسطح بعرف العود الرطب الموضوع فيها مرة
بعد أخرى . فعندما يصل الى فصل من تذكير
أو تخشيع ، رفعوا أصواتهم يارب يارب ،
يكررونها ثلاثا أو أربعاً ، وربما جازاهم فى
النطق بعض الحاضرين الى أن فرغ من خطبته
ونزل . وجرى الامام اثره على الرسم من
الاطعام لمن حضر من أعيان المكان ، اما
باستدعائهم الى منزله تلك الليلة ، أو بتوجيه
ذلك الى منازلهم .

ثم كانت ليلة سبع وعشرين - وهى ليلة
الجمعة بحساب يوم الأحد - فكانت الليلة
الغراء ، والخمة الزهراء ، والهيئة المفورة

الكهلاء ، والحالة التى تمكن عند الله تعالى فى
القبول والرجاء . . وأى حالة تؤازى شهود
ختم القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان
خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم ! وانها
لنعمة تتضاءل لها النعم تضائل سائر البقاع
للحرم .

ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة
قبل ذلك يومين أو ثلاثة ، وأقيمت ازاء حطيم
امام الشافعية خشب عظام بائنة^١ الارتفاع ،
موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد
الوثيقة ، فاتصل منها صف كاد يمسك نصف
الحرم عرضا ، ووصلت بالحطيم المذكور .

ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على
الأذرع المذكورة ، وعلت طبقة منها طبقة أخرى
حتى استكملت ثلاث طبقات ، فكانت الطبقة
العليا منها خشبا مستطيلة مغروزة كلها مسامير
محددة الأطراف ، لاصقا بعضها ببعض كظهر
الشيهم ، نصب عليها الشمع ، والطبقتان تحتها
ألواح مثقوبة ثقبا متصلا ، وضعت فيها
زجاجات المصاييح ذوات الأنابيب المنبثة من
أسافلها .

وتدلت من جوانب هذه الألواح والخشب ،
ومن جميع الأذرع المذكورة قناديل كبار
وصغار ، وتخللها أشباه الأطباق المسبوطة من
الصفير ، قد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل
تقلها فى الهواء ، وخرقت كلها ثقبا ، ووضعت
فيها الزجاجات ذوات الأنابيب من أسفل تلك
الأطباق^٢ الصقرية ، لا يزيد منها أنبوب من
أنبوب فى القد ، وأوقدت فيها المصاييح ،

فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نورا .

ووصلت بالحطيم الثاني ، الذى يقابل الركن الجنوبى من قبة زمزم ، خشب على الصفة المذكورة اتصلت الى الركن المذكور ، وأوقد المشعل الذى فى رأس فحل القبة المذكورة ، وصفت طرة شباكها شمعا مما يقابل البيت المكرم .

وحف المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرمة ، مخفوفة الأعلى بمسامير حديدية الأطراف على الصفة المذكورة ، جللت كلها شمعا ، ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجرم فى أتوار تناسبها كبرا ، وصفت تلك الأتوار على الكراسى التى يصرفها السدنة مطالع عند الإيقاد ، وجلل جدار الحجر المكرم كله شمعا فى أتوار من الصفر ، فجاءت كأنها دائرة نور ساطع ، وأحدقت بالحرم المشاعيل ، وأوقد جميع ما ذكر .

وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة ، وقد وضعت ييد كل (واحد) منهم كرة من الخرق المشبعة سليطا ، فوضعوها متقدة فى رؤوس الشرفات ، وأخذت كل طائفة منهم فاحية من نواحيها الأربع ، فجعلت كل طائفة تبارى صاحبها فى سرعة إيقادها ، فيخيل للناظر أن النار تثب من شرفة الى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتدى الأبصار ، وفى أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم يارب يارب على لسان واحد ، فيرتج الحرم لأصواتهم .

فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر كاد يغشى الأبصار شعاع تلك الأنوار ، فلا تقع لمحة طرف الا على نور تشغل حاسة البصر عن استمالة النظر ، فيتوهم المتوهم — لهول ما يعاينه من ذلك — أن تلك الليلة المباركة نزهت لشرفها عن لباس الظلماء ، فزينت بمصاييح السماء . وتقدم القاضى فصى فريضة العشاء الآخرة ، ثم قام وابتدأ بسورة القدر^٢ ، وكان أئمة الحرم فى الليلة قبلها^٣ قد انتهوا فى القراءة اليها ، وتعطل فى تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح تعظيما لختمه المقام ، وحضروا متبركين بمشاهدتها .

وقد كان (المقام) المطهر أخرج من موضعه المستحدث فى البيت العتيق — حسبما تقدم الذكر أولا له فيما سلف من هذا التقييد — ووضع فى محله الكريم المتخذ مصلى مستورا بقبته التى يصلى الناس خلفها ، فختم القاضى بتسليمتين ، وقام خطيبا مستقبل المقام والبيت العتيق ، فلم يتمكن سماع الخطبة للازدحام وضوء العوام .

فلما فرغ من خطبته عاد الأئمة لإقامة تراويحهم ، وانقض الجمع ونفوسهم قد استطارت خشوعا ، وأعينهم^١ قد سالت دموعا ، والأنفس قد أشعرت من فضل تلك (الليلة) المباركة رجاء مبشرا بمن الله تعالى بالقبول ، ومشعرا أنها ولعلها ليلة^٢ القدر المشرف ذكرها فى التنزيل ، والله عز وجل لا يخلى الجميع من بركة مشاهدتها وفضل معاينتها ، انه كريم منان لا اله سواه .

ثم ترتبت قراءة أئمة المقام الخمسة المذكورين ،
أولا ، بعد هذه الليلة المذكورة ، بآيات
ينتزعونها من القرآن على اختلاف السور ،
تتضمن التذكير والتحذير والتبشير ، بحسب
اختيار كل واحد منهم ، ورسم طوائفهم اثر كل
تسليتين باق على حاله ، والله ولي القبول من
الجميع .

ثم كانت ليلة تسع وعشرين منه ، فكان
المختتم فيها سائر أئمة التراويح ، ملتزمين رسم
الخطبة اثر الختمة ، والمشار اليه منهم المالكي ،
تتقدم باعداد أعواد بازاء محرابه ، نصبها ستة
على هيئة دائرة محراب ، مرتفعة عن الأرض
بدون القامة ، يعترض على كل اثنين منها عود
ميسوط ، فأدير بالشمع أعلاها ، وأحرق
أسفلها ببقايا شمع كثير قد تقدم ذكره عند
ذكر أول الشهر المبارك .

وأحرق أيضا داخل تلك الدائرة شمع آخر
متوسط ، فكان منظرا مختصرا ، ومشهدا عن
احتفال المباهة منزها موقرا ، رغبة في
احتفال الأجر والثواب . ومناسبة لموضع هيئة
المحراب ، نصبت للشمع فيه عرضا من الأتوار
أثافي من الأحجار ، فجاءت الحال غريبة في
الاختصار ، خارجة عن محفل التعظيم
والاستكبار ، داخل مدخل التواضع
والاستغفار .

واحتفل جميع المالكية للختمة ، فتناوبها
أئمة التراويح ، فقصوا صلاتهم سراعا عجلا ،
كأن يلتقي طرفاها خوفا واستعجالا ، ثم تقدم
أحدهم فمعد حبوته بين تلك الأثافي ،

وصدع بخطبة متتوعة من خطبة الصبي ابن
الامام الحنفى ، فأرسلها معادة الى الأسماع ،
تقيلا لحنها على الطباع . ثم انقض الجنب وقد
جمد في شئونه الدمع ، واحتلف للحن من
أثافيه ذلك الشمع ، أطلقت عليه أيدي
الانتهاج ولم يكن في الجماعة من يستحي
منه أو يهاب ، وعند الله تعالى في ذلك الجزاء
والثواب ، انه سبحانه الكريم الوهاب .

وانتهت ليالى الشهر ذاهية عنا بسلام ، جعلنا
الله ممن طهر فيها من الآثام ، ولا أخلاقا من
فضل القبول ببركة صومه في جوار الكعبة
البيت الحرام ، وختم الله لنا ولجميع أهل الملة
الحنيفية بالوفاء على الاسلام ، وأوزعنا حمدا
يحقق هذه النعمة وشكرا ، وجعلها للمعاد لنا
ذخرا ، ووفانا عليها ثوابا من لديه وأجرا يرجى
بفضله وكرمه ، انه لا يضيع لديه أيام اتخذ
لصيامها ماء زمزم فطرا ، انه الحنان المنان لارب
سواه .

شهر شوال عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء السادس عشر من
يناير ، بين الله مطلع ، ورزقنا بركته . وهذا
الشهر المبارك هو فاتحة أشهر الحج
المعلومات ، وبعده تتصل ثلاثة أشهر الحرم
الباركات .

وكانت ليلة استهل هلاله من الليالى
الحقيلة في المسجد الحرام — زاده الله
تكريما — جرى الرسم فى إيقاد مشاعله
وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع
وعشرين من رمضان المعظم ، وأوقدت الصوامع
من الأربع جهات من الحرم ، وأوقد سطح

المسجد الذى فى أعلى جبل أبى قبيس ، وأقام
للمؤذن ليلته تلك^١ فى أعلى سطح قبة زمزم
مهللا ومكبرا ومسبحا وحامدا ، وأكثر الأئمة
تلك الليلة أحياء ، وأكثر الناس على مثل تلك
الحال بين طواف وصلاة وتهليل وتكبير .
يقبل الله من جميعهم ، انه سمع الدعاء ،
كفيل بالرجاء ، سبحانه لا اله سواه .

فلما كان صبيحتها ، وقضى الناس صلاة
الفجر ، لبس الناس أثواب عيدهم ، وبادروا
لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام ،
لأن السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج
الناس اليه ، رغبة فى شرفه البقعة وفضل
بركتها ، وفضل صلاة الامام خلف المقام ومن
يأتى به .

فأول من بكر الشيبون ، وفتحوا باب
الكعبة المقدسة ، وأقام زعيمهم جالسا فى العتبة
المقدسة ، وسائر الشيبين داخل الكعبة ، الى
أن أحسوا بوصول الأمير مكثر ، فنزلوا اليه
وتلقوه بمقربة من باب النبى صلى الله عليه
وسلم ، فأتته الى البيت المكرم ، وطاف حوله
أسجوعا ، والناس قد احتفلوا لعيدهم ، والحرم
قد غص بهم ، والمؤذن الزمزمى فوق سطح
القبة على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء
له ، متناوبا فى ذلك مع أخيه .

فلما أكمل الأمير الأسبوع ، عمد الى مضطبة
قبة زمزم — مما يقابل الركن الأسود — فقعدها
بها ، وبنوه عن يمينه ويساره ، ووزيره
وحاشيته وقوف على رأسه ، وعاد الشيبون
لمكانهم من البيت المكرم ، يلحظهم الناس

بأبصار خاشعة للبيت ، غابطة لمحلهم منه
ومكانهم من حجابته وسداتته ، فسبحان من
خصهم بالشرف فى خدمته . وحضر الأمير من
خاصته شعراء أربعة ، فأنشدوه واحدا اثر
واحد الى أن فرغوا من انشادهم .

وفى أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة — وكان
ضحى من النهار — فأقبل القاضى الخطيب
يتهدى بين رايته السوداوين ، والفرقة
المتقدم ذكرها أمامه ، وقد صك^١ الحرم
صوتها ، وهو لايس ثياب سواده ، فجاء الى
المقام الكريم ، وقام الناس للصلاة ، فلما
قضوها رقى المنبر — وقد ألصق الى موضعه
المعين له كل جمعة من جدار الكعبة المكرمة ،
حيث الباب الكريم شارعا — فخطب خطبة
بليغة ، والمؤذنون قعود * دونه فى أدراج
المنبر ، فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير
يكبرون بتكبيره ، الى أن فرغ من خطبته .

وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة
والتسليم والتغافر والدعاء ، مسرورين جذلين
فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وبادروا^١ الى
البيت الكريم ، فدخلوا بسلام آمنين ،
مزدحمين عليه فوجا فوجا ، فكان مشهدا
عظيما وجمعا بفضل الله تعالى مرحوما . جعله
الله ذخيرة للمعاد ، كما جعل ذلك العيد
الشريف فى العمر أفضل الأعياد بمنه وكرمه ،
انه ولى ذلك ، والقادر عليه .

وأخذ الناس عند انشادهم من مصلاهم ،
وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض ، فى
زيارة الجبانة بالمعلى ، تبركا باحتساب الخطا

الصالحين من الصدر الأول وسواه ، رضى الله
عن جميعهم ، وحشرنا فى زميرتهم ، ونقمننا
بمحببتهم ، فالمرء — كما قال ^٢ صلى الله عليه
وسلم — مع من أحب

وفى يوم السبت التاسع عشر منه ، والثالث
لقبرائير ، صعدنا الى منى لمشاهدة المناسك
المعظمة بها ، وللعناية منزل اكترى لنا فيها ،
اعدادا للمقام بها أيام التشريق ان شاء الله ،
فألقيناها تملا النفوس بهجة واشراحا : مدينة
عظيمة الآثار ، واسعة الاختطاط ، عتيقة
الوضع قد درست الا منازل يسيرة متخذة ^٣
للتزول ، تحف بجانبى طريق كأنه ميدان ^٤
انبساطا وانفساحا ممتد الطول .

فاول ما يلقى المتوجه اليها عن يساره ،
وبمقربة منها ، مسجد البيعة المباركة ، التى
كانت أول بيعة فى الاسلام عقدها العباس ،
رضى الله عنه ، للنبي صلى الله عليه وسلم على
الأنصار حسب المشهور من ذلك .

ثم يفضى منه الى جمرة العقبة ، وهى أول
منى للمتوجه من مكة وعن يسار المار اليها ،
وهى على قارعة الطريق مرتفعة للمتراكم فيها
من حصى الجمرات ، ولولا آيات الله اليينات
فيها لكانت كالجبال الرواسى ، لما يجتمع فيها
على تعاقب الدهور وتوالى الأزمنة ، لكن الله
عز وجل فيها سر كريم من أسرار الخفيات ،
لا اله سواه . وعليها مسجد مبارك ، وبها علم
منصوب شبه أعلام الحرم التى ذكرناها ،
فيجعلها ^١ الرامى عن يمينه مستقبلا مكة
— شرفها الله — ويرمى بها سبع حصيات ،

وذلك يوم النحر اثر طلوع الشمس ، ثم ينحر
أو يذبح ويحلق ^٢ — والمحلق حولها ، والمنحر
فى كل موضع من منى ، لأن منى كلها منحر
كما قال صلى الله عليه وسلم — وقد حل له
كل شيء الا النساء والطيب حتى يطوف طواف
الافاضة .

وبعد هذه الجمرة العقبية موضع الجمرة
الوسطى ، ولها أيضا علم منصوب وبينهما قدر
الفلوة ، ثم ^٣ بعدها يلقى الجمرة الأولى ،
ومسافتها منها كمسافة الأخرى . (و) فى وقت
الزوال من ثنائى يوم النحر ترمى فى الأولى
سبع حصيات ^٤ وفى الوسطى كذلك ، وفى
العقبه كذلك ، فتلك احدى وعشرون حصاة .
وفى الثالث من يوم النحر ، فى الوقت بعينه ،
كذلك على الترتيب المذكور ، فتلك اثنتان ^٥
وأربعون حصاة فى اليومين ، وسبع رميت *
فى العقبة يوم النحر ، وقت طلوع الشمس ،
كما ذكرناه — وهى المحلات للحاج ما حرم
عليه سوى النساء والطيب — فتلك تكملة ^٦
تسع وأربعين جمرة .

وفى اثر ذلك ينفصل ^٧ الحاج الى مكة من
ذلك اليوم ، واختصر فى هذا الزمان احدى
وعشرون كانت ترمى فى اليوم الرابع على
الترتيب المذكور ، وذلك لاستمجال الحاج
خوفا من العرب الشعيين ^٨ ، الى غير ذلك من
محدورات الفتن المغيرات لآثار السن ، ففضى
العمل اليوم ^٩ على تسبع وأربعين حصاة ،
وكانت فى القديم سبعين ، والله يهب القبول
لعبادته .

والصادر من عرفات الى منى أول ما يلقي
الجمرة الأولى ، ثم الوسطى ، ثم جمرة
العقبة . وفى يوم النحر تكون جمرة العقبة
أولى منفردة بسبع حصيات ، حسبما تقدم
ذكره ، ولا يشترك معها سواها فى ذلك اليوم ،
ثم فى اليومين بعده ترجع الآخرة ^١ على
الترتيب حسبما وصفناه ، بحول الله عز وجل .
وبعد الجمرة الأولى يعرج عن الطريق يسيرا ،
ويلقى منحر ^٢ الذبيح صلى الله عليه وسلم ،
حيث فدى بالذبيح العظيم ، وعلى الموضع
المبارك مسجد مبنى ، وهو بمقربة من سفح
ثبير .

وفى موضع المنحر ^٢ المذكور ، حجر قد
ألصق بالجدار المبنى ، فيه أثر قدم صغيرة
يقال انه ^٤ أثر قدم الذبيح صلى الله عليه وسلم
عند تحركه ، فلان الحجر له بقدرة الله عز
وجل اشفاقا وحنانا ، فيتبرك الناس بلمسه
وتقبيله ، ويفضون من ذلك الى مسجد الخيف
المبارك ، وهو آخر منى فى توجهمك ، أعنى
من المعمور منها بالبيان . وأما الآثار القديمة
فأخذة الى أبعد غاية أمام المسجد .

وهذا المسجد المبارك متسع الساحة ، كأكبر
ما يكون من الجوامع ، والصومعة وسط رحبة
المسجد ، وله فى القبلة أربعة * بلاطات يشملها
سقف واحد ، وهو من المساجد الشهيرة بركة
وشرف بقعة ، وكفى بما ورد فى الأثر الكريم
من أن بقعته الطاهرة مدفن كثير من الأنبياء
صلوات الله عليهم .

وبمقربة منه ، عن يمين المار فى الطريق ،
حجر كبير مسند الى صفح الجبل ، مرتفع عن
الأرض يظل ما تحته ، ذكر أن النبي صلى الله

عليه وسلم قعدا تحته مستظلا ، ومن رأسه
المكرم فيه ^٦ ، فلان له حتى أثر فيه تأثيرا بقدر
دور * الرأس ، فيبادر الناس اوضع رؤوسهم
فى ذلك الموضع ، تبركا واستجارة لها بموضع
مسه الرأس المكرم أن لا تمسها النار بقدرة الله
عز وجل .

فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة ،
أخذنا فى الانصراف مستبشرين بما وهبنا الله
من فضله فى مباشرتها ، ووصلنا الى مكة
قريب الظهر ، والحمد لله على ما من به .

وفى يوم الأحد بعده ، وهو الموفى عشرين
لشوال ، صعدنا الى الجبل المقدس حراء ،
وتبركنا بمشاهدة الغار فى أعلاه الذى كان
النبي صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه ، وهو
أول موضع نزل فيه الوحي عليه صلى الله عليه
وسلم ، ورزقنا شفاعته ، وحشرنا فى زمرة ،
وأما لنا على سنته ومحبه ، بمنه وكرمه ،
لا رب سواه .

وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين
منه ، وهو السادس من فبراير ، اجتمع
الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة
— بعد أن ندبهم القاضى الى ذلك ، وجرضهم
على صيام ثلاثة أيام قبله — فاجتمعوا فى
هذا اليوم الرابع المذكور ، وقد أخلصوا
النيات لله عز وجل ، وبكر الشيبون ففتحوا
الباب المكرم من البيت العتيق .

ثم أقبل القاضى بين رايته السوداوين ،
لابسا ثياب البياض ، وأخرج مقام الخليل
ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ،

ووضع على عتبة باب البيت المكرم ، وأخرج مصحف عثمان رضى الله عنه من خزائنه ، ونشر بازاء المقام المطهر ، فكانت دفته الواحدة عليه ، والثانية على الباب الكريم .

ثم نودى فى الناس بالصلاة جامعة ، فصلى القاضى بهم خلف موضع المقام المتخذ مصلى^١ ركعتين : قرأ فى أحدهما بسم الله الرحمن الرحيم ، وفى الثانية بالفاتحة^٢ ، ثم صعد المنبر — وقد ألصق الى موضعه المعهود من جدار الكعبة المقدسة — فخطب خطبة بليغة ، والتى فيها الاستغفار ، ووعظ الناس وذكرهم وخشعهم ، وحضهم على التوبة والالتابة لله عز وجل ، حتى نزلت دمعها ، العيون ، واستنفدت^١ ماؤها الشئون ، وعلا الضجيج ، وارتفع الشهيق والنشيج ، وحول رداءه وحول الناس أردبتهم اتباعا للسنة ، ثم انقض النجم راجين رحمة الله عز وجل ، غير قائلين منها ، والله يتلافى^٢ عبادته بلطفه وكرمه .

وتماذى استسقاؤه بالناس ثلاثة أيام متوالية على الصفة المذكورة ، وقد نال الجهد من أهل الحجاز ، وأضر بهم القحط ، وأهلك مواشيهم الجذب ، لم يمتروا فى الربيع ولا الحريف ولا الشتاء الا مطسرا طلا غير كاف ولا شاف والله عز وجل لطيف بعباده ، غير مؤاخذهم بجرائمهم ، انه الحنان المنان لا رب سواه .

وفى يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال ، سعدنا الى جبل ثور لمدينة الفار المبارك ، الذى أوى اليه النبی صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضى الله عنه ،

حسبما جاء فى محكم التنزيل العزيز — وقد تقدم ذكر هذا الفار وصفته أولا فى هذا التقييد — وولجناه من الموضع الذى يعسر الولوج منه على البعض من الناس ، تبركا بمس بشرة البدن بموضع مسه الجسم المبارك ، قدسه الله ، لأن مدخل النبی صلى الله عليه وسلم كان منه .

وكان لأحد الصاعدين اليه ذلك اليوم من المصريين موقف خجلة وفضيحة . وذلك أنه رام الولوج فيه على ذلك الموضع الضيق فلم يقدر بحيلة ، وعاد ذلك مرارا فلم يستطع ، حتى استوقف الناس ما عاينوه من ذلك ، وبكوا له اشفاقا ، ولجأوا الى الله عز وجل فى الدعاء فلم يفن ذلك شيئا ، وكان فيهم من هو أضخم منه ، فيسر الله عليه ، وطال تعجب الناس منه واعتبارهم . وأعلمنا بعد إقصائنا فى ذلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل لثلاثة أناس فى ذلك اليوم بعينه ، عصمنا الله من مواقف الفضيحة فى الدنيا والآخرة .

وهذا الجبل صعب المرتقى جدا ، يقطع الأنفاس تقطيعا ، لا يكاد يبلغ منتهاه الا وقد ألقى بالأيدى . اعياء وكلالا ، وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال ، وعلى ذلك القدر هو^١ جبل حراء منها ، والله تعالى لا يخلينا من بركة هذه المشاهد بمنه وكرمه . وطول الفار ثمانية عشر شبرا ، وسعته أحد عشر شبرا فى الوسط منه ، وفى حافتيه ثلثا شبرا ، وعلى الوسط منه يكون الدخول ، وسعة

الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا ،
لأن له باين حسبا ذكرناه أولا .

وفى يوم الجمعة بعده وصل السرو
اليمنيون فى عدد كثير ، مؤملين زيارة قبر
الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجلبوا ميرة
الى مكة على عادتهم ، فاستبشر الناس
بقدمهم استبشارا كثيرا ، حتى أنهم أقاموه
عوض نزول المطر . ولطائف الله لسكان حرمه
الشريف واسعة ، انه سبحانه لطيف بعباده
لا اله سواه .

شهر ذى القعدة عرفنا الله يعنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء ، بموافقة الرابع
عشر من شهر فبراير ، بشهادة ثبتت عند القاضى
فى رؤيته ، وأما الأكثر الأغلب من أهل المسجد
الحرام فلم ييصبوا شيئا ، وطال ارتقا بهم^٢
الى اثر صلاة المغرب ، وكان منهم من يتخيله
فيشير اليه ، فاذا حققه تلاشى عنده نظره
وكذب خبره ، والله أعلم بصحة ذلك .

وهذا الشهر المبارك ثانى الأشهر الحرم ،
وثانى أشهر الحج ، أطلع الله هلاله على
المسلمين بالأمن والإيمان والمغفرة والرضوان
بعزته ورحمته . وفى يوم الاثنين الثالث عشر
منه ، دخلنا مولد النبى صلى الله عليه وسلم ،
وهو مسجد حفيل النيان ، وكان دارا
لعبد الله بن عبد المطلب أبى النبى صلى الله عليه
وسلم ، وقد تقدم ذكره .

ومولده صلى الله عليه وسلم صفة صهريج
صغير سعته ثلاثة أشبار ، وفى وسطه رخامة
خضراء سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة ، فتكون
سعتها مع الفضة المتصلة بها شبرا^٢ . ومسحنا

الخدود فى ذلك الموضع المقدس ، الذى هو
مسقط لأكرم مولود على الأرض ، وممس
لأطهر سلالة وأشرفها صلى الله عليه وسلم ،
ونفعنا ببركة مشاهدة مولده الكريم ، وبأزائه
محراب حفيل القرنصة ، مرسومة طرته
بالذهب ، وقد تقدم الوصف لهذا كله .

وهذا الموضع المبارك هو شرقى الكعبة
متصل بصفح الجبل ، ويشرف عليه بقربة منه
جبل أبى قبيس ، وعلى مقربة منه أيضا مسجد
عليه مكتوب : هذا المسجد هو مولد على بن
أبى طالب رضوان الله عليه ، وفيه تربى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وكان دارا لأبى طالب
عم النبى صلى الله عليه وسلم وكافله .

ودخلت أيضا فى اليوم المذكور دار خديجة
الكبرى رضوان الله عليها ، وفيها قبة الوحى ،
وفيها أيضا مولد فاطمة رضى الله عنها ، وهو
بيت صغير مائل للطول ، والمولد شبه صهريج
صغير ، وفى وسطه حجر أسود ، وفى البيت
المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها ، رضى
الله عنهما ، لاصق بالجدار ، ومسقط ثلثو
الحسن لاصق بمسقط ثلثو الحسين ، وعليهما
حجران مائلان الى السواد كأنهما علامتان^١
للمولدين المباركين الكريمين ، ومسحنا الخدود
فى هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمس
بشرات المواليد الكرام رضوان الله عليهم .

وفى الدار المكرمة أيضا مختبأ النبى صلى
الله عليه وسلم ، شبيه القبة ، وفيه مقعد فى
الأرض عميق شبيه الحفرة داخل^٢ فى الجدار
قليلا ، وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط

كأنه يظل المقعد المذكور ، قيل انه كان الحجر الذي كان غطى النبي صلى الله عليه وسلم عند اختبائه فى الموضع المذكور ، صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين . وعلى كل واحد من هذه الموالد ^٢ المذكورة قبة خشب صغيرة تصون الموضع غير ثابتة فيه ، فاذا جاء المبصر لها نحاها ولمس الموضع الكريم وتبرك به ، ثم أعادها عليه .

وفى يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر المذكور ، نفذ أمر الأمير مكثر ^١ بالقبض على زعيم الشييين محمد ابن اسماعيل ، واتهاب منزله ، وصرفه عن حجابة البيت الحرام . ثم ظهره الله - وذلك لهنات نسبت إليه لا تليق بسن نيظت به سدانة البيت العتيق « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » ^١ ، أعادنا الله من سوء القضاء ونفوذ سهام الدعاء بمنه .

وفى هذه الأيام السالفة من الشهر المذكور ، توالى مجئ السرو ^٢ اليميين فى رفاق كثيرة ، بالميرة من الطعام وسواه ، وضروب الأدام والفواكه اليابسة ، فأرغدوا البلد ... ولولاهم لكان من اتصال الجذب وغلاء السعر فى جهد ومشته ، فهم رخصة لهذا البلد الأمين ، ثم توجهوا الى الزيارة المباركة ، الى التربة المباركة طيبة مدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلوا فى أسرع مدة . قطعوا الطريق من مكة الى المدينة فى يسير أيام ، ومن صحبهم من الحاج حمد صحبتهم . وفى أثناء مغيبهم وصلت طوائف آخر منهم للحج خاصة ،

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من الشهر المذكور ، فتح البيت العتيق ^٢ ، وتولى فتحه من الشييين ابن عم الشيى المعزول - هو ^٤ أمثل طريقة منه على ما يذكر - فازدحم السرو للدخول على العادة ، فجاءوا بأمر لم يعهد فيها سلف : يصعدون أفواجا حتى يفض ^٥ الباب الكريم بهم ، فلا يستطيعون تقدما ولا تأخرا الى أن يلجوا على أعظم مشقة ، ثم يسرعون ^٦ الخروج فيضيق الباب الكريم بهم ، فيحدر الفوج ^٧ منهم على المصعد ، وفوج آخر صاعده ، فيلتقيه ^٨ وقد ارتبط بعضهم الى بعض ، فربما حمل المنحدرون فى صدور الصاعدين ، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين ، وتضاغطوا الى أن يميلوا فيقع البعض على البعض ، فيعابن النظارة منهم مرأى هائلا ، فمنهم سليم وغير سليم ، وأكثرهم انما ينحدرون وثبا على الرءوس والأعناق .

ومن أعجب ما شاهدناه فى يوم الاثنين المذكور ، أن سعد بعض من الشييين ، أثناء ذلك الزحام ، يرومون الدخول الى البيت الكريم ، فلم يقدروا على التخلص ، فتعلقوا بأستار حافتى عضادتى الباب ، ثم ان أحدهم تسك باحدى الشرائط ^١ القنينة المسكة للأستار الى أن علا الرؤوس والأعناق ، فوطئها ودخل البيت ، فلم يجد موطئا ^٢ لقدمه سواها لشدة تراصهم وتراكمهم ، وانضمام بعضهم

الى بعض . وهذا الجمع الذى وصل منهم فى هذا العام ، لم يمهّد قط مثله فيما سلف من الأعوام ، والله القدرة المعجزة ^٢ لا اله سواه .

وفى هذا اليوم المذكور ، الذى هو السابع والعشرون من ذى القعدة ، شمرت أستار الكعبة المقدسة الى نحو قامة ونصف من العدر من الجوانب الأربعة ، ويسمون ذلك احراما لها ، فيقولون أحرمت الكعبة ، وبهذا جرت العادة دائما فى الوقت المذكور من الشهر ، ولا تفتح من حين احرامها الا بعد الوقفة ، فكان ذلك التشمير ايدان بالشمير للسفر وايدان بقرب وقت وداعها المنتظر ، لا جملته الله آخر وداع ، وقضى لنا اليها بالعودة وتيسير سبيل الاستطاعة ^٤ بعزته وقدرته .

وفى (يوم) الجمعة الرابع والعشرين قبل هذا اليوم المذكور ، كان دخولنا الى البيت الكريم ، على حال اختلاس وانتهاز فرصة أوجدت بعض فرجة من الزحام ، فدخلناه دخول وداع ، اذ لا يتمكن دخوله بعد ذلك لترادف الناس عليه ^٥ ، ولا سيما الأعاجم الواصلون مع الأمير العراقى ، فانهم يظهرون من التهافت عليه ، والبدار اليه ، والازدحام فيه ، ما ينسى أحوال السرو اليمنيين لفظاظتهم وغلظتهم ، فلا يتمكن لأحد منهم النظر فضلا عن غير ذلك ، والله عز وجل لا يجعله آخر العهد ببيته ^١ الكريم ، ويرزقنا العود اليه على خير وعافية ، بمنه ولطيف صنعه .

وفى يوم احرام الكعبة المذكور ، أقلمت عن موضع المقام المقدس القبة الخشبية التى كانت

عليه ، ووضعت عوضها قبة الحديد اعدادا للأعاجم المذكورين ، لأنها لو لم تكن حديدا لأكلوها أكلا فضلا عن غير ^٢ ذلك ، لما هم عليه من صحة النفوس شوقا ^٣ الى هذه المشاهد المقدسة ، ونطارحهم بأجرامهم عليها ، والله ينفعهم بنياتهم بمنه وكرمه .

وفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور ، جاء زعيم الشيبين المعزول يتهادى بين بنيه زهوا واعجابا ، ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعيد اليه ، ففتح الباب الكريم ، وصعد مع بنيه السطح المبارك الأعلى بأمراس من القنب غليظة يوتقونها فى أوتاد الحديد المضروبة فى السطح ، ويرسلونها الى الأرض ^٤ ، فيربط فيها شبيه محمل من العود ، ويجلس فيه أحد سدة البيت من الشيبين ، فيصعد به على بكرة معدة لذلك فى أعلى السطح المذكور ، فيتولى خياطة ما مزقته الريح من الأستار .

فسألنا عن كيفية صرف هذا الشيبى المعزول الى خطته ، على صحة الهنات المنسوبة اليه ، فأعلمنا أنه صودر عليها بخمسائة دينار مكية استقرضها ودفعها . فطال التعجب من ذلك والاعتبار ، وتحققنا أن اظهار القبض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرّامات الله المنتهكة على يديه ، مع كونها فى خطة دونها الخلافة رفعة ، والحال تشبه بعضها بعضا « وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض » ^٥ ، والى الله المشتكى من فساد ظهر حتى فى أشرف بقاع الأرض ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وفى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذى القعدة المذكور ، دخلنا ^١ دار الخيزران التى كان ^٢ منها منشأ الاسلام ، وهى بازاء الصفا ، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل اليها كان مسكن بلال رضى الله عنه ، ويدخل اليها على حلق كبير ^٣ شبيه الفندق قد أحدثت به بيوت للكرام من الحاج .

والدار المكرمة دار صغيرة ، يجدها الداخل الى الحلق المذكور عن يساره ، وهى مجددة البناء ، أنفق فى بنائها جمال الدين — المذكور أثره الكريم فى هذا المكتوب — نحو الألف دينار ، فعمه الله بما أسلفه من العمل الصالح .

وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه الى قبة كبيرة بديعة البناء ، فيها مقعد النبى صلى الله عليه وسلم والصخرة التى كان اليها مستنده ، وعن يمينه موضع أبى بكر الصديق ، وعن يمين أبى بكر موضع على بن أبى طالب ، والصخرة التى كان اليها مستنده هى ^٤ داخلية فى الجدار كسبه المحراب .

وفى هذه الدار كان اسلام عمر بن الخطاب ، ومنها ظهر الاسلام على يديه وأعزه الله .
فنعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة والآثار المعظمة ، وأمانتنا على محبة الذين شرفت بهم ونسبت اليهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

شهر ذى الحجة عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس ، بسوافقة الخامس عشر من مارس * ، وكان للناس فى ارتقابه أمر عجيب ، وشأن من البهتان غريب ،

ونطق من الزور كاد يعارضه من الجهاد — فضلا عن غيره — رد وتكذيب .

وذلك أنهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفى ثلاثين ، والأفق قد تكاثف نوؤه وتراكم غيمه ، الى أن علت مع المغيب بعض حبرة من الشفق ، قطع الناس فى فرجة من الغيم لعل الأبصار تلتقطه فيها ، فبينما هم كذلك اذ كبر أحدهم ، فكبر الجم الغفير لتكبيره ، ومثلوا قياما ينتظرون مالا يبصرون ، ويشيرون الى ما ^١ يتخللون ، حرصا منهم على أن يكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة ، كأن الحج لا يرتبط الا بهذا اليوم بعينه .

فاختلقوا شهادات زورية ، ومشيت منهم طائفة من المغاربة — أصلح الله أحوالهم — ومن أهل مصر وأربابها ، فشهدوا عند القاضى برؤيته . فردهم أقبح رد ، وجرح شهاداتهم أسوأ تجريح ، وفضحهم فى تزيف أقوالهم أخزى فضيحة ، وقال : يا للمعجب ! لو أن أحدهم يشهد برؤيته ^٢ الشمس ، تحت ذلك الغيم الكثيف النسيج ، لما قبلته ، فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة ! وكان أيضا ما حكى من قوله : تشوشت المغارب ^٣ ، تعرضت شعرة من الحاجب ، فأبصروا خيالا ظنوه هلالا .

وكان لهذا القاضى جمال الدين ، فى أمر هذه الشهادة الزورية ، مقام من التوقف والتحري حمده له أهل التحصيل ، وشكره عليه ذوو العقول . وحق لهم ذلك ، فإنها مناسك الحج للمسلمين عظيمة ، أتوا لها من

كل فج عتيق ، فلو تسومح فيها بطل السعى ،
وقال الراى . والله يرفع الالباس والبأس
بمنه .

فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة ، ظهر
الهلال أثناء فرج السحاب ، وقد اكتسى نورا
من الثلاثين ليلة ، فزعقت العامة زعقات هائلة ،
وتنادت : بوقفة الجمعة ، وقالت : الحمد لله
الذى لم يخيب سعيينا ولا ضيع قصدنا ، كأنهم
قد صح عندهم أن الوقفة ، اذا لم تكن توافق
يوم الجمعة ، ليست مقبولة ولا الرحمة فيها
من الله مرجوة مأمولة ؛ تعالى الله عن ذلك
علوا كبيرا .

ثم انهم يوم الجمعة المذكور اجتمعوا الى
القاضى ، فأدوا شهادات بصفة الرؤية تبكى
الحق وتضحك الباطل ، فردها وقال : يا قوم !
حتى م هذا التماذى فى الشهوة ؟ والى م
تستنون فى طرق الهفوة ؟ وأعلمهم أنه قد
استأذن الأمير مكثرا ١ فى أن يكون الصعود
الى عرفات صبيحة يوم الجمعة ، فيقفوا عشية
بها ، ثم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده ،
ويبيتوا ليلة الأحد بمزدلفة . فان كانت الوقفة
يوم الجمعة ، فما عليهم فى تأخير المبيت بمزدلفة
بأس ، اذ هو جائز عند أئمة المسلمين ، وان
كانت (يوم) السبت فيها ونعمت ، وأما أن يقع
القطع بها يوم الجمعة ، فتفرير بالمسلمين
واقساد لمناسكهم ، لأن الوقفة يوم التروية
عند الأئمة غير جائزة ٢ كما أنها عندهم جائزة
يوم النحر . فشكر جميع من حضر للقاضى
هذا المنزع من التحقيق ، ودعوا له ، وأظهر من

حضر من العامة الرضى بذلك ، وانصرفوا عن
سلام . والحمد لله على ذلك .

وهذا الشهر المبارك هو ثالث الأشهر الحرم
وعشره الأولى مجتمع الأمم ، وموسم الحج
الأعظم : شهر المعج والثج ، وملتقى وفود الله
من كل أوب وفج ، مصاب الرحمة والبركات ،
ومحل الموقف الأعظم بعرفات . جعلنا الله ممن
فاز فيه بالحسنات ، وتعزى به من ملاس
الأوزار والسيئات ، بسمه وكرمه ، انه أهل
التقوى وأهل المغفرة . والأمير العراقى منتظر
لكشف هذا الالباس عن الناس فى أمر الهلال ،
لملة قد اتضح له اليقين فيه ان شاء الله .

وفى سائر هذه الأيام كلها الى هلم جرا ،
تصل رفاق من السرو اليمينين ، وسائر حجاج
الآفاق ، لا يحصى عددها الا محصى آجالها
وأرزاقها لا اله سواه . فمن الآيات البينات أن
يسع هذا الجمع العظيم هذا البلد الأمين ،
الذى هو بطن واد سعته غلوة أو دونها ، ولو
أن المدن العظيمة حمل عليها هذا الجمع
لضاقت عنه .

وما هذه البلدة المكرمة فيما تختص به من
الآيات البينات ، فى اتساعها لهذا البشر
المعجز احصاؤه ، الا كما شبهتها العلماء حقيقة
بأنها ١ تتسع لوفودها اتساع الرحم بمولودها ،
وكذلك عرفات وسائر المشاهد المعظمة بهذا
البلد الحرام ، عظم الله حرمة ، ووزقنا الرحمة
فيه بكرمه وقضله .

ومن أول هذا الشهر المبارك ضربت دباب
الأمير بكرة وعشية ، وفى أوقات الصلوات ،
كانها اشعار بالموسم ، ولا يزال كذلك الى يوم

الصعود الى عرفات ، عرفنا الله بها القبول والرحمة .

وفي يوم الاثنين الخامس او الرابع من هذا الشهر ، وصل الامير عثمان بن علي صاحب عدن ، وخرج منها فاراً أمام سيف الاسلام المتوجه الى اليمن ، وركب البحر في حلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة وأموال لا تحصى كثرة ، لأنه طال مقامه في تلك الولاية واتسع كسبه

وعند خروجه من البحر بموضع يعرف بالصر . . . لحقت جلبيه ، حراريق الأمير سيف الاسلام ، فأخذت جميع ما فيها من الأثقال ، وكان قد استصحب الخفّ النفيس الخطير مع نفسه الى البر ، وهو في جملة من رجاله وعبيده ، فسلم به ، ووصل مكة بعير موقرة متاعا ومالا ، دخلت على أعين الناس الى داره التي ابتناها بها ، بعد أن قدم نفيس ذخائره وباضرة ماله وحيلة رقيقه وخدمه ليلاً ، وبالجمل فحاله لا توصف كثرة واتساعا .

والذي انتهب له أكثر^٢ ، لأنه كان في ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجار ، وكانت المنافع التجارية كلها راجعة اليه ، الذخائر الهندية المجلوبة كلها واصله الى يديه ، فاكتسب سحتاً عظيماً ، وحصل على كنوز قارونية ؛ لسكر حوادث الأيام قد ابتدأت بالخسف به ، ولا يدري حال أمره مع صلاح الدين لما يكون . والدنيا مضيئة محيها ، وآكلة بنيها . وثواب الله خير ذخيرة ، وطاعته أشرف غنيمة ، لا اله سواه .

وبقيت الشهادة مضطربة في أمر هذا الهلال المبارك الميمون ، الى أن . تواصلت الأخبار برؤيته ليلة الخميس ، الذي يوافق الخامس عشر من مارس ، شهد بذلك ثقات من أهل الزهد والورع ، يمنيون وسواهم ، من الواصلين من المدينة المكرمة ، لكن بقي القاضي على ثباته وتوقفه في القبول ، وارجاء الأمر الى وصول المبشر المتعلم بوصول الأمير العراقي ، ليتعرف من قبله ما عند أمير الحاج في ذلك .

فلما كان يوم الأربعاء ، السابع من الشهر المذكور ، وصل المبشر ، وكانت نفوس أهل مكة قد أوجست خيفة لبطئه ، حاذروا من حقد الخليفة على أميرهم مكثراً ، لمدوم فعل صدر عنه . فكان وصول هذا البشير أماناً وتسكيناً للنفوس الشاردة ، فوصل مبشراً ومؤنساً ، وأعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور ، وتواترت الأنباء بذلك .

فصح الأمر عند القاضي بذلك صحة أوجبت خطته في ذلك اليوم — على ما جرت به العادة في اليوم السابع من ذي الحجة ، اثر صلاة الظهر — علم الناس فيها مناسكهم ، ثم أعلمهم أن عدهم هو يوم الصعود الى منى ، وهو يوم التروية ، أن وقتهم يوم الجمعة ، وأن الأثر الكريم فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها تعدل سبعين وقفة ، ففضل هذه الوقفة في الأعوام كفضل يوم الجمعة على سائر الأيام .

فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالصعود الى منى ، وتبادوا منها الى عرفات ، وكانت

السنة المييت بها ، لكن ترك الناس ذلك اضطرارا ، بسبب خوف بنى شعبة المغيرين على الحجاج فى طريقهم الى عرفات . وصدر عن هذا الأمير عثمان ، المتقدم ذكره ، فى ذلك اجتهد ، بل جهاد يرمى له به المغفرة لجميع خطايه ان شاء الله .

وذلك أنه تقدم بجميع أصحابه ، شاكين فى الأسلحة ، الى المضيق الذى بين مزدلفة وعرفات ، وهو موضع ينحصر الطريق فيه بين جبلين ، فينحدر الشعيون من أحدهما - وهو الذى عن يسار المار الى عرفات - فينتهبون الحاج انتهابا . فضرب هذا الأمير قبة فى ذلك المضيق بين الجبلين ، بعد أن قدم أحد أصحابه فصعد الى رأس الجبل بفرسه - وهو جبل كؤود - فمجبنا من شأنه ، وأكثر التعجب من أمر الفرس ، وكيف تمكن له الصعود الى ذلك المرتقى الصعب الذى لا يرتقيه

فأمن جميع الحاج بمشاركة هذا الأمير لهم ، فحصل على أجرين : أجر جهاد وحج ، لأن تأمين وفد الله عز وجل فى مثل ذلك اليوم من أعظم الجهاد . واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليله كلها الى يوم الجمعة كله ، فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى عدده الا الله عز وجل .

ومزدلفة بين منى وعرفات : من منى اليها ما من مكة الى منى ، وذلك نحو خمسة أميال ، ومنها الى عرفات مثل ذلك أو أشف قليلا ، وتسمى المشعر الحرام ، وتسمى جمعا ، فلها ثلاثة أسماء . وقبلها بنحو الميل وادى

محصّر ، وجرت العادة بالهرولة فيه ، وهو حد بين مزدلفة ومنى لأنه معترض بينهما .

ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين ، وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء فى زمان زيدة رحمها الله ، وفى وسط ذلك السيط من الأرض حلق ، فى وسطه قبة ، فى أعلاها ٢ مسجد يصعد اليه على أدراج من جهتين ، يزدهم الناس فى الصعود اليه والصلاة فيه عند ميتهم بها .

وعرفات أيضا بسيط من الأرض. مد البصر ، لو كان محشرا للخلائق لوسمهم ، يحدق بذلك البسيط الأفيح جبال كثيرة ، وفى آخر ذلك البسيط جبل الرحمة ، وفيه وحوله موقف الناس ، والعلمان قبله ٢ بنحو الميلىن ، فما أمام العلمين الى عرفات حل وما دونهما حرم .

وبمقربة منهما ٤ ، مما يلي عرفات ، بطن عثرته الذى أمر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بالارتفاع عنه فى قوله ، صلى الله عليه وسلم : « عرفات كلها موقف ، وارتفعوا عن بطن عثرته »

فالواقف فيه لا يصح حجه ، فيجب التحفظ من ذلك ، لأن الجمالين عشية الوقفة ربما استحثوا كثيرا من الحاج ، وحذروهم الزحمة فى النفر ، واستدروهم بالعلمين ٥ اللذين أمامهم الى أن يصلوا بهم بطن عرّة أو يجيزوه ، فيبطلوا على الناس حجهم . والمتحفظ لا ينفر من الموقف حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس .

وهو أراك أخضر يمتد في ذلك البسيط مع
البصر امتدادا طويلا .

فتكامل جمع الناس بعشرات يوم الخميس
وليلة الجمعة كلها . وفي نحو الثلث الباقي من
ليلة * الجمعة المذكورة ، وصل أمير الحاج
العراقي ، ف ضرب أبيته في البسيط الأفيح ،
مما يلي الجانب الأيمن من جبل الرحمة ، في
استقبال القبلة . والقبلة في عرفات هي الى
مغرب الشمس ، لأن الكعبة المقدسة في تلك
الجهة منها .

فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمع
لا شبيه له الا الحشر ، لكنه — ان شاء الله
تعالى — حشر للشواب ، مبشر بالرحمة والمغفرة
يوم الحشر للحساب . زعم المحققون من
الأشياخ المجاورين أنهم لم يعاينوا قط في
عرفات جمعا أحفل منه ، ولا أرى كان من عهد
الرشد ، الذي هو آخر من حج من الخلفاء ،
جمع في الاسلام مثله . جعله الله جمعا
مرحوما معصوما بعزته

فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة
المذكور ، وقف الناس خاشعين باكين ، والى الله
عز وجل في الرحمة متضرعين ، والتكبير قد
علا ، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع . فما
رؤى يوم أكثر مدامع ، ولا قلوبا خواشع ، ولا
أعناقا لهيبة الله خوانع خواضع ، من ذلك
اليوم . فما زال الناس على تلك الحالة ،
والشمس تلفح وجوههم ، الى أن سقط
قرصها ، وتمكن وقت المغرب .

وجبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال ،
قائم في وسط البسيط ، وهو كله حجارة
منقطعة بعضها عن بعض ، وكان صعب المرتقى ،
فأحدث فيه جمال الدين ، المذكورة ^٢ مآثره
في هذا التقييد ، أدراجا وطية من أربع جهاته ،
يصعد فيها بالدواب الموقورة ^٣ ، وأنفق فيها
مالا عظيما .

وفي أعلى الجبل قبة تنسب الى أم سلمة
رضي الله عنها ^٤ ، ولا يعرف صحة ذلك . وفي
وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه ،
وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدد به ،
فسيح الساحة ، جميل المنظر ، يشرف منه على
بسيط عرفات ، وفي جهة القبلة منه جدار ،
وقد نصبت فيه محاريب يصلي الناس فيها .

وفي أسفل هذا الجبل المقدس — عن
يسار المستقبل للقبلة فيه — دار عتيقة
البنيان ، وفي أعلاها غرف * لها طيقان ،
تنسب الى آدم صلى الله عليه وسلم . وعن
يسار هذه الدار — في استقبال القبلة —
الصخرة التي كان عندها موقف النبي صلى
الله عليه وسلم ، وهي في جبل ^٦ متطامن ،
وحول جبل الرحمة والدار المكرمة ، صهاريج
للماء وجباب ، وعن يسار الدار أيضا — على
مقربة منها — مسجد صغير .

وبمقربة من العلمين — عن يسار مستقبل
القبلة — مسجد قديم فسيح البناء ، بقي منه
الجدار القبلي ، ينسب الى ابراهيم صلى الله
عليه وسلم ، فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة ،
ثم يجمع بين الظهر والعصر . وعن يسار العلمين
أيضا — في استقبال القبلة — وادي الأراك ،

وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين ، ووقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الصغير المذكور . وأخذ السرو اليمنيون مواقعهم بمنازلهم المملوءة لهم في جبال عرفات ، المتوارثة عن جد فجد من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تعدى قبيلة على منزل أخرى ، وكان المجتمع منهم في هذا العام عدداً^١ لم يجتمع قط مثله .

وكذلك وصل الأمير العراقي في جمع لم يصل قط مثله ، ووصل معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين ، ومن النساء العقائل ، المعروفات بالخواتين : واحدتهن خاتون^٢ ومن السيدات بنات الأمراء كثير ، ومن سائر المعجم عدد لا يحصى . فوقف الجميع ، وقد جعلوا قدوتهم في التقدير الامام المالكي ، لأن مذهب مالك رضي الله عنه يقتضى أن لا ينفر حتى يتمكن سقوط القرصة ويحين وقت المغرب ، ومن السرو اليمنيين من نفر قبل ذلك .

فلما أن حان الوقت ، أشار الامام المالكي بيديه ، ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعا ارتجت له الأرض ، ورجفت^١ الجبال . فiales موقفا ما أهول مرآه ، وأرجى في النفوس عقباه^٢ جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه ، وتعمده بنعمه^٣ ، الله معكم كريم حنان منان .

وكانت محلة هذا الأمير العراقي جميلة المنظر ، بهية العدة ، رائقة المضارب والأبنية ، عجبية القباب والأروقة ، على هيات لم ير أبداً منها منظرا . فأعظمها مرآى مضرب

الأمير ، وذلك أنه أحدق به مرادق كالسور من كتان^٢ ، كأنه حديقة بستان ، أو زخرفة بستان ، وفي داخله القباب المضروبة ، وهي كلها سواد في بياض ، مرقشة^٤ ملونة كأنها أزاهير الرياض . وقد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الأربعة كلها أشكال درقية من ذلك السواد المنزل في البياض ، يستشعر الناظر إليها مهابة ، يتخيلها درقا لمنطية قد جللتها مزخرفات الأغشية .

ولهذا السرادق ، الذي هو كالسور المضروب ، أبواب مرتفعة كأنها أبواب^٥ القصور المشيدة ، يدخل منها الى دهايز وتعاريج ، ثم يقضى منها الى الفضاء الذي فيه القباب ، وكان هذا الأمير ساكن في مدينة قد أحدق بها سورها ، تنتقل بانتقاله وتنزل بنزوله ، وهي من الأبنية الملوكية المعهودة^٦ التي لم يعمد مثلها عند ملوك المغرب . وداخل تلك الأبواب حجاب الأمير وخدمه وغاشيته ، وهي أبواب مرتفعة ، يجيء الفارس براكته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تباطؤ ، قد أحكمت إقامة ذلك^٧ كله أمراش وثيقة من الكتان ، تتصل بأوتاد مضروبة ، أدير ذلك كله بتدبير هندسى غريب .

ولسائر الأمراء الواصلين صحة هذا الأمير مضارب دون ذلك ، لكنها على تلك الصفة ، وقباب بديعة المنظر عجبية الشكل ، قد قامت كأنها التيجان المنصوبة ؛ الى ما يطول وصفه ، ويتسع القول فيه ، من عظيم احتفال هذه المحلة في الآلة والعدة ، وغير ذلك مما يدل على

سعة الأحوال ، وعظيم الانخراق فى المكاسب والأموال .

ولهم أيضا فى مراكبهم على الابل قباب تظلمهم بديعة المنظر ، عجيبية الشكل ، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها القشاوات ^١ ، وهى كالتساويت المجوفة ، هى لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال ، تملأ بالفرش الوفيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحاً كأنه فى مهد لين فسيح ، وبازائه معادله أو معادلته فى مثل ذلك من الشقة الأخرى ، والقبة مضروبة عليهما ، فيسار بهما وهما فائمان لا يشعران أو كيف ما أحيا .

فَعدما يصلان الى المرحلة التى يعطان بها ضرب مرادفهما للحين ان كانا من أهل الترفه والتنعم ^٢ ، يدخل بهما الى السرادق وهما ^٣ راكبان ، وينصب لهما كرسى ينزلان عليه ، فينتقلان من ظل قبة المحمل الى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ، ولا خطفة شمس تصيبهما . وناهيك من هذا الترفه ، فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وان بدلت شقته ^٤ نصبا ، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً .

ودون هؤلاء فى الراحة راكبو المحارات ، وهى شبيهة الشقائف التى تقدم وصفها فى ذكر صحراء عيذاب ، لكن الشقائف أبسط وأوسع ، وهذه أضمر وأضيق ، وعليها أيضا ظلال تقي حر الشمس ، ومن قصرت حاله عنها فى هذه الأسفار ، فقد حصل على نصب السفر الذى هو قطعة من العذاب .

ثم يرجع القول الى استيفاء حال النحر عشية الوقفة المذكورة بعرفات ؛ وذلك أن الناس نفروا منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر ، فوصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة ، فجمعوا بها بين العشاءين حسبما جرت به سنة النبى صلى الله عليه وسلم . واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المرسج ، وأما مسجده المذكور فعاد كله نورا ، فيخيل للناظر اليه أن كواكب السماء كلها نزلت به .

وعلى هذه الصفة كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الجمعة ؛ لأن هؤلاء الأعاجم الخراسانيين وسواهم من العراقيين ، أعظم الناس همة فى استجلاب هذا الشمع ، والاستكثار منه اضاءة لهذه المشاهد الكريمة . وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه ، فيدخل منهم كل إنسان بشمعة فى يده ، وأكثر ما يقصدون بذلك حطيم الامام الحنفى ، لأنهم على مذهبه . وشاهدنا منه ^١ شمعا عظيما أحضر ، تنوء الشمعة منه بالعصبة ^٢ كأنه السرو ، وضع أمام الحنفى .

قبات الناس بالمشعر الحرام هذه الليلة ، وهى ليلة السبت ، فلما صلوا الصبح غدوا منه الى منى بعد الوقوف والدعاء ، لأن مزدلفة كلها موقف الا وادى محسر ، ففيه تقع الهولة فى التوجه الى منى حتى يخرج منه . ومن ^٣ مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات ^٤ الجمار وهو المستحب ، ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخيف بنى ، وكل ذلك واسع .

فلما انتهى الناس الى منى ، بادروا لرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم نحرروا أو ذبحوا ، وحلوا من كل شيء الا النساء والطيب

يطوفوا طواف الافاضة . ورُمى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ، ثم توجه أكثر الناس لطواف الافاضة ، ومنهم من أقام الى اليوم^١ الثاني ، ومنهم من أقام الى اليوم الثالث وهو يوم الانحدار الى مكة .

قلما كان اليوم الثاني من يوم النحر ، عند زوال الشمس ، رمى الناس بالجمرة الاولى سبع حصيات ، وبالجمرة الوسطى كذلك ، وبها تين الجمرتين يقفون للدعاء ، وبجمرة العقبة كذلك ، ولا يقفون بها ، اقتداء في ذلك كله بفعل النبي صلى الله عليه وسلم ، فتعود جمرة العقبة في هذين اليومين أخيرة ، وهي يوم النحر أولى^١ منفردة لا يخلط معها سواها .

وفي اليوم الثاني من يوم النحر ، بعد رمى الجمرات ، خطب الخطيب بمسجد الخيف ، ثم جمع بين الظهر والعصر . وهذا الخطيب وصل مع الأمير العراقي ، مقبدا من عند الخليفة للخطبة والقضاء^٢ بمكة على ما يذكر ، ويعرف بتاج الدين ، وظاهر أمره بالادة والبله ، لأن خطبته أعربت عن ذلك ، ولسانه لا يقيم الاعراب .

قلما كان اليوم الثالث ، تعجل الناس في الانحدار الى مكة ، بعد أن كمل لهم رمى تسع وأربعين جمرة : سبع منها يوم النحر بالعقبة وهي المحللة ، ثم إحدى وعشرون في اليوم الثاني بعد زوال الشمس : سبعا سبعا في الجمرات الثلاث ، وفي اليوم الثالث كذلك . وتصر الى مكة : فمنهم من صلى العصر

بالأبطح ، ومنهم من صلاها بالمسجد الحرام ، ومنهم من تعجل فصلى الظهر بالأبطح .

ومضت السنة قديما بإقامة ثلاثة أيام ، بعد يوم النحر ، بمنى لاكمال رمى سبعين حصاة . فوقع التمجيل في هذا الزمان في اليومين ، كما قال الله تبارك وتعالى : « فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه »^٢ ، وذلك مخافة بنى شعبة ، وما يطرأ من حرابة المكين .

وقد كانت في يوم الانحدار المذكور ، بين مبودان أهل مكة وبين الأتراك العراقيين ، جولة وهوشة ، وقعت فيها جسراحات ، وسلت السيوف ، وفوقت القسي ، ورميت سهام ، وانتهب بعض « أمتعة التجار ، لأن منى في تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق : يباع فيها من الجواهر النفيس ، الى أدنى الخرز ، الى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا ؛ لأنها مجتمع أهل الآفاق . فسوى الله شر تلك الفتنة تسكينا لها^١ سريعا ، وكانت عين الكمال في تلك الوقفة الهنيئة ، وكلل للناس حجهم ، والحمد لله رب العالمين .

وفي يوم السبت ، يوم النحر المذكور ، سقيت كسوة الكعبة المقدسة ، من محلة الأمير العراقي الى مكة ، على أربعة جمال . تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية ، والرايات على رأسه ، والطبول تهر^٢ وراءه ، وابن عم الشيبى محمد بن اسماعيل معها ؛ لأنه ذكر أن أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجابة البيت لهنات اشتهرت عنه ، والله يطهر بيته المكرم بمن يرضى من خدامه بئنه . وهذا ابن العم المذكور

هو أشبه طريقة منه وأمثل حالا ، وقد تقدم ذكر ذلك فى العزلة الأولى .

فوضعت الكسوة فى السطح المكرم أعلى الكعبة . فلما كان يوم الثلاثاء ، الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور ، اشتغل الشيبون بأسباليها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسنا ، فى أعلاها رسم أحمر واسع ، مكتوب فيه فى الصنح الموجه الى المقام الكريم — حيث الباب المكرم — وهو وجهها المبارك ، بعد البسلة « ان أول بيت وضع للناس » ، الآية ^٢ ، وفى سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له ، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صفراء بيض ، فيها رسم ^١ بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن ، وذكر الخليفة أيضا .

فكملت كسوتها ، وشمرت أذيالها الكريمة ، صونا لها من أيدي الأعاجم وشدة اجتذابها ، وقوة تهافتها عليها وانكبابها ؛ فلاح للناظرين منها أجمل منظر ، كأنها عروس جلست فى السندس الأخضر . أمتع الله بالنظر اليها كل مشتاق الى لقاءها ، حريص على المشول بفنائها ، بمنه .

وفى هذه الأيام يفتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين ، وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقي ، فظهر من تزارعهم وتطارحهم على الباب الكريم ، ووصول بعضهم على بعض ، وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم فى غدير من الماء ، أمر لم ير أهول منه ، يؤدى الى تلف المهج وكسر الأعضاء .

وهم فى خلال ذلك لا يبالون ولا يتوقفون ، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح ، القاء الفرائش بنفسه على المصباح . فعادت أحوال السرواليمين ، فى دخولهم البيت المبارك على الصفة المتقدمة الذكر ، حال تودة ووقار بالاضافة الى هؤلاء الأعاجم الأغتام ، نفهم الله بنياتهم ، وقد فقد منهم فى ذلك المزدحم الشديد من دنا أجله ، والله يغفر للجميع . وربما زاحمهم فى تلك الحال بعض نسائهم ، فيخرجن وقد فضجت جلودهن طبخا فى مضيق ذلك المعترك الذى حوى بأنفاس الشوق وطيشه ، والله ينفع الجميع بمعتقدده وحسن مقصده ، بعزته .

وفى ليلة الخميس الخامس عشر من الشهر المبارك ، اثر صلاة العتمة ، نصب منبر الوعظ أمام المقام . فصعده واعظ خراسانى ، حسن البشارة ، مليح الاشارة ، يجمع بين اللسانين عربى وعجمى ، فأتى فى الحالين بالسحر الحلال من البيان ، فصيح المنطق ، بارع الالفاظ ؛ ثم يقبل لسانه للأعاجم بلغتهم ، فيهمزهم ^١ اضطرابا ، ويذيعهم زفرات وانتحابا ^٢ .

فلما كانت الليلة الأخرى بعدها ، وضع منبر آخر خلف حطيم الحنفى ، فصعد اثر صلاة العتمة أيضا شيخ أبيض السبال ، رائع الجلال ، بارع التمام فى الفصل ^٣ والكمال ؛ فصعد بخطبة انتظمت آية الكرسي ^٤ كلمة كلمة ، ثم تصرف فى أساليب من الوعظ وأفانين من العلم باللسانين أيضا ، حرك بها القلوب حتى أطارها ، وأورثها احتداما ^٥ بالخشية بعد

استعارها . وفى أثناء ذلك ترشق سهام من المسائل ، فيتلقاها ^٢ بمجن من الجواب السريع البليغ ، فتحار له الأسباب ، وملك كل نفس منه الاغتراب والاعجاب ، فكأنما هو وحى يوحى .

وهذا الذى مثى به وعاظ هذه الجهات المشرقية ، من لقاء المسائل اليهم ، وافاضة ^٣ شائب الامتحان عليهم ؛ من أعجب الأمور المصرية عن غريب شأنهم ؛ والناطقة بسحر بيانهم . وليست فى فن واحد . إنما هى فى فنون شتى ، وربما قصد بها التنغيت والتكثيف ^٤ ، فيأتون بالجواب كخطفة البرق ، وارتداد الطرف . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وبين أيدي هؤلاء الوعاظ قراء ينعمون بالقراءة ، فيأتون بالبحان ^٥ تكسب الجماد طربا وأريحية ، كأنها المزامير الداودية ، فلا تدري ^٦ من أى أحوال هذا المجتمع تعجب ^٧ ، والله يؤتى الحكمة من يشاء ، لا اله سواه .

وسمعت هذا الشيخ الواعظ يسند الحديث الى خمسة من أجداده ، جد عن جد ، نسقا متسلسلا من أبيه اليهم على اتصال ، كلهم له لقب يدل على منزلته من العلم ، ومكانته من التذكير والوعظ ؛ فهو معرق فى الصنعة الشريفة ، تليد المجد فيها .

وفى أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام — نزهة الله وشرفه — سوقا عظيمة : يباع فيه من الدقيق الى العقيق ، ومن البر الى الدر ، الى غير ذلك من السلع ، فكان مبيع الدقيق بدار الندوة الى جهة باب بنى شيبة ،

ومعظم السوق فى البلاط الآخذ من الغرب الى الشمال ، وفى البلاط الآخذ من الشمال الى الشرق ، وفى ذلك من النهى الشرعى ما هو معلوم . والله غالب على أمره لا اله سواه .

وفى عشى يوم الأحد الموفى عشرين من الشهر المذكور ، وهو أول أبريل ^٨ ، كان تبريزنا ^٩ الى محلة الأمير العراقي بالزاهر — وهو على نحو من المليون من البلد — وقد كمل اكترأونا الى الموصل ، وهو أمام بغداد عشرة أيام ، عرفنا الله الخير والخيرة بمنه ، فأقمنا بالزاهر ثلاثة أيام نجدد العهد كل يوم بالبيت العتيق ، ونعيد وداعه .

فلما كان ضحوة يوم الخميس ، الثانى والعشرين من ذى الحجة المذكور ، أقلعت المحلة على تودة ورفق بسبب البطء والتأخر ، ونزلت على نحو ثمانية أميال من الموضع الذى أقلعت منه ، بمقربة من بطن مَرَّ ، والله كفىل بالسلامة والعصمة بمنه .

فكانت مدة مقامنا بمكة — قدسها الله — من يوم وصولنا اليها ، وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين . الى يوم اقلاعنا من الزاهر ، وهو يوم الخميس الثانى والعشرين لذى الحجة من السنة المذكورة ، ثمانية أشهر وثلث شهر ، التى هى — بحسب الزائد والناقص من الأشهر — مائتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يوما سعيدات مباركات — جعلها الله لذاته ، وجعل القبول لها موافقا لمرضاته ، بمنه — غبنا عن رؤية البيت الكريم فيها ثلاثة أيام : يوم عرفة ،

وثانى يوم النحر ، ويوم الأربعاء الذى هو الحادى والعشرون لذى الحجة ٢ ، قبل يوم الخميس ، يوم اقلعنا من الزاهر . والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم ، بمنه .

ثم اقلعنا من ذلك الموضع ، اثر صلاة الظهر من يوم الخميس ، الى بطن مر ، وهو واد خصيب كثير النخل ، ذو عين فوارة سيالة الماء ، تسقى منها أرض تلك الناحية . وعلى هذا الوادى قطر متسع ، وقرى كثيرة وعيون ، ومنه تجلب الفواكه الى مكة — حرسها الله — فأقمنا به يوم الجمعة لسبب عجيب .

وذلك أن الملكة خاتون بنت الأمير مسعود ، ملك الدروب والأرمن وما يلي بلاد الروم ، وهى إحدى الخواتين الثلاث اللاتى وصلن للحج مع أمير الحاج أبى المكارم طاشتكين ، مولى أمير المؤمنين الموجه كل عام من قبل الخليفة ، وله بتولى ١ هذه الخطة نحو الثمانية أعوام أو أزيد .

وخاتون هذه أعظم الخواتين قدرا بسبب سعة مملكة أبيها . والمقصود من ذكر أمرها أنها أسرت من بطن مر ليلة الجمعة الى مكة ، فى خاصة من خدمها وحشمها ، فتفقد موضعها يوم الجمعة المذكور ، فوجه الأمير ثقات من خاصة أصحابه يستطلعونها فى الانصراف ، وأقام بالناس منتظرا لها ، فوصلت غتمة يوم السبت .

وأحيلت ٢ فى سبب انصراف هذه الملكة المترفة قدام الظنئون ، وثلث الخواطر على استخراج سرها المكنون : فمنهم من يقول انها

انصرفت آنفة لبعض ما انتقدته على الأمير ، ومنهم من قال ان نوازع الشوق للمجاورة عطف بها الى المثابة المكربة ، ولا يعلم الغيب الا الله . وكيف ما كان الأمر ، فقد كفى الله العطلة بسببها ، وأطلق سبيل الحاج ، والله الحمد على ذلك .

وأبو هذه المرأة المذكورة ٣ الأمير مسعود كما ذكرناه ، وهو فى بسطة من ملكه ، واتسع من امرته ، يركب له — على ما حقق عندنا — أكثر من مائة ألف فارس . وصهره عليها نور الدين صاحب آمد وما سواها ، ويركب له أيضا نحو اثنى عشر ألف فارس .

ولخاتون هذه أفعال من البر كثيرة فى طريق الحاج : منها سقى الماء للسبيل ، عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ومثلها للزاد ، واستجلبت لما تختص به من الكسوة والأزودة وغير ذلك نحو المائة بغير . وأمرها يطول وصفها ، وسنها نحو خمسة عشرين عاما .

والخاتون الثانية : أم معز الدين صاحب الموصل ، زوج بابك أخى نور الدين ، الذى كان صاحب الشام رحمه الله . ولهذه أفعال كثيرة من البر .

وخاتون الثالثة : ابنة الدقوس : صاحب أصبهان من بلاد خراسان ، وهى أيضا كبيرة القدر ، عظيمة الشأن ، منافسة فى أفعال البر .

وشأنهن جمع عجيب جدا فى ما هن بسبيله من الخير ، والاحتفال فى الأبهة الملوكية .

ثم أقلعنا ظهر يوم السبت الرابع والعشرين
لذى الحجة المذكور ، ونزلنا بمقربة من
عُستفان ، ثم أسرنا إليها نصف الليل ،
وصبحناها بكرة يوم الأحد . وهى فى بسيط
من الأرض بين جبال ، وبها آبار معينة تسب
لعثمان رضى الله عنه ، وشجر المقل فيها كثير ،
وبها حصن عتيق البنيان ذو أبراج مشيدة ،
غير معمور ، قد أثر فيه القدم ، وأوهته قلة
العمارة ولزوم الخراب ، فاجتزأنا بأميال ،
ونزلنا مريحين قائلين .

فلما كان اثر صلاة الظهر أقلعنا الى خليص ،
فوصلناها عشى النهار . وهى أيضا فى ١ بسيط
من الأرض ، كثيرة حدائق النخل ، لها جبل
فيه حصن مشيد فى قنته ، وفى البسيط حصن
آخر قد أثر فيه الخراب ، وبها عين فوارة قد
أحدثت لها أخاديد فى الأرض مسربة ، يستقى
منها على أفواه كالآبار ، يجدد الناس بها الماء
لقلته فى الطريق بسبب القحط المتصل ، والله
يغيث بلاده وعباده ، وأصبح الناس بها مقيمين
يوم الاثنين لارواء الابل واستصحاب الماء .

وهذه الجملة العراقية ٢ ، ومن انضاف إليها
من الخراسانية والمواصلة ٣ وسائر جهات
الآفاق — من الواصلين صحبة أمير الحاج
المذكور — جمع لا يحصى عدده ٤ الا الله
تعالى : يغص بهم البسيط الأفيج ، ويضيق
عنهم ٥ المهمة الصحح ٦ ، فترى الأرض تميد
بهم ميذا ، وتموج بجمعهم ٧ موجا . فتبصر
منهم ٨ بحرا طامى العباب ، مأؤه السراب
وسفته ٩ الركاب ، وشرعه الظلال ١٠ المرفوعة

والقياب . تسير ١١ سير السحب ١ المتراكمة ،
يتداخل ٢ بعضها على بعض ، ويضرب بعضها
جوانب بعض ، فتعاین لها تزامحا فى البراج ٣
المنفسح يهول ويروع ، واصككاكاً نبج
المحارات ٤ فيه بعضه ببعض مقروع . فمن لم
يشاهد هذا السفر العراقى ، لم يشاهد من
أعاجيب الزمان ما يحدث ٥ به ، ويتحف
السامع بغرابته ٦ ، والقدرة والقوة لله وحده .

وحسبك أن النازل فى منزل ٧ من منازل هذه
المحلة متى خرج عنها لبعض حاجة ٨ ، ولم تكن
له دلالة يستدل بها على موضعه ، ضل وتلف ،
وعاد منشودا فى جملة الضوال . وربما اضطر
به ٩ الحال الى الوصول الى مضرب الأمير
ورفع مسأله اليه ، فيأمر أحد المنشدين بيريجه
والهاتفين بأوامره ، ممن قد أعند لذلك ، أن
يردغه خلفه على جبل ، ويطوف به المحلة
العجاجة — وهو قد ذكر له اسمه واسم
جماله ، واسم البلد الذى هو منه — فيرفع
عقيرته بذلك ، معرقا بهذا الضال ١٠ ، ومناديا
باسم الجمال ١١ وبلده ، الى أن يقع عليه
فيؤديه اليه ١٢ ؛ ولو لم يفعل ذلك لكان
آخر عهده بصاحبه ، الا أن يلتقطه التقاطا أو
يقع عليه اتفاقا . فهذا من بعض عجائب شئون
هذه المحلة ، وعجائبها أكثر من أن يحيط بها
الوصف ، ولأهلها من قوة الجدة واليسار
ما يعينهم على ما هم بسيله ، والمملك بيد الله
يؤتيه من يشاء .

ولهؤلاء النسوة ١٣ الخواتين فى كل عام ،
إذا لم يحججن بأنفسهن ، نواضح مسيلة منع

الحاج ، يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل
فى المواضع المرفوف ١٤ فيها الماء فى ١٥ الطريق
كله ، وبعرفات وبالمسجد الحرام فى كل يوم
وليلة ؛ فلهن فى ذلك أجر عظيم ، وما التوفيق
الا بالله جل جلاله .

فتسمع المنادى على النواضح يرفع صوته
بالماء للسبيل ، فيهطع اليه المرملون من الزاد
والماء بقربهم وأباريقهم فيملؤونها : ويقول
المنادى فى اشادته بصوته : أبقي الله الملكة
خاتون ، ابنة الملك الذى من أمره كذا ، ومن
شأنه كذا . ويحليه بحلاه ، اعلنا باسمها
واظهارا لقلعها ، واستجلابا للدعاء لها من
الناس ، والله لا يضع أجر من أحسن عملا .
وقد تقدم تفسير هذه اللفظة خاتون ، وأنها
عندهم بمنزلة السيدة ، أو ما يليق بهذا اللفظ
الملوكى النسائى .

ومن عجيب هذه المحلة أيضا — على عظمتها
وكبرها ، وكونها وجود دنيا بأسرها — أنها
إذا حطت رحالها ونزلت منزلها ، ثم ضرب
الأمير طبله للأنذار بالرحيل — ويسمونه
الكوس — لم يكن بين استقلال الرواحل
بأوقارها ورحالها وركابها الا كلا ولا ، فلا
يكاد يفرغ الناقر من الضربة الثالثة الا
والركائب قد أخذت سبلها ، كل ذلك من قوة
الاستعداد ، وشدة الاستظهار على الأسفار .
والحول والقوة لله وحده ، لا اله سواه .

واسراؤها بالليل بمشاعيل موقدة يسكها
الرجالة بأيديهم ، فلا تبصر قشاوة من القشاوات
الا وأمامها مشعل . فالناس يسرون منها بين

كواكب سيارة ، توضح غسق الظلماء ، وتباهى
بها الأرض أنجم السماء . والمرافق الصناعية ،
وغيرها من المصالح الدينية والمنافع الحيوانية ،
كلها موجودة ١ بهذه المحلة غير معدومة ،
ووصفها يطول ، والأخبار عنها لا تنحصر .

فلما كان ظهر يوم الاثنين اثر الصلاة ، أقلعنا
من خليص مرتحلين ، وتنادى سيرنا الى العشاء
الآخرة ، ثم نزلنا ونمنا نومة خفيفة ، ثم ضرب
الكوس ، فأقلعنا وأسرينا الى ضحى من النهار ،
ثم نزلنا مريحين الى أول الظهر من يوم
الثلاثاء .

ثم أقلعنا من منزلنا ذلك الى واد يعرف
بوادى السمك — اسم يكاد يكون واقعا على
غير مسمى — فنزلناه مع العشاء الآخرة ،
وأصبحنا به مقيمين يوم الأربعاء لتجديد حمل
الماء ، وهو بهذا الوادى فى مستنقعات ١ ،
وربما حفر عليه فى الرمل .

فأقلعنا منه أول ظهر يوم الأربعاء المذكور ،
ثم أجزنا مع الليل عقبة محجرة كؤودا ذهب
فيها من الجمال كثير ، ونزلنا فى بسيط من
الأرض ، ونمنا الى نصف الليل ، ثم رحلنا فى
مهمته أفيح بسيط ممتد مد البصر ورملة
منشالة ، فمشت الجمال فيهادون مقطرة لانفساح
طريقها . ثم نزلنا مريحين قائلين يوم الخميس
التاسع والعشرين من ذى الحجة ، وبيننا وبين
بدر مقدار مرحلتين .

فلما كان أول الظهر رحلنا الى مقربة من
بدر ، فنزلنا بائتين ، ثم قمنا قبل نصف الليل ،
فوصلنا بدرا وقد ارتفع النهار . وهى قرية

شهر محرم سنة ثمانين وخمسائة
عرفنا الله بركته وبركة سنته

استهل هلاله ليلة السبت ، بموافقة الرابع
عشر لشهر أبريل ، ونحن مقلعون من بدر الى
الصفراء . فبتنا باستهلاله بهذه البقعة الكريمة
بدر ، حيث نصر الله المسلمين وقهر المشركين ،
والحمد لله على ذلك .

وكان نزولنا بالصفراء اثر صلاة العشاء
الآخرة ، فأصبحنا يوم السبت - مستهل
الهلال المذكور - مقيمين مريحين بها ، ليتزود
الناس منها الماء ، ويأخذوا نفس استراحة الى
الظهر ، ومنها الى المدينة المكرمة ان شاء الله
ثلاثة أيام .

فأقلعنا منها ظهر يوم السبت المذكور ،
وتمادى السير بنا الى اثر صلاة العشاء الآخرة ،
والطريق في واد متصل بين جبال ، فنزلنا
ليلة الأحد .

ثم أقلعنا نصف الليل ، وتمادى سيرنا الى
ضحي من النهار ، فنزلنا مريحين قائلين بئر
ذات العلم ٢ ، ويقال ان على بن أبي طالب
رضي الله عنه قاتل الجن بها ، وتعرف أيضا
بالروحاء . والبئر المذكورة متناهية بُعد
الرشاء ، لا يكاد يلحق قعرها ، وهي معينة .

ورحلنا منها اثر صلاة الظهر من يوم
الأحد ، وتمادى بنا السير الى اثر صلاة العشاء
الآخرة ، فنزلنا شعب على رضي الله عنه ،
وأقلعنا منه نصف الليل الى قربان الى
البيداء ، ومنها تبصر المدينة المكرمة ، فنزلنا

فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن في ربوة
مرتفعة ، ويدخل اليها على بطن واد بين جبال ،
ويبدر عين فوارة ، وموضع القلب - الذي
كان بازائه الوقعة الاسلامية التي أعزت الدين
وأذلت المشركين - هو اليوم نخيل ، وموضع
الشهداء خلفه .

وجبل الرحمة الذي نزلت فيه الملائكة عن
يسار الداخل منها الى الصفراء ، وبازائه جبل
الطبول ، وهو شبيه كتيب ٢ رمل متد . وهذه
التسمية لاشاعة لهج بها أكثر المسلمين ، وذلك
أنهم يزعمون أن أصوات الطبول تسمع بها
كل (يوم) جمعة ، كأنها آثار انذارات باقية
بما سلف من النصر النبوي في ذلك الموضع ،
والله أعلم بغيبه .

وموضع عرش النبي صلى الله عليه وسلم
يتصل بسفح جبل الطبول المذكور ، وموضع
الوقعة أمامه ، وعند نخيل القلب مسجد
يقال انه مبارك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم .
وصح عندنا - على زعمة أحد الأعراب
الساكنين ببدر - أنهم يسمعون أصوات
الطبول بالجبل المذكور ، لكن عين لذلك كل
يوم اثنين ويوم خميس . فعجبنا من زعمه كل
العجب ، ولا يعلم حقيقة ذلك الا الله تعالى .

وبين بدر والصفراء بريد ، والطريق اليها
في واد بين جبال تتصل بها حدائق النخيل ،
والعيون فيه كثيرة ، وهو طريق حسن .
وبالصفراء حصن مشيد ، ويتصل به حصون
كثيرة : منها حصنان يعرفان بالتوأمين ،
وحصن يعرف بالحسنية ، وآخر يعرف
بالجديد ١ الى حصون كثيرة وقرى متصلة .

ضحى يوم الاثنين ، الثالث لمحررم المذكور ،
بوادى العقيق ، وعلى شفيره مسجد ذى
الحليفة ، من حيث أحرم رسول الله صلى الله
عليه وسلم . والمدينة من هذا الموضع على
خمس أميال ، ومن ذى الحليفة حرم المدينة
الى مشهد حمزة الى قباء . وأول ما يظهر
للعين منارة مسجدتها بيضاء مرتفعة .

ثم رحلنا منها اثر صلاة الظهر من يوم
الاثنين المذكور - وهو السادس عشر
لابريل - فنزلنا بظاهر المدينة الزهراء ،
والتربة البيضاء ، والبقة المشرفة بمحمد سيد
الأنبياء صلى الله عليه وسلم صلاة تتصل مع
الأحياء والآباء .

وفى عشي ذلك اليوم ، دخلنا الحرم المقدس
لزيرة الروضة المكرمة المطهرة ، فوقنا بازائها
مسلمين ، ولترب جناتها المقدسة مستلمين ،
وصلينا بالروضة التى بين القبر المقدس
والمنبر ، واستلمنا أعواد المنبر القديمة ، التى
كانت موطاً الرسول صلى الله عليه وسلم ،
والقطعة الباقية من الجذع الذى حنّ اليه
صلى الله وسلم عليه ، وهى ملصقة فى عمود
قائم امام الروضة الصغيرة التى بين القبر
والمنبر ، وعن يمينك اذا استقبلت القبلة فيها ،
ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة

وكان من الاتفاق السعيد لنا أن وجدنا
بعض فسحة فى تلك الحال ، لاشتغال الناس
بإقامة مضاربهم وترتيب رحالهم ، فتمكننا من
الغرض المقصود ، وفزنا بالمشهد المحمود ،
وأدينا حق السلام على صاحبين الضجيجين :
سيدى القاسم ، وفاروقه .

وانصرفنا الى رحانا مسرورين ، ولنعمة الله
علينا شاكرين ، ولم يبق لنا أمل من آمال
وجهتنا المباركة ولا وطر الا وقد قضيناها ،
ولا غرض من أغراضنا المأمولة الا وبلغناه ،
وتفرغت الخواطر للاياب للوطن . نظم الله
الشمل ، وتم علينا الفضل ، والحمد لله على
ما أولاه وأسده ، وأعاده من جميل صنعه
وأبداه ، فهو أهل الحمد والشكر ومستحقه ،
لا اله سواه .

ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم
وذكر روضته المقدسة المطهرة

المسجد المبارك مستطيل ، وتحفه ١ من
جہاته الأربع بلاطات مستديرة به ، ووسطه
كله صحن مفروش بالرمل والحصى : فالجهة
القبلىة منها لها خمسة ٢ بلاطات مستطيلة من
غرب الى شرق ، والجهة الجوفية ٣ لها أيضا
خمس بلاطات على الصفة المذكورة ، والجهة
الشرقية لها ثلاثة بلاطات ، والجهة الغربية لها
أربعة بلاطات .

والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلىة
مسا يلى الشرق ، وانتقلت من بلاطاته مسا
يلى الصحن فى السعة اثنين ونيف ٤ الى
البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ، ولها
خمس أركان بخمس صفحات ، وشكلها
شكل عجب لا يكاد يتأتى تصويره ولا
تمثيله ، والصفحات الأربع محرفة من القبلة
تحريفاً بديعاً ، لا يتأتى لأحد معه استقبالها فى
صلاته لأنه ينحرف عن القبلة

وأخبرنا الشيخ الامام العالم الورع ، بقية العلماء وعمدة الفقهاء ، أبو ابراهيم اسحاق ابن ابراهيم التوسلي رضى الله عنه : أن عمر ابن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، اخترع ذلك فى تدبير بنائها ، مخافة أن يتخذها الناس مصلى .

وأخذت أيضا من الجهة الشرقية سعة بلاطين * ، فانتظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة ، وسعة الصفحة القبلىة منها أربعة وعشرون شبرا ، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون ٦ شبرا . وما بين الركن الشرقى الى الركن الجوفى ٧ صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبرا ، ومن الركن الجوفى الى الغربى صفحة سعتها ٨ تسعة وثلاثون شبرا ، ومن * الركن الغربى ١ الى القبلى صفحة سعتها ٢ أربعة وعشرون شبرا .

وفى هذه الصفحة صندوق آبنوس مختم بالصندل ، مصفح بالفضة مكوكب بها ٢ ، هو قبالة رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، وطوله خمسة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وارتفاعه أربعة أشبار . وفى الصفحة التى بين الركن الجوفى والركن الغربى ، موضع عليه ستر مسبل ، يقال انه كان مهبط جبريل عليه السلام ٤ .

فجميع سعة الروضة المكرمة ، من جميع جهاتها ، مائتا * شبر واثنا وسبعون شبرا . وهى مؤزرة بالرخام البديع النحت ، الرائع الثمت ، وينتهى الازار منها الى نحو الثلث أو أقل يسيرا ، وعليه من الجدار المكرم ثلث

آخر ، قد علاه تضييخ المسك والطيب ، مقدار نصف شبر ، مسودا مشققا متراكما ٦ مع طول الأزمنة والأيام ، والذي يعلوه من الجدار شبائيك عود متصلة بالمسك الأعلى ، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بمسك المسجد . والى حيز ازار الرخام تنتهى الأستار ، وهى لازوردية اللون ، مختمة بخواتيم ٧ بيض مشنة ومربعة ، وفى داخل الخواتيم دوائر مستديرة ونقط بيض تحف بها ، فننظرها منظر رائع ٨ بديع الشكل ، وفى أغلاها رسم مائل الى البياض .

وفى الصفحة القبلىة ، أمام وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، مسمار فضة هو قبالة ٩ الوجه الكريم ١٠ ، فيقف الناس أمامه للسلام . والى قدميه ١١ صلى الله عليه وسلم - رأس أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ورأس عمر الفاروق مما يلى كنفى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم ، ثم ينصرف يمينا الى وجه أبى بكر ، ثم الى وجه عمر رضى الله عنهما .

وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة ، وفيها اثنا من ذهب . وفى جوفى الروضة المقدسة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب ، قيل انه كان بيت فاطمة رضى الله عنها ، ويقال هو قبرها ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم ، ومنه اليها اثنتان وأربعون خطوة ، وهو فى

الحوض المبارك الذى طوله أربع عشر خطوة وعرضه ست خطا ، وهو مرخم كله ، وارتفاعه ٢ شبر ونصف ، وبينه وبين الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر - وفيها جاء ٣ الأثر انها روضة من رياض الجنة - ثمانى ٤ خطوات .

وفى هذه الروضة يتزاحم الناس للصلاة ، وحق لهم ذلك . وبازائها لجهة القبلة عمود يقال انه مطبق ٥ على بقية الجذع الذى حن للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقطعة منه فى وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ، ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح خدودهم فيها ، وعلى حافظتها فى القبلة منها الصندوق .

وارتفاع المنبر الكريم نحو القامة أو أزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجة ثمانية ، وله باب على هيئة الشباك مقفل ٦ يفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر . والمنبر مغشئ بعمود الأبنوس ، ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر ، قد طبق عليه بلوح ٧ من الأبنوس غير ٨ متصل به يصوته من القعود عليه ، فيدخل الناس أيديهم اليه ، ويتمسحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم .

وعلى رأس رجل المنبر اليمنى ٩ حيث يضع الخطيب يده اذا خطب ، حلقة فضة مجوفة مستطيلة ١ - تشبه حلقة الخياط التى يضعها فى أصبعه صفة لا صفرا ١ لأنها أكبر منها - لاعبة تستدير فى موضعها ، يزعم الناس أنها

لعبة الحسن ٢ والحسين رضى الله عنهما فى حال خطبة جدهما صلوات الله وسلامه عليه .

وطول المسجد الكريم مائة خطوة وست وتسعون خطوة ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعدد سواريه مائتان وتسعون . وهى أعمدة متصلة بالسك دون قسى تنعطف عليها ، فكأنها دعائم قوائم ، وهى من حجر منحوت قطعاً قطعاً ، مللمة مثقبة ٤ توضع أثنى فى ذكر ٥ ، ويفرغ بينهما الرصاص المذاب ٦ الى أن تتصل ٧ عموداً قائماً ، وتكسى بغلالة جيار ٨ ، ويخالخ فى صقلها ودلكها ، فتظهر كأنها رخام أبيض .

والبلاط المتصل بالقبلة ، من الحمة ٩ بلاطات المذكورة ، تحف به ستصورة تكتنفه طولاً من غرب الى شرق ، والمحراب فيها ، ويصلى ١٠ الامام فى الروضة الصغير المذكورة الى جانب ١١ الصندوق ، وبينهما وبين الروضة والقبر المقدس محمل كبير ١٢ مدهون ، عليه مصحف كبير فى عشاء مقفل عليه ، هو أحد المصاحف الأربعة التى وجه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه الى البلاد .

وبازاء المقصورة ، الى جهة الشرق ، خزانتان كبيرتان ، محتويتان ١٣ على كتب ومصاحف موقوفة ١٤ على المسجد المبارك ، يليهما ١٥ فى البلاط الثانى ، لجهة الشرق أيضاً ، دفة مطبقة على وجه الأرض ، مقفلة هى على سرداب يهبط اليه على أدراج تحت الأرض ، يفضى ١٦ الى خارج المسجد الى دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو كان طريق

الصنعة غريبة ، تضمنت تصاوير أشجار
مختلفات * الصفات ، مائلات ^١ الأغصان
بشورها .

والمسجد كله على تلك الصفة ^٢ ، لكن
الصنعة في جدار القبلة أحفل ، والجدار
الناظر الى الصحن من جهة القبلة كذلك ،
ومن جهة الجوف أيضا ، والغربي والشرقي
الناظران الى - الصحن مجردان أبيضان ^٣
ومقرنصان ، قد زينا برسم يتضمن أنواعا من
الأصبغة ؛ الى ما يطول وصفه وذكره من
الاحتفال في هذا المسجد المبارك ، المحتوى
على التربة الطاهرة المقدسة ، وموضوعها
أشرف ، ومعلها أرفع من كل ما تزين به .

وللمسجد المبارك تسعة عشر بابا ، لم يبق
منها مفتحا ^٤ سوى أربعة في الغرب : منها
اثنان يعرف الواحد بباب الرحمة ، والثاني
بباب الخشية ^٥ ، وفي الشرق اثنان يعرف
الواحد بباب جبريل عليه السلام ، والثاني
بباب الرخاء ^٦ ، ويقابل باب جبريل عليه
السلام دار عثمان رضى الله عنه ، وهى التى
استشهد بها ، ويقابل الروضة المكرمة من هذه
الجهة الشرقية روضة جمال الدين الموصلى
رحمه الله ، المشهور خبره وأثره ، وقد تقدم
ذكر مآثره .

وأمام الروضة المكرمة شباك حديد مفتوح
الى روضته ، تتسم * منها روحا وريحانا ،
وفى القبلة باب واحد صغير ^٧ مفلق ، وفى
الجوف أربعة مغلقة ، وفى الغرب خمسة مغلقة

عائشة اليها ، وبازائها دار عمر بن الخطاب ،
ودار ابنه عبد الله رضى الله عنهما . ولا شك أن
ذلك الموضع هو موضع الخوخة المفضية لدار
أبى بكر التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم
بإبقائها ^٨ خاصة .

وأمام الروضة المقدسة أيضا صندوق كبير ،
هو للشمع والأتوار التى توقد أمام الروضة
كل ليلة . وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من
عود ، هو موضع مبيت بعض السدنة
الحارسين للمسجد المبارك . وسدنته فتيان
أحايش وصقالب ظراف الهيئات ، نظاف
الملابس والشارآت ، والمؤذن الراتب فيه أحد
أولاد بلال رضى الله عنه .

وفى جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدثة
جديدة تعرف بقبة الزيت ، هى مخزن لجميع
آلات المسجد المبارك وما يحتاج اليه فيه ،
وبازائها فى الصحن خمس عشرة نخلة ، وعلى
رأس المحراب الذى فى جدار القبلة - داخل
المقصورة - حجر مربع أصفر ، قدر شبر فى
شبر ، ظاهر البريق والبصيص ، يقال انه كان
مرآة كسرى ، والله أعلم بذلك . وفى أعلاه ،
داخل المحراب ، مسمار مثبت فى جدار ،
فيه شبه حق صغير لا يعرف من أى شئ
هو ، ويؤمن أيضا أنه كان كأس كسرى ، والله
أعلم بحقيقة ذلك كله .

ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع
أزارا على أزار ، مختلف الصنعة واللون ،
مجزع أبدع تجزيع . والنصف الأعلى من
الجدار منزل ^٩ كنه بفصوص الذهب المعروفة
بالسيفساء ، قد ألتج الصانع ^{١٠} فيه نتائج من

أيضا ، وفى الشرق خمسة أيضا مغلقة ؛
فكملت بالأربعة المفتوحة تسعة عشر بابا .

وللمسجد المبارك ثلاث صوامع : أحداها
فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة ، والاثنان ٢
فى ركنى الجهة الجوفية ٨ صغيرتان ، كأنهما
على هيئة ٩ برجين ، والصومعة الأولى
المذكورة على هيئة الصوامع .

ذكر المشاهد المكرمة التى ببقيع الفرقد وصفح جبل احد

فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزة رضى
الله عنه - وهو بقبلى الجبل المذكور ،
والجبل جوفى المدينة ، وهو على مقدار ثلاثة
أميال - وعلى قبره رضى الله عنه مسجد
مبنى ، والقبر برحبة جوفى المسجد *
والشهداء رضى الله عنهم بازائه ، والغار الذى
أوى اليه النبى صلى الله عليه وسلم بازاء
الشهداء أسفل الجبل ، وحول الشهداء تربة
خمراء هى التربة التى تنسب الى حمزة ،
ويتبرك الناس بها .

وبقيع الفرقد شرقى المدينة ، تخرج اليه
على باب يعرف بباب البقيع ، وأول ما تلقى
عن يسارك - عند خروجك من الباب
المذكور - مشهد صفيّة عمة النبى صلى الله
عليه وسلم ، أم الزبير بن العوام رضى الله
عنه . وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس
الإمام المدنى رضى الله عنه ، وعليه قبة صغيرة
مختصرة البناء ، وأمامه قبر السلالة الطاهرة
إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعليه
قبة بيضاء ، وعلى اليمين منها تربة ابن لعسر

ابن الخطاب رضى الله عنه ، اسمه عبد الرحمن
الأوسط ، وهو المعروف بأبى شحمة ، وهو
الذى جلده أبوه الحد ، فمرض ومات رضى
الله عنهما .

وبازائه قبر ١ عقيل بن أبى طالب رضى الله
عنه ، وعبد الله ابن جعفر الطيار رضى الله
عنه ، وبازائهم روضة فيها أزواج النبى صلى
الله عليه وسلم ، وبازائها روضة صغيرة فيها
ثلاثة من أولاد النبى صلى الله عليه وسلم .

ويليها روضة العباس بن عبد المطلب ،
والحسن بن على رضى الله عنهما ، وهى قبة
مرتفعة فى الهواء ، على مقربة من باب البقيع
المذكور ، وعن يمين الخارج منه ، ورأس
الحسن الى رجلى العباس رضى الله عنهما .
وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان ،
مغطيان بالواخ ملصقة أبدع الصاق ، مرصعة
بصفائح الصفر ، ومكوكبة بمسامير ٢ على
أبدع صفة وأجمل منظر ، وعلى هذا الشكل
قبر إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم .

ويلي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة
بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعرف
ببيت الحزن ، يقال انه الذى أوت اليه ،
والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى
صلى الله عليه وسلم .

وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم
ذى النورين رضى الله عنه ، وعليه قبة صغيرة
مختصرة . وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة
أسد ، أم على رضى الله عنها وعن بنينا ،
ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى ،

لأنه مدفن^١ الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم أجمعين وعلى قبر فاطمة المذكورة مكتوب « ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أحمد رضى الله عنها وعن بنينا » .

وقبأ قبلى المدينة ، ومنها إليها نحو الميلى ، وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة ، والطريق إليها بين حدائق النخل المتصلة ، والنخل محدد بالمدينة من جهاتها ، وأعظمها^٢ جهة القبلة والشرق ، وأقلها جهة الغرب .

والمسجد المؤسس على التقوى بقبأ مجدد ، وهو مربع مستوى الطول والعرض ، وفيه منذنة طويلة بيضاء تظهر على بعد ، وفي وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه حلق قصير شبه روضة صغيرة يتبرك الناس بالصلاة^٣ فيه ، وفي صحنه ميا يلى القبلة شبه محراب على مصطبة ، هو أول موضع ركع فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي قبلته محارب ، وله باب واحد من جهة الغرب ، وهو سبعة^٤ بلاطات فى الطول ومثلها فى العرض .

وفى قبلة المسجد دار لبني النجار ، وهى دار أبى أيوب الأنصارى . وفى الغرب من المسجد رحبة فيها بئر ، وبازائها* على الشفير حجر متسع شبه البيلة ، يتوضأ الناس فيه . ويلي دار بني النجار دار عائشة رضى الله عنها ، وبازائها دار عمر ، ودار فاطمة ، ودار أبى بكر رضى الله عنهم ، وبازائهما* بئر أريس ، حيث تفل النبي صلى الله عليه وسلم ، فعاد مأواها^٦ عذبا بعد ما كان أجاجا ، وفيها^٧

وقع خاتمه من يد عثمان رضى الله عنه ، والحديث مشهور .

وفى آخر القرية تل مشرف يعرف بعرفات^٨ ، يدخل إليه^٩ على دار الصفة - حيث كان عمار وسلمان وأصحابهما المعروفون بأهل الصفة - وسمى ذلك التل عرفات ، لأنه كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة^{١٠} ، ومنه زويت له الأرض ، فأبصر الناس بعرفات . وآثار هذه القرية المكرمة ومشاهدها كثيرة لا تحصى

والمدينة المكرمة أربعة أبواب ، وهى تحت سورين ، فى كل سور باب يقابله آخر ، الواحد منها كله حديد ، ويعرف باسمه باب الحديد ، ويليه باب الشريعة ، ثم باب القبلة وهو مغلوق ، ثم باب البقيع وقد تقدم ذكره .

وقبل وصولك سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة ، تلقى الخندق الشهير ذكره ، الذى صنع^١ النبي صلى الله عليه وسلم عند تحزب الأحزاب ، وبينه وبين المدينة عن يمين الطريق العين المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعليها^٢ حلق عظيم مستطيل^٣ .

ومنبع العين وسط ذلك الحلق كأنه الحوض المستطيل ، وتحت^٤ سقائتان مستطيلتان باستطالة الحلق ، وقد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض المذكور بجدار ، فحصل الحوض محدقا بجدارين ، وهو يمد السقائتين المذكورتين ، ويهبط إليهما على أدراج عددها نحو الخمسة والعشرين درجا .

وماء هذه * العين المباركة يعم أهل الأرض ،
فضلا عن أهل المدينة ، فهي تطهر الناس
واستقائهم وغسل أثوابهم . والحوض المذكور
لا يتناول فيه غير الاستقاء خاصة ، صونا له
ومحافظة عليه ، وبمقربة منه مما يلي المدينة
قبة حجر الزيت ، يقال ان الزيت رشح للنبي
صلى الله عليه وسلم من ذلك الحجر ، ولجهة
الجوف منه بئر بضاعة ، وبازائها لجهة اليسار
جبل الشيطان ، حيث صرخ - لعنه الله -
يوم أحد ، حين قال : قتل نبيكم .

وعلى شفير الخندق المذكور حصن يعرف
بحصن العزاب ^٦ ، وهو خرب ، قيل ان عمر
رضي الله عنه بناه لعزاب المدينة ، وأمامه لجهة
الغرب على البعد ^٧ بئر رومة ، التي اشترى
نصفها عثمان رضي الله عنه بعشرين ألفا . وفي
طريق أحد مسجد على رضى الله عنه ، ومسجد
سلمان رضي الله عنه . ومسجد الفتح الذي
أنزل فيه على النبي صلى الله عليه وسلم
سورة الفتح .

وللمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب
الحديد ، يهبط إليها على أدراج ، وماؤها
معين ، وهي بمقربة من الحرم الكريم ^٨ .
وبقبل هذا الحرم المكرم دار امام دار الهجرة
مالك ابن أنس ^٩ رضي الله عنه ، ويظف بالحرم
كله شارع مبلط بالحجر المنحوت المفروش .

فهذا ذكر ما تمكن على الاستعجال من آثار
المدينة المكرمة ومشاهدها ، على جهة الاقتضاب
والاختصار ، والله ولي التوفيق .

ومن عجب ما شاهدناه من الأمور البديعة ،
الداخلية مدخل السمعة والشهرة ، أن إحدى
الخواتين المذكورات - وهي بنت الأمير
مسعود المتقدم ذكرها وذكر أبيها - وصلت
عشي يوم الخميس السادس لمحرم ، ورابع يوم
وصولنا ، الى مسجد رسول الله صلى الله عليه
وسلم راكبة في قبتها ، وحولها قباب كرائنها
وخدمها ، والقراء أمامها ، والفتيان والصقالب
بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ،
ويدفعون الناس أمامها ، الى أن وصلت الى
باب المسجد المكرم .

فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها ، ومشت
الى أن سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم ،
والخول أمامها والخدام يرفعون أصواتهم
بالدعاء لها اشادة بذكرها . ثم وصلت الى
الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر ،
فصلت فيها تحت الملحفة ، والناس يتزاحمون
عليها ، والمقامع تدفعهم عنها ، ثم صلت في
الحوض بازاء المنبر .

ثم مشيت الى الصفحة الغربية من الروضة
المكرمة ، فقمعدت في الموضع الذي يقال انه
كان مهبط جبريل عليه السلام ، وأرخى الستر
عليها ، وأقام فتيانها وصقالبها وحجابها على
رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها ، واستجلبت
معها الى المسجد حملين من المتاع للصدقة ،
فما زالت في موضعها الى الليل .

وقد وقع الايذان بوصول صدر الدين ،
رئيس الشافعية الأصمباني ، الذي ورث
النباهة ، والوجاهة في العلم كابرا عن كابر ،

لعمد مجلس وعظ تلك الليلة - وكانت ليلة الجمعة السابع من المحرم - فتأخر وصوله الى هذه من الليل ، والحرم قد غص بالمنتظرين ، والخاتون جالسة موضعا . وكان سبب تأخره تأخر أمير الحجاج ، لأنه كان على عدة من وصوله الى أن وصل ، ووصل الأمير .

وقد أعد لرئيس العلماء المذكور - وهو يعرف بهذا الاسم ، توارثه عن أب فأب - كرسي بازاء الروضة المقدسة فصعده ، وحضر قراؤه أمامه ، فابتدروا القراءة^١ بنغمات عجيبة ، وتلاحين مطربة مشجية ، وهو يلحظ الروضة المقدسة ، فيعلن بالبكاء .

ثم أخذ في خطبة من انشائه سحرية البيان ، ثم سلك في أساليب من الوعظ باللسانين ، وأنشد أبياتا بديعة ، من قوله منها هذا البيت ، وكان يردده في كل فصل من ذكره صلى الله عليه وسلم ، ويشير الى الروضة :

هاتيك روضته تفوح نسima

صلوا عليه وسلموا تسليما

واعتذر من التقصير لهول ذلك المقام ، وقال عجباً للألكن الأعجم^٢ كيف ينطق عند أفصح العرب !

وتمادى في وعظه الى أن أطار النفوس خشية ورقة . وتهافتت عليه الأعاجم معلنين بالتوبة^٣ ، وقد طاشت ألبابهم ، وذهلت عقولهم ، فيلقون^٤ نواصيهم بين يديه ، فيستدعي جلين ويجزها^٥ ناصية ناصية ، ويكسو عمامته المجزوز الناصية ، فيوضع عليه للحين عمامة أخرى من أحد قرائه أو

جلسائه ، ممن قد عرف منزعه الكريم في ذلك ، فبادر بعمامته لاستجلاب العرض النفيس لمكارمه الشهيرة عندهم ، فلا يزال يخلع واحدة بعد أخرى الى أن خلع منها عدة ، وجز نواصي كثيرة .

ثم ختم مجلسه بأن قال : معشر الحاضرين قد تكلمت لكم ليلة بحرم الله عز وجل ، وهذه الليلة بحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا بد للواعظ من كدية ، وأنا أسألكم حاجة ان ضمنتموها لي أرقت لكم ماء وجهي في ذكرها . فأعلن الناس كلهم بالاسعاف وشهيقهم قدعلا ، فقال : حاجتي أن تكشفوا رؤوسكم ، وتبسطوا أيديكم ، ضارعين لهذا النبي الكريم في أن يرضى عني ، ويسترضى الله عز وجل لي .

ثم أخذ في تعداد ذنوبه ، والاعتراف بها . فأطار الناس عمائمهم^١ ، وبسطوا أيديهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، داعين له باكين متضرعين . فما رأيت ليلة أكثر دموعا ، ولا أعظم خشوعا من تلك الليلة . ثم انفض المجلس ، وانفض الأمير ، وانفضت الخاتون من موضعها . وعند وصول صدر الدين المذكور ، أزيل الستر عنها ، وبقيت بين خدمها وكرائمها متلغفة في ردائها ، فعائنا من أمرها في الشهرة الملوكة عجباً .

وأمر هذا الرجل صدر الدين عجيب ، في قعوده وأبنته وملوكيته ، وفخامة آله وبهاء حالته ، وظاهر مكنته ، ووفور عدته ، وكثرة عبيده وخدمته ، واحتفال حاشيته وغاشيته . فهو من ذلك على حال يقصر عنها الملوك ، وله

مضرب كالتاج العظيم فى الهواء ، مفتوح على أبواب على هيئة غريبة الوضع ، بديعة الصنعة والشكل ، تظل على المحلة من بعد ، فتبصره ساميا فى الهواء .

وشأن هذا الرجل العظيم لا يستوعبه الوصف . شاهدنا مجلسه فرأينا رجلا يذوب طلاقة وبشرا ، ويخف للزائر كرامة وبراً ، على عظيم حرمة وفخامة بيته ، وهو قد أعطى البسطين علما وجسما . استجزناه فأجازنا ثرا ونظما ، وهو أعظم من شاهدنا بهذه الجهات .

وفى يوم الجمعة المذكور ، وهو السابع من محرم ، شاهدنا من أمور البدعة أمرا ينادى له الاسلام بالله ياللمسلمين ! وذلك أن الخطيب وصل للخطبة ، فصعد منبر النبى صلى الله عليه وسلم . وهو — على ما يذكر — على مذهب غير مرضى ، ضد الشيخ الامام المعجمى الملازم صلاة الفريضة فى المسجد * المكرم ، فذلك على طريقة من الخير والورع لائقة بامام مثل ذلك الموضع الكريم .

فلما أذن المؤذنون قام هذا الخطيب المذكور للخطبة ، وقد تقدمته الرايتان السوداوان ، وقد ركزتا بجانب المنبر الكريم ، فقام بينهما . فلما فرغ من الخطبة الأولى جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل فى السرعة ، وابتدر الجمع مرده من الخدمة يخرقون الصفوف ، ويتخطون الرقاب ، كدية على الأعاجم والحاضرين لهذا الخطيب القليل التوفيق .

فمنهم من يطرح الثوب النقيس ، ومنهم من يخرج الشقة الغالية من الحرير فيعطىها — وقد أعدها لذلك — ومنهم من يخلع عمامته فينبذها ، ومنهم من يتجرد عن برده فيلقى به ، ومنهم من لا يتسع حاله لذلك فيسمح^١ بفضلة من الخام ، ومنهم من يدفع القراضة من الذهب ، ومنهم من يمد يده بالدينار والدينارين الى غير ذلك . ومن النساء من تطرح خلخالها ، وتخرج خاتمها فتلقيه ، الى ما يطول الوصف له من ذلك .

والخطيب فى أثناء هذه الحال كلها جالس على المنبر ، يلحظ هؤلاء المستجدين المستسمعين على الناس بلحظات يكررها^٢ الطمع ، ويميدها الرغبة والاستزادة ، الى أن كاد الوقت ينقضى والصلاة تفوت . وقد ضج من له دين وصحة من الناس ، وأعلن بالصياح ، وهو قاعد ينتظر اشتفاف صباية الكدية ، وقد أراق عن وجهه ماء الحياء . فاجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم أمامه ، فلما أرضاه قام وأكمل الخطبة ، وصلى بالناس ، وانصرف أهل التحصيل^٣ باكين على الدين ، يائسين من فلاح الدنيا ، متحققين أشراف الآخرة ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

وفى عشي ذلك اليوم المبارك ، كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة . فياله وداعا عجبا ذهلت له النفوس ارتياحا حتى طارت شعاعا^٤ ، واستشرت به النفوس التياغا حتى ذابت الصداغا . وما ظلك بموقف يناجى^١ بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين !

انه لموقف تنفطر له الأفئدة ، وتطيش به
الآلِباب الثابتة المتنتدة . فوا أسفاه ! وا أسفاه !
كل ييوح لديه بأشواقه ، ولا يجد بدا من
فراقه ، فما يستطيع الى الصبر سبيلا ، ولا
تسمع فى هول ذلك المقام الارثة وعويلا ،
وكل بلسان الحال ينشد :

محبتى تقتضى مقامى

وحالتى تقتضى الرحىلا

بوانا الله بزيارة هذا النبى الكريم منزل
الكرامة ، وجعله شفيعا لنا يوم القيامة ، وأحلنا
من فضله ٢ فى جواره دار المقامة برحمته ، انه
غفور رحيم ، جواد كريم .

وكان مقامنا بالمدينة المكرمة خمسة أيام :
أولها يوم الاثنين ، وآخرها يوم الجمعة .

وفى ضحوة يوم السبت الثامن لمحرم
المذكور ، والحادى والعشرين من شهر أبريل ،
كان رحيلنا من المدينة المكرمة الى العراق
— قرب الله لنا المرام ، وسهل علينا السبيل —
واستصبحنا منها الماء لثلاثة أيام . فنزلنا يوم
الاثنين ، ثالث يوم رحيلنا المذكور ، بوادى
العروس ، فتزود الناس منها الماء يحفرون عليه
فى الأرض بئرا ، فينبع منها ٣ ماء عذب معين ،
يروى الأمة التى لا يحصى لها عدد من هذه
المحلة ، مع جمالها التى تنيف على عدها ، والله
القدرة سبحانه .

وصعدنا من وادى العروس الى أرض نجد ،
وخلقنا ٤ تهامة وراءنا ، ومشينا فى بسطة من
الأرض ينحسر الطرف دون أدناها ، ولا يبلغ
مداها ، وتسمنا نسيم نجد . وهواءها المضروب
به المثل ، فالتشعبت النفوس والأجسام ببرد

نسيمه وصحة هوائه . ونزلنا يوم الثلاثاء ،
رابع يوم رحيلنا ، على ماء يعرف بماء العسيلة .
ثم نزلنا يوم ٥ الأربعاء ، خامس يوم رحيلنا ،
بموضع ١ يعرف بالنقرة ٢ ، وفيها آبار
ومصانع كالصهاريج العظام ، وجدنا أحدها
مملوء بماء المطر ، فعم جميع المحلة ، ولم
ينضب على كثرة الاستمache ٣ .

وصفة مراحل هذا الأمير بالحاج : أن يسرى
من نصف الليالى الى ضحية ، ثم ينزل الى أول
الظهر ، ثم يرحل وينزل مع العشاء الآخرة ،
ثم يقوم نصف الليل ، هذا دأبه .

ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرم ،
وسادس يوم رحيلنا ، على ماء يعرف
بالقارورة ٤ ، وهى مصانع مملوءة بماء المطر ،
وهذا الموضع هو وسط أرض نجد . وما أرى
أن فى المعمورة أرضا أفصح بسيطا ، ولا أوسع
أنفا ، ولا أطيب نسيما ، ولا أصح هواء ،
ولا أمد استواء ، ولا أصفى جوا ، ولا أبقى
تربة ، ولا أنعش للنفوس والأبدان ٥ ، ولا
أحسن اعتدالا فى كل الأزمان ؛ من أرض
نجد ، ووصف محاسنها يطول ، والقول فيها
يتسع ٦ .

وفى يوم الخميس المذكور ، مع ضحوة
النهار ، نزلنا بالحاجر ٧ ، والماء فيه فى مصانع ،
وربما حفروا عليه حفرا قريية العمق يسمونها
أحفارا : واحدها حفر . وكنا نتخوف فى هذا
الطريق قلة الماء ، لا سيما مع عظم هذا الجمع
الأنامى والأنعامى الذين ٨ لو وردوا البحر
لأنزفوه واستقوه ، فأنزل الله من سحب رحمته

ما أعاد الشيطان فغفروا ، وأجرى المسول
هيو لا ، وصير الوهاد منلوة عهادا . فكنا
نبر مذب الماء سائحة على وجه الأرض :
فضلا من الله ونعمة ، ولطفنا من الله بعباده
ورحمة ، والحمد لله على ذلك .

وفى اليوم المذكور أجزاء بالحاجز وادين
سيالين ، وأما البرك والقارات فلا . تحصى .

وفى يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار
سميرة ^١ ، وهى موضع معمور ، وفى بسيطها
شبه حصن لطيف به حلق كبير ^٢ مسكون ،
والماء فيه فى آبار كثيرة الا أنها زعاق
ومستقعات وبرك . وتبايع العرب فيها مع
الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن ،
ووقع الناس على قرم وعينة ، فبادروا
الابتياح لذلك بشقق الغام التى يستصحبونها
لمشارة الأعراب ، لأنهم لا يبايعونهم الا بها .

وفى ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالجبل
المخروق ^٣ ، وهو جبل فى يبداء من الأرض ،
وفى صفحه الأعلى قبة نافذ تخترقه الرياح .
ثم رحنا من ذلك الموضع ، وبتنا بوادى
الكروش على غير ماء ، ثم أسرنا منه ،
وأصبنا على قيند يوم الأحد . وهى حصن
كبير مبرج مشرف ^٤ فى بسيط من الأرض ،
يمتد ^٥ حوله ربض لطيف ^٦ به سور عتيق
البنيان ، وهو معمور بسكان من الأعراب ،
يتعشون مع الحاج ^٧ فى التجارات والمبايعات
وغير ذلك من المرافق .

وهناك يترك الحاج بعض زادهم اعدادا
للارمال ^٨ من الزاد عند انصرافهم ، ولهم بها

معارف يتركون أزودتهم عندهم ^٩ . وهذا
نصف الطريق من بغداد الى مكة على المدينة
— شرفها الله — أو أقل يسيرا ، ومنها الى
الكوفة اثنا عشر يوما فى طريق سهلة طيبة ،
والمياه فيها بحمد الله موجودة فى مصانع
كثيرة . ودخل أمير الحاج هذا الموضع
المذكور على تعبئة وأهبة ، ارهابا للمجتمعين ^{١٠}
به ^١ من الأعراب ، لئلا يداخلهم الطمع فى
الحاج . فهم يلحظونهم مستشرفين ^٢ الى
مكائهم ، لكنهم لا يجدون اليهم سيلا ،
والحمد لله .

والماء بهذا الموضع كثير ، فى آبار ^٣ قدما
عيون تحت الأرض . ووجد الحاج فيها مصنعا
قد اجتمع فيه الماء من المطر ، فانتزف للحين ،
وامتلأت أيدي الحاج القرمين ^٤ من أغنام
العرب بالمبايعة المذكورة ، فلم يبق مضرب ولا
خيمة ولا ظلالة ، الا والى جانبها كبش أو
كبشان بحسب القدرة والوجد ، فعم ^٥ جميع
المحلة غنم العرب ، وكان ذلك اليوم عيدا من
الأعياد ، وكذلك عمتهم أيضا جمالهم لمن
أراد ^٦ الابتياح منهم من الجمالين وسواهم ،
للاستظهار على الطريق . وأما السمن والعسل
واللبن ، فلم يبق الا من تحمل ^٧ أو استعمل
منها بقدر حاجته

وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها الى
ظهر يوم الاثنين بعده . ثم أسروا نصف الليل
ترتيب سيرهم المذكور قبل ، ونزلوا ضحوة
يوم الثلاثاء الثامن عشر لمحرّم ، وهو أول يوم
من ماية ، بموضع يعرف بالأخضر ، وهو مشتهر

عندهم بموضع جميل وبثينة العذريين . ثم أقبلنا ظهر يوم الثلاثاء المذكور على العادة ، ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة .

ثم أسرنا منها ، ونزلنا ضحوة يوم الأربعاء بزروذ : وهي وهدة في بسيط من الأرض فيها رمال منهالة ، وبها حلق كبير ^٨ داخله ذويرات صغار ، هو شبيه الحصن ، يعرف بهذه الجهات بالقصر ، والماء بهذا الموضع في آبار غير عذبة . فنزلنا ضحوة يوم الخميس ، الموفى عشرين لحرم والثالث لمايه ، بموضع يعرف بالثعلبية ^٩ ، ولها منبى شبه الحصن خرب لم يبق منه الا الحلق ^{١٠} ، وبازائه مصنع عظيم كبير الدور ، من أوسع ما يسكون * من الصهاريج وأعلاها ، والمهبط اليه على أدراج كثيرة من ثلاث جهات ، وكان فيه من ماء المطر ما عم جميع المحلة .

ووصل الى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالا ونساء ، واتخذوا به سوقا عظيمة حافلة للجمال والكباش والسنن واللبن وعلف الابل ، فكان يوم سوق نافقة ^٢ . وبقي من هذا الموضع الى الكوفة ، من المناهل التي تعم جميع المحلة ، ثلاثة . أحدها زبالة ^٣ ، والثاني واقصة ^٤ ، والثالث مهل من ماء القرات على مقربة من الكوفة ^٥ . وبين هذه المناهل مياه موجودة ، لكنها لا تعم ، وهذه الثلاثة المذكورة هي التي تعم الناس والابل ، وهي التي تردها رفها .

وفي هذا المنهل الذي للثعلبية ، شاهدنا من غلبة الناس على الماء أمرا هائلا لا يكاد يشاهد

مثله في تغلب المدن والحصون بالقتال ^٦ . وحسبك أن مات في ذلك الموضع ، ضغطا بشدة الزحام وغطا ^٧ تحت الماء بالأقدام ، سبعة رجال : بادروا لمورد الماء ، فحصلوا على مورد الفناء ، رحمهم الله وغفر لهم .

وفي ضحوة يوم الجمعة بعده ، نزلنا بموضع يعرف ببركة المرجوم ، وهي مصنع ، وقد بنى له فيما يعلوه من الأرض مصب يؤدي الماء اليه على بعد ، وأحكم ذلك احكاما يدل على قدرة الاتساع وقوة الاستطاعة ^٨ . ولهذا المرجوم المذكور مشهدة على قارعة الطريق ، وقد علا كأنه هضبة شماء ، وكل مجتاز عليه لابد أن يلتقى عليه حجرا ^٩ . ويقال ان أحد الملوك رحمه لأمر استوجب به ذلك ، والله أعلم .

وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ، وبادروا للحن بما لديهم من مرافق الأدم يبيعونها من الحاج ، وكان هذا المصنع مملوء من ماء المطر ، فغمر الناس وعيهم ، والحمد لله .

وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد الى مكة ، هي آثار زبيدة ابنة جعفر ابن أبي جعفر المنصور ، زوج هارون الرشيد وابنة عمه . اقتدبت لذلك مدة حياتها ، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وقد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها الى الآن ، ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذا الطريق ، والله كفيلا بمجازاتها والرضى عنها .

وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع يعرف بالشقوق ^١ ، وفيه مصنعان ألقيناهما مملوءين ماء عذبا صافيا ، فأراق الناس

مياهم ، وجددوا مياها طيبة ، واستبشروا بكثرة الماء ، وجددوا شكر الله على ذلك . وأحد هذين المصنعين صهرج عظيم الدائرة كبيرها ، لا يكاد يقطعه السابح الا عن جهد ومشقة ، وكان الماء قد علا فيه أزيد من قامتين ، فتتعم الناس من مائه سباحة واغتسالا وتنظيف أثواب ، وكان يومهم فيه من أيام راحة السفر .

ومن لطائف صنع الله تعالى بوفده ووزار حرمه ، أن كانت هذه المصانع كلها - عند صعود الحاج من بغداد الى مكة - دون ماء ، فأرسل الله من مشجب رحمته ما أترعها ماء معدا لصدر الحاج ، فضلا من الله ولطفا بوفده ^٢ المنقطعين اليه .

ورحنا من ذلك الموضع المذكور ، وبتنا بموضع يعرف بالتناير ، وكان فيه ^٣ أيضا مصنع مملوء ماء . وأسرينا منه ليلة يوم الأحد الثالث والعشرين لحرم ، واجتزنا سحرا بزبالة ^٤ ، وهي قرية معمورة ، وفيها قصر مشيد من قصور الأعراب ، ومصنعان للماء وآبار ، وهي من مناهل الطريق الشهيرة .

ونزلنا ، عندما ارتفع النهار من اليوم المذكور ، بالهشمين ^٥ ، وفيها مصنعان للماء . ولا تكاد نمر ^٦ ، بحول الله ^٧ ، يوما بموضع الا والماء يوجد فيه ، والشكر لله على ذلك . وبتنا ليلة الاثنين ، الرابع والعشرين لحرم المذكور ، على مصنع مملوء ماء ، فسقى الناس بالليل واستقوا . وهذا الموضع هو دون العقبة المعروفة بمقبة الشيطان .

ومع الصباح من يوم الاثنين المذكور صعدنا العقبة ، وليست بالطويلة الكثود ، ولكن ليس بالطريق وعمر غيرها ^١ ، فهي شهيرة بهذا السبب . ونزلنا عند ارتفاع النهار على مصنع دون ماء ، وأجزنا مصانع كثيرة ، وما منها مصنع الا والى جانبه قصر مبنى من قصور الأعراب ، والطريق كلها مصانع ، ورضى الله عن التي اعتنت بسبيل وفد الله هذا الاعتناء .

ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بعده بواقصة ، وهي وهدنة من الأرض منفسحة ، فيها مصانع للماء مملوءة وقصر كبير ، وبازائه أثر بناء ، وهي معمورة بالأعراب ، وهي آخر مناهل الطريق ، وليس بعدها الى الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات ، ومنها الى الكوفة ثلاثة أيام ، وبها يتلقى الحاج كثير من أهل الكوفة ، وهم مستجلبون اليهم الدقيق والخبز والتمر والأدم والقواكه الحاضرة في ذلك الوقت ، ويهنئ الناس بعضهم بعضا بالسلامة . والحمد لله عز وجل على ما من به من التيسير والتسهيل ، حمدا يستوجب المزيد ، ويستصحب من كريم صنعه المعهود .

وبتنا ليلة الأربعاء ، السادس والعشرين ، بموضع يعرف بلوزة ^٢ ، وفيها مصنع كبير وجدده الناس مملوءا ، فجددوا الاستسقاء ، ورفعوا الابل . ثم أسرينا منها ، وأجزنا سحر يوم الأربعاء المذكور ، بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء ^٣ ، وفيه أيضا مصنع ماء ، وله ستة مخازن ، وهي صهاريج صفار تؤدي الماء الى المصانع ، استقى الناس فيها وسقوا ،

وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها
ولا تضبطها ، والحمد لله على منته وسابغ
نعمته .

ووصلنا الكوفة مع طلوع الشمس من يوم
الجمعة المذكور ، والحمد لله على ما أنعم به
من السلامة .

ذكر مدينة الكوفة ، حرسها الله تعالى

هي مدينة كبيرة عتيقة البناء ، قد استولى
الخراب على أكثرها ، فالعامر^١ منها أكثر من
العامر . ومن أسباب خرابها فيبلة خفاجة
المجاورة لها ، فهي لا تزال تضر بها ، وكذاك
بتعاقب الأيام والليالي محبياً^٢ ومفنياً . وبناء
هذه المدينة بالآجر خاصة ، ولا سور لها .

والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي^٣
البلد ، ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق ،
وهو جامع كبير : في الجانب القبلي منه خمسة
أبلة ، وفي سائر الجوانب بلاطان^٤ . وهذه
البلاطات على أعمدة من السواري للموضوعة^٥
من صم^٦ الحجارة ، المنحوتة قطعة على قطعة ،
مفرغة بالرصاص ، ولا قسي^٧ عليها ، على
الصفة التي^٨ ذكرناها في مسجد رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وهي في نهاية الطول^٩ ،
متصلة بسقف المسجد ، فتتأرجح العينون في
تفاوت ارتفاعها ، فما أرى في الأرض
مسجداً^{١٠} أطول أعمدة منه ، ولا أعلى سقفاً .

ولهذا^{١١} الجامع المكرم آثار كريمة : فمنها
بيت بازاء المحراب عن يمين المستقبل^{١٢} القبلة ،
يقال انه كان مصلى إبراهيم الخليل صلى الله
عليه وسلم ، وعليه ستر أسود صولاً له ،
ومنه يخرج^{١٣} الخطيب لابسا ثياب السواد
للخطبة ، فالتاس يزدهمون على هذا الموضع
المبارك للصلاة فيه .

وبتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم
مملوء ماء . ثم نزلنا ، ضحوة اليوم المذكور ،
بمنارة تعرف بمنارة القرون^١ ، وهي منارة في
بيداء من الأرض لا بناء حولها ، قد قامت في
الأرض كأنها عمود مخروط من الآجر ، قد
تداخل فيها من الخواتيم الآجرية ، مشنة
ومربعة ، أشكال بديمة . ومن غريب أمرها
أنها مجللة كلها قرون غزلان مثبتة فيها ، فتلوح
كظهر الشبه ، وللناس فيها خبر يمنع ضعف
سنده من اثباته . وعلى مقربة من هذه المنارة
قصر ذو بروج^٢ مشيدة ، وبازائه مصنع عظيم
وجد مملوء ماء ، والحمد لله على ما من^٣ به .

واجتازنا^٤ عشي يوم الخميس المذكور على
المذياب ، وهو واد خصيب ، وعليه بناء ،
وحوله فلاة خصيبة فيها مسرح للعيون
وفرجة ، وأعلمنا أن بمقربة منه بارقا . ووصلنا
منه الى الرحبة ، وهي بمقربة منه ، وفيها بناء
وعمارة ، ويجري الماء فيها من عين تابعة في
أعلى القرية المذكورة ، وبتنا أمامها بمقصد
فرسخ .

ثم أسرنا ليلة الجمعة الثامن والعشرين
لمحرم المذكور نصف الليل ، واجتازنا على
القادسية ، وهي قرية كبيرة فيها حدائق من
النخيل ، ومشارع من ماء الفرات . وأصبحنا
بالتجف ، وهو بظهر الكوفة كأنه حد بينها
وبين الصحراء ، وهو صلب من الأرض منقش
متسع للعين ، فيه مزاد^١ استحسان وانسراح .

وعلى مقربة منه — مما يلي الجانب الأيمن من القبلة — محراب مطلق^{١٣} عليه بأعواد الساج ، مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير ، وهو محراب أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وفى ذلك الموضع ، ضربه الشقى اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف ، فالتاس يصلون فيه ياكين داعين .

وفى الزاوية من آخر هذا البلاط القبلى ، المتصل بآخر البلاط الغربى ، شبيه^١ مسجد صغير ، مطلق^٢ عليه أيضا بأعواد الساج ، هو موضع مفار التنور الذى كان آية لنوح عليه السلام^٣ . وفى ظهره خارج المسجد بيته الذى كان فيه ، وفى ظهره بيت آخر يقال انه كان متعب ادريس صلى الله عليه وسلم ، ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد يقال انه كان منشأ السفينة ، ومع آخر هذا الفضاء دار على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والبيت الذى غسل فيه ، (و) يتصل به بيت يقال انه كان بيت ابنة نوح صلى الله عليه وسلم . وهذه الآثار الكريمة تلقيناها من السنة أشياء من أهل البلد ، فأثبتناه^٤ حسبما نقلوه إلينا ، والله أعلم بذلك كله .

(وفى) الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد إليه ، فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه . وفى جوفى^٥ الجامع ، على بعد منه يسير^٦ ، سقاية كبيرة من ماء الفرات ، فيها ثلاثة أحواض كبار . (وفى) غربى المدينة ، على مقدار فرسخ منها ، المشهد الشهير الشأن ، المنسوب لعلى بن أبى طالب

رضى الله عنه ، وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها ، مسجى ميتا على ما يذكر ، ويقال ان^٧ قبره فيه ، والله أعلم بصحة ذلك . وفى هذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا ، لأننا لم نشاهده بسبب أن وقت المقام بالكوفة ضاق عن ذلك ، لأننا لم نبت فيها^٨ سوى ليلة يوم السبت .

وفى غدائه رحلنا ، ونزلنا قرب الظهر على نهر منسرب^٩ من الفرات . والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ مما يلي الجانب الغربى الشرقى ، والجانب الشرقى كله حدائق نخيل^{١٠} ملتفة ، يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر . ورحلنا من ذلك الموضع ، وبتنا ليلة الأحد منسلح محرم بمقربة من الحلة ، ثم جئناها يوم الأحد المذكور

ذكر مدينة الحلة ، حرسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة ، غثيفة الوضع مستطيلة ، لم يبق من سورها الا حلق^٢ من جدار ترابى مستدير بها ، وهى على شط الفرات : يتصل بها من جانبها الشرقى ويمتد بطولها . (و) لهذه المدينة أسواق حافلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية ، وهى قوية العمارة ، كثيرة الخلق ، متصلة حدائق النخيل داخلا وخارجا ، فديارها بين حدائق النخيل .

وألفينا بها جسرا عظيما معقودا على مراكب كبار ، متصلة من الشط الى الشط ، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد ، كالأذرع المقنولة عظما وضخامة ، ترتبط الى خشب مثبتة فى كلا^٢ الشطين ، تدل على عظم

الاستطاعة^٤ والقدرة . أمر الخليفة بمقده على القنات ، اهتماما بالحاج واعتناء بسبيله ، وكانوا قبل ذلك يعبرون في المراكب ، فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة في مضيقهم ، ولم يكن عند شيوخهم الى مكة شرفها الله .

وعبرنا الجسر ظهر يوم الأحد المذكور ، ووزلنا بسط القنات على مقدار فرسخ من البلد . وهذا النهر ، كاسمه قنات ، هو من أعذب المياه وأخفها ، وهو نهر كبير زخار تصعد فيه السفن وتحدّر .

والطريق من الحلة الى بغداد أحسن طريق وأجملها ، في بسائط من الأرض وعسائر تتصل بها القرى يمينا وشمالا ، ويشق * هذه البسائط أغصان من ماء * القنات تتسرب بها وتسقيها فمحراثها ^١ لأحد لاتساعه واتساعه ، فللعين في هذه الطريق مسرح انشراح ، وللنفس مزاد ^٢ انبساط واتساع ، والأمن فيها ^٣ متصل بحمد الله سبحانه .

شهر صفر سنة ثمانين
عرفنا الله يمنه وبركته

هلاله على الكمال من ليلة الاثنين ، بموافقة الرابع عشر من مايو ، استهل هلاله ونحن على شط القنات بظاهر مدينة الحلة . وفي ضحوة يوم الاثنين المذكور رحلنا ، وأجزنا جسرا على نهر يسمى النيل ، وهو فرع متشعب من القنات ، وكان عليه ازدحام غرق كثير من الناس والدواب في الماء ، ففتحنا مريحين الى

أن انقرج ذلك المزحم ، وعبرنا على سلامه وعافية ، والحمد لله .

ومن مدينة الحلة يتسلسل الحاج أرسالا وأفواجا أفواجا : فمنهم المتقدم والمتوسط والمتأخر ، لا يرجع المستعجل على المتأخر ، ولا المتقدم على المتأخر ، فحينما شاءوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا ، وسكنت نفوسهم من روعة نهر الكوس الذي كانت الأفئدة ترجف له ، بدارا للرحيل واستعجالا للقيام ، فربما كان النائم منهم يهذى بنقر الكوس ، فيقوم عجلا وجلا ، ثم يتحقق أنه من أضغاث أحلامه فيعود الى منامه .

ومن جملة الدواعي لافتراقهم كثرة القناطير * المعترضة في طريقهم الى بغداد ، فلا تكاد تمشي ميلا الا وتجد قنطرة على نهر متفرع من القنات . فتلک الطريق أكثر الطرق سواقى وقناطير ، وعلى أكثرها خيام فيها ^٦ رجال محترسون للطريق — اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج — دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها . فلو زاحم ذلك * البشر تلك القناطير ^١ دفعة لما فرغوا من عبورها ، ولتراكموا وقوعا بعض ^٢ على بعض .

والأمير طاشتكين ^٣ ، المتقدم الذكر ، يقيم بالحلة ثلاثة أيام الى أن يتقدم جميع الحاج ، ثم يتوجه الى حضرة خليفته ، وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة . وسيرة هذا الأمير في الرفق بالحاج ، والاحتياط عليهم ، والاحتراس لمقدمتهم وساقاتهم ، وضم نشر ميمتهم ومسيرتهم — سيرة محمودة ،

وطريقته^٤ فى الحزم وحسن النظر طريقة
سديدة . وهو من التواضع ولين الجانب
وقرب المكان ، على وتيرة^٥ سعيدة ، نفعه الله
وتفع المسلمين به .

وفى عصر يوم الاثنين المذكور نزلنا بقرية
تعرف بالقنطرة ، كثيرة الخصب ، كبيرة
الساحة ، متدفقة فيها^٦ جداول الماء ، وارفة
الظلال بشجرات الفواكه ، من أحسن القرى
وأجملها ، وبها قنطرة على فرع من فروع
الفرات كبيرة محدودة ، يصعد إليها وينحدر^٧
عنها ، فتعرف القرية بها ، وتعرف أيضا بحصن
بشير . وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات
فى هذا الوقت ، الذى هو نصف مايه .

ورحلنا من القرية المذكورة سحر يوم الثلاثاء
الثانى لصفر ، فنزلنا قائلين ضحوته بقرية
تعرف بالفراش^٨ ، كثيرة العمارة يشقها الماء ،
وحولها بسيط أخضر جميل المنظر . وقرى
هذه الطريق ، من الحلة الى بغداد ، على هذه
الصفة^٩ من الحسن والاتساع . وفى هذه
القرية المذكورة خان كبير يصدق به جدار
عال له شرفات صفار .

ثم رحلنا منها ، ونزلنا عشي النهار بقرية
تعرف بزريران^{١٠} . وهذه القرية من أحسن
قرى الأرض ، وأجملها منظرا ، وأفسحها
ساحة ، وأوسعها اختطاطا^{١١} ، وأكثرها بساتين
ورياحين وحدائق نخيل^{١٢} ، وكان بها سوق
تقصر عنه أسواق المدن . وحسبك من شرف
موضوعها أن دجلة تسقى شرقها ، والفرات
يسقى غربها ، وهى كالمروس بينهما ،

والبساط والقرى والمزارع متصلة بين هذين
النهرين الشريفين المباركين .

ومن شرف هذه القرية أيضا أن بازائها ،
لجهة الشرق منها ، ايوان كبرى ، وأمامها
يسير مدائنه . وهذا الايوان بناء عال فى
الهواء شديد البياض ، لم يبق من قصوره الا
البعض ، فعائنها على مقدار الميل سامية
مشرفة مشرقة^{١٣} . وأما المدائن فخراب ، اجتونا
عليها سحر يوم الأربعاء الثالث لصفر ، فعائنا
من طولها واتساعها مرأى عجيبا .

ومن فضائل هذه القرية أيضا أن بالشرق
منها ، بمقدار نصف فرسخ ، مشهد سلمان
الفارسي رضى الله عنه ، فما اختصت تربتها
بهذا الدفين المبارك رضى الله عنه الا لفضل
تربتها . والقرية على شط دجلة ، وهى تقترض
بينها وبين المشهد الكريم المذكور .

وكنا سمعنا أن هواء بغداد ينبت السرور
فى القلب ، ويبعث النفس دائما على الانبساط
والانس ، فلا تكاد تجد فيها الا جذلان طربا ،
وان كان^{١٤} نازح الدار مغتربا . حتى حللنا
بهذا الموضع المذكور - وهو على مرحلة
منها - فلما فتحنا نوافح هوائها ، وقعنا
الغلة ببرد مائها ، أحسننا من قهوسنا - على
حال وحشة الاغتراب - دواعى^{١٥} من
الاطراب ، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة
الغائب بالاياب ، وهبت بنا محركات من
الاطراب ، أذكرتنا معااهد الأحباب فى ريمان
الشباب ، هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف
للوافد فيها على أهل وسكن ؟

سقى الله باب الطاق صوب غمامة
ورد الى الاوطان كل غرب

وفى سحر يوم الأربعاء المذكور ، رحلنا من
القرية المذكورة ، واجتزنا على مدين كسرى
حسبما ذكرناه ، واتتهنا الى صرصر ، وهى
أخت زيران^١ المذكورة حسنا أو قريب منها ،
ويعر بجانبها القبلى نهر كبير متفرع من
الفرات ، عليه جسر معقود على مراكب ،
تحفه بها من الشط الى الشط سلاسل حديد
عظام ، على الصفة التى ذكرناها فى جسر
الحلة ؛ فمرناه^٢ وأجزنا القرية ، ونزلنا قائلين
وبيننا وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ . وبهذه
القرية سوق حفيلة ، ومسجد جامع كبير
جديد ، وهى من القرى التى تملأ النفوس
بهجة وحسنا .

وهذان النهران الشريفان دجلة والفرات قد
أغنت شهرتهما عن وصفهما ، وملتقاهما ما بين
واسط والبصرة ، ومنها انصباهما الى البحر ،
ومجراهما من الشمال الى الجنوب ، وحسبهما
ما خصهما الله به من البركة هما وأخاهما^٣
النيل مما هو مذكور مشهور .

ورحلنا من ذلك الموضع قبيل الظهر من يوم
الأربعاء المذكور ، وجئنا بغداد قبيل العصر ،
والمدخل اليها على بسايتين وبسائط يقصر
الوصف عنها .

ذكر مدينة السلام بغداد
حرسها الله تعالى

هذه المدينة العتيقة ، وإن لم تزل حضرة
الخليفة العباسية ، ومثابة الدعوة الامامية

القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثر رسمها ،
ولم يبق منها الا شهير اسمها . وهى بالاضافة
الى ما كانت عليه قبل انحاء^٤ الحوادث عليها ،
والثقات أعين النواب اليها ، كالظلل الدارس
والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص .
فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستمدى من
المستوفز الغفلة والنظر^٥ ، الا دجلتها التى
هى بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة
بين صفحتين ، أو القمد المنتظم بين لبتين ، فهى
تردها ولا تنظما ، وتتطلع منها فى مرآة صقيلة
لا تصدأ ، والحسن الحزيبى بين هوائها ومائها
ينشأ ، هى^١ من ذلك على شهرة فى البلاد
معروفة موصوفة ، ففتن الهوى — الا أن
يعصم الله منها^٢ — مخوفة .

وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع
بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجا وكبرياء .
يزدرون الغرياء ، ويظهرون لمن دونهم الألفة
والاباء ، ويستصغرون عن سواهم الأحاديث
والأنباء . قد تصور كل منهم فى معتقده
وخلده أن الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده ،
فهم لا يستكرمون فى معمر البسيطة مثنى
غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا
أو عبادا سواهم . يسحبون أذيالهم أشرا
وبطرا ، ولا يغيرون^٣ فى ذات الله منكرا .
يظنون أن أسنى الفخار فى سحب الأزار ،
ولا يعلمون أن فضله — بمقتضى الحديث
المأثور — فى النار .

يتبايسون بينهم بالذهب قرضا ، وما منهم
من يحسن لله قرضا^٤ . فلا نفقة فيها الا من
دينار قرضه ، وعلى يدى مخسر للميزان

تمرضه . لا تكاد تنظر من نصوص أهلها بالورع العفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من^١ ثبت له الويل في سورة التطهيف^٢ . لا يبالون في ذلك بعيب ، كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب . فالغريب فيهم معدوم الارقاق ، متضاعف الاتفاق ، لا يجد من أهلها الا من يعامله بنفاق ، أو يهش اليه هشاشة انتفاع واسترقاق ، كأنهم من التزام هذه الخلقة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق . فسوء معاشرته أبنائها ، يغلب على طبع هوائها ومائها ويملح حسن المسموع من أحاديثها وأبنائها .

أستغفر * الله ! الا فقهاءهم المحدثين ، يعاطهم المذكرين ، لا جرم أن لهم في طريقة عطف والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير ، والمثابرة^١ على الانذار المخوف والتحذير ، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرا من أوزارهم ، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم . لكنهم معهم يضربون في حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلايد ، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعاعاتهم من واعظ يتكلم فيه ، فالموثق منهم^٢ لا يزال في مجلس ذكر أيامه كلها ، لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة .

فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضى الدين القزويني^٣ ، رئيس الشافعية ، وفقه المدرسة النظامية ، والمشار اليه بالتقديم في العلوم الأصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة ، اثر صلاة العصر من يوم الجمعة

الخامس لصفر المذكور ، فصعد المنبر ، وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة ، فتوقوا وشوقوا ، وأتوا بتلاحين معجبة ، ونغمات مخرجة مطربة

ثم اندفع الشيخ الامام المذكور ، فخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرف في أفانين من العلوم : من تفسير كتاب الله عز وجل ، وإيراد حديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتكلم على معانيه . ثم رشقته شأبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصر ، وتقدم وما تأخر ، ودفعت اليه عدة رقاع فيها^٤ ، فجمعها جملة في يده ، وجعل يجاوب على كل واحدة منها ، وينبذ بها * الى أن فرغ منها ، وحان المساء فنزل ، وافترق الجمع .

فكان مجلسه مجلس علم ، ووعظ ، وقورا^١ هينا لينا ، ظهرت فيه البركة والسكينة ، ولم تقصر عن ارسال عبرتها فيه النفس المستكنة ، ولا سيما آخر مجلسه ، فانه سرت حميا وعظه * الى النفوس حتى أطارتها خشوعا ، وفجرتها دموعا ، وبادر التائبون اليه سقوطا على يده ووقوعا ، فكلم ناصية جز ، وكم مفصل من مفاصل التائبين طبق بالموعظة وحز .

فيمثل^١ مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة ، وتنعمد الجنة ، وتستدام العصمة والنجاة . والله تعالى يجازي كل ذى مقام عن مقامه ، ويتنعم ببركة العلماء الأولياء عباده العاصين من سخطه وانتقامه ، برحمته وكرمه ،

انه المنعم الكريم لا رب سواه ، ولا معبود
الا اياه .

مهيارى الانطباع . وأما ثمره فيصعد بسر
اليان ، ويعطل المثل بقس وسحبان .

وشهدنا له مجلسا ثانيا اثر صلاة العصر من
يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور ،
وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء
الخراسانية ، ورئيس الأئمة الشافعية ، ودخل
المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف آماق^٢
تشوقت له النفوس . فأخذ الامام المتقدم الذكر
في وعظه ، مسرورا بحضوره ومتجمل به ،
فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه
المتقدم الذكر . ورئيس العلماء المذكور هو
صدر الدين الخجندی ، المتقدم الذكر في هذا
التقييد ، المشتهر بالآثر والمكارم ، المقدم بين
الأكابر والأعظم .

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس
الشيخ الفقيه ، الامام الأوحده جمال الدين أبى
الفضائل بن على الجوزى ، بازاء داره على
الشط بالجانب الشرقى ، وفي آخره على
اتصال من قصور الخليفة ، وبمقربة من باب
البصلية آخر أبواب الجانب الشرقى — وهو
يجلس به كل يوم سبت — فشاهدنا مجلس
رجل ليس من عمرو ولا زيد ، وفي جوف
الفراكل الصيد^٣ : آية الزمان ، وقرة عين
الايمان ، رئيس الحنبلية ، والمخصوص في
العلوم بالرتب العلية . امام الجماعة ، وفارس
حلبة هذه الصناعة ، والمشهود له بالسبق
الكريم في البلاغة والبراعة . مائل أزمة الكلام
في النظم والنثر ، والفائض في بحر فكره
على نفائس الدر . فأما نظمه فرضى^٤ الطباع ،

ومن أبهر آياته ، وأكبر معجزاته ، أنه يصعد
المنبر ، ويشدء القراء بالقراءة — وعددهم
نيف^٢ على العشرين قارئاً — فينتزع الاثنان
منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلوها ، على
نسق بتطريب وتشويق ، فاذا فرغوا تلت
طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون
يتناوبون آيات من سور مختلفات الى أن
يتكاملوا قراءة ، وقد أتوا بآيات مشتهرات ،
لا يكاد المتقدم الخاطر يحصلها عدداً أو يسميها
نسقا .

فاذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشأن
في ايراد خطبته عجلا مبتدرا ، وأفرغ في
أصداف الأسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم
أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته ،
فقرا^٣ ، وأتى بها على نسق القراءة لها ،
لا مقدما ولا مؤخرا ، ثم أكمل الخطبة على
قافية آخر آية منها . فلو أن أبداع من في
مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء به آية آية
على الترتيب ، لمجز عن ذلك ، فكيف بمن
ينتظمها مرتجلا ، ويورد الخطبة الفراء^٤ بها
عجلا « أفسح هذا أم أتم لا تبصرون ، ان
هذا لهو الفضل المبين » . فحدث ولا حرج^٥
عن البحر ، وهيئات ليس الخبر عنه كالخبر .

ثم انه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق
من الوعظ ، وآيات بينات من الذكر ، طارت
لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس
احتراقا . الى أن علا الضجيج ، وتردد
بشبهاته النسيج ، وأعلن التائبون بالصياح ،

وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ،
كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ، ويمسح على
رأسه داعيا له ، ، ومنهم من يغشى عليه ،
فيرفع في الأذرع اليه . فشاهدنا هولا يملأ
النفوس انابة وندامة ، ويذكرها هول يوم
القيامة .

فلو لم نركب ثبج البحر ، ولعنتسف مفازات
القفر ، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا
الرجل ، لكانت الصفقة الرابعة ، والوجهة
المفلحة الناجحة . والحمد لله على أن من بلقاء
من يشهد الجمادات بفضل ، وبضيق الوجود
من مثله . وفي أثناء مجلسه ذلك يتدرون
المسائل ، وتطير اليه الرقاع ، فيجواب أسرع
من طرفه عين ، وربما كان أكثر مجلسه الرائق
من نتائج تلك المسائل ، والفضل بيد الله
يؤتيه من يشاء لا اله سواه .

ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له ، بكرة يوم
الخميس الحادي عشر لصفر ، يباب بدر ، في
ساحة قصور الخليفة ، ومناظره مشرفة عليه .
وهذا الموضع المذكور ، هو من حرم الخليفة ،
وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ، ليسمعه
من تلك المناظر الخليفة ووالدته ، ومن حضر
من الحرّم . ويفتح الباب للعامة ، فيدخلون
الى ذلك الموضع ، وقد بسط بالحصر .
وجلوسه بهذا الموضع كل (يوم) خميس .

فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور ،
وقعدنا الى أن وصل هذا الخبر المتكلم .
فصعد المنبر ، وأرخى طيلسانه عن رأسه

تواضعا لحرمة المكان ، وقد تسطر القراء
أمامه على كراسي موضوعة ، فابتدروا ٢
القراءة على الترتيب ، وشوقوا ما شاءوا .
وأطربوا ما أرادوا . وبادرت الميوز بارسال
الدموع .

فلما فرغوا من القراءة — وقد أحصينا لهم
تسع آيات من سور مختلفات — صعد
بخطبته الزهراء الغراء ، وآتى بأوائل الآيات
في أثنائها منتظمات ، ومشى الخطبة على فقرة
آخر آية منها في الترتيب ، الى أن أكملها ،
وكانت الآية « الله الذي جعل لكم الليل
لتسكنوا فيه والنهار * مبصرا ان الله لذو فضل
على الناس » ١ . فتبادى على هذا السين ،
وحسن أى تحسين ، فكان يومه في ذلك
أعجب من أمسه .

ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له
ولوالدته ، وكنى عنها بالستر الأشرف ،
والجناب الأرف ، ثم سلك سبيله في الوعظ .
كل ذلك بديهة لا روية ، ويصل كلامه في ذلك
بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى .
فأرسلت وابلها العيون ، وأيدت النفوس سر
شوقها المكنون ، وتطارح الناس عليه بذنوبهم
معترفين وبالتوبة معلنين ، وطاشت الأبواب
والعقول ، وكثر الوله والذهول ، وصارت
النفوس لا تملك تحصيلا ، ولا تميز معقولا ،
ولا تجد للصبر سييلا .

ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من
النسيب ، مبرحة التشويق ، بديعة التريق ،
تشعل القلوب وجدا ، ويعود موضوعها

النسيبي زهدا . وكان آخر ما أشده من ذلك
— وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام ،
وأصاب المقاتل سهام — ذلك الكلام :

أين فؤادى أذابه الوجد
وأين قلبى فما صحا بعد
يا سعد زدنى جوى بذكرهم
بالله قل لى فديت يا سعد

ولم يزل يردد هذا والافتعال قد أثر فيه ،
والمذامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه . الى
أن خاف الأفحام ، فابتدر القيام ، ونزل عن
المنبر دهشا عجلا ، وقد أطار القلوب وجلا ،
وترك الناس على أحمر من الجمر ، يشيعونه
بالمذامع الحمر : فمن معلن بالانتحاب ، ومن
متغفر فى التراب . فياله من مشهد ما أهول
مرآه ، وما أسعد من رآه ! نعمنا الله ببركته ،
وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته ، بمنه
وفضله .

وفى أول مجلسه أشد قصيدا نير القبس ،
عراقى النفس ، فى الخليفة ، أوله :

فى شغل من الغرام شاغل
من حاجة البرق بسفح عاقل
يقول فيه عند ذكر الخليفة :

يا كلمات الله كوني عوذة
من العيون للامام الكامل

ففرغ من انشاده وقد هز المجلس طربا ،
ثم أخذ فى شأنه ، وتمادى فى إيراد سحر
بيانه . وما كنا نحسب أن متكلما فى الدنيا
يعطى من ملكة النفوس والتلاعب بها ، ما

أعطى هذا الرجل . فسبحان من يخصص بالكمال
من يشاء من عباده ، لا اله غيره .

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاء
بغداد ، ممن نستغرب شأنه بالاضافة لما
عهدناه من متكلمى الغرب . وكنا قد شاهدنا
بمكة والمدينة — شرفهما الله — مجالس من
قد ذكرناه^٢ فى هذا التقييد ، فصغرت —
بالاضافة لمجلس هذا الرجل الفذ — فى نفوسنا
قدرا ، ولم نستطب لها ذكرا . وأين تقمان مما
أريد ، وشتان بين اليزيديين^٣ ، وهيهات التيتان
كثير ، والمثل بمالك يسير^٤ .

ونزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه ، ويروق
استطلاعه . وحضرنا له مجلسا ثالثا يوم
النسبت الثالث عشر لصفر ، بالوضع المذكور
بازاء داره على الشط الشرقى ، فأخذت
معجزاته البيانية مأخذا . فشاهدنا من أمره
عجبا : صعد يوعظه أنفاس الحاضرين سحبا ،
وأسأل من أدمعهم وأبلا سكبيا ، ثم جعل يردد
فى آخر مجلسه أبياتا من النسيب ، شوقا
زهديا وطربا ، الى أن غلبته الرقة فوثب من
أعلى منبره وألها مكتبيا ، وغادر الكل متدما
على نفسه منتحبا ، لهفان ينادى : يا حسرتنا
واحربا ! والسادبون يدورون بنحيبهم دور
الرحا ، وكل منهم بعد من سكرته ما صحا .
فسبحان من خلقه عبرة لأولى الأسباب ،
وجعله لتوبة عباده أقوى الأسباب ، لا اله
سواه .

ثم لرجع الى ذكر بغداد . هى كما ذكرناه
جانبان : شرقى ، وغربى ، ودجلة بينهما . فأما

الجانب الغربي فقد عمه الخراب ، واستولى عليه ، وكان المعبور أولا . وعمارة الجانب الشرقي محدثة ، لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوى على سبع عشرة محلة ، كل محلة منها مدينة مستقلة ، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة والثمانى ، منها بجوامع يصلى فيها الجمعة .

فأكبرها القرية^٢ وهى التى نزلنا فيها بربض منها يعرف بالمربعة ، على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمدى السيلى ، فعاد الناس يعبرون بالزوارق ، والزوارق فيها لا تحصى كثرة ، فالناس ليلا ونهارا — من ثمادى^٣ العبور فيها — فى نزهة متصلة^٤ وجالا ونساء ، والعادة أن يكون لها جسران : أحدهما مما يقرب من دور الخليفة ، والآخر فوقه لكثرة الناس ، والعبور فى الزوارق لا ينقطع منها . ثم الكرخ وهى مدينة مسورة^٥ . ثم محلة باب البصرة وهى أيضا مدينة ، وبها جامع المنصور رحمه الله ، وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيظه . ثم الشارع وهى أيضا مدينة ، فهذه الأربع أكبر المحلات .

وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان ، وهى مدينة صغيرة ، فيها المارستان الشهير ببغداد ، وهو^٦ على دجلة ، وتتفقدده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطلبون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه ، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية . وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت ، وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل اليه من دجلة .

وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها : كالوسيطه^١ ، وهى بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات وينصب فى دجلة ، يجىء فيه جميع المرافق التى فى الجهات التى يسقيها الفرات . ويشق على باب البصرة — الذى^٢ ذكرنا محلته — نهر آخر منه ، وينصب أيضا فى دجلة . ومن أسماء المحلات : العتاية ، وبها تصنع الثياب العتاية ، وهى حرير وقطن مختلفات الألوان . ومنها الحربية ، وهى أعلاها ، وليس وراءها الا القرى الخارجة عن بغداد ، الى أسماء يطول ذكرها . وباحدى هذه المحلات قبر معروف الكوفى ، وهو رجل من الصالحين ، مشهور الذكر فى الأولياء . وفى الطريق الى باب البصرة مشهد حفيظ البنيان ، داخله قبر متسع السنام ، عليه مكتوب « هذا قبر عون ومعين من أولاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه » . وفى الجانب الغربى أيضا قبر موسى ابن جعفر رضى الله عنهما ، الى مشاهد كثيرة ممن لم نحضرنا^٣ تسميته ، من الأولياء والصالحين والسلف الكريم ، رضى الله عن جميعهم

وبأعلى الشرقية خارج البلد ، محلة كبيرة بإزاء محلة الرصافة ، وبالرصافة كان باب الطاق المشهور على الشط . وفى تلك المحلة مشهد حفيظ البنيان ، له قبة بيضاء سامية فى الهواء ، فيه^٤ قبر الامام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وبه تعرف المحلة . وبالقرب من تلك المحلة قبر الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وفى تلك الجهة أيضا قبر أبى بكر الشبلى رحمه الله ، وقبر الحسين ابن منصور^٥

الحلاج ، وبيعداد من قبور الصالحين كثير
رضى الله عنهم .

وبالغربية هي البساتين والحدائق ، ومنها
تجلب الفواكه الى الشرقية . وأما الشرقية
فهي اليوم دار الخلافة ، وكفاها بذلك شرفا
واحترالا . ودور الخليفة مع آخرها ، وهي
تقع منها في نحو الربع أو * أزيد ، لأن جميع
العباسيين في تلك الديار معتقلين اعتقالا
جميلا ، لا يخرجون ولا يظهرون ، ولهم
المرتبات القائمة بهم .

وللخليفة من تلك الديار جزء كبير ، قد
اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة
والبساتين الأنيقة . وليس له اليوم وزير ، انما
له خديم — يعرف بنائب الوزارة — يحضر
الديوان المحتوى على أموال الخلافة ، وبين
يديه الكتب ، فينفذ الأمور . وله قيثم على
جميع الديار العباسية ، وأمين على كافة الحرم
الباقيات من عهد جده وأبيه ، وعلى جميع من
تضمنه الحرمه الخلافة ، يعرف بالصاحب
منجد الدين أستاذ الدار ، هذا لقبه ، ويدعى
له اثر الدعاء للخليفة ، وهو قل ما يظهر للعامة ،
اشتغالا بما هو بسيله من أمور تلك الديار
وحراستها ، والتكفل بمغالقتها وتفقدتها ليلا
ونهارا .

ورونق هذا الملك انما هو على الفتيان
والأحابش المجايب : منهم فتى اسمه
« خالص » ، وهو قائد العسكرية كلها ،
أبصرناه خارجا أحد الأيام ، وبين يديه وخلفه
أمراء الأجناد من الأتراك والديلم وسواهم ،

وحوله نحو خمسين سيفا مسلولة في أيدي
رجال قد احتفوا به ، فشاهدنا من أمره عجبا
في الدهر . وله القصور والمناظر على حجة .

وقد يظهر الخليفة^١ في بعض الأحيان بدجلة
راكبا في زورق ، وقد يصيد في بعض الأوقات
في البرية ، وظهره على حالة اختصار تسمية
لأمره على العامة ، فلا يزداد أمره مع تلك
التعنية الا اشتجارا . وهو مع ذلك يحب
الظهور للعامة ، ويؤثر التجب لهم ، وهو
ميمون النقية عندهم ، قد استسعدوا بأيامه
رخاء وعدلا وطيب عيش ، فالكبير والصغير
منهم داع له .

أبصرنا هذا الخليفة المذكور — وهو أبو
العباس أحمد الناصر لدين الله^٢ بن المستضيء
بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله
أبي المظفر يوسف ، ويتصل نسبه الى أبي
الفضل جعفر المقتدر بالله الى السلف فوqe
من أجداده الخلفاء رضوان الله عليهم —
بالجانب الغربي أمام منظرته به^١ ، وقد انحدر
عنها صاعدا في الزورق الى قصره بأعلى
الجانب الشرقي على الشط .

وهو في فتاء من سنه ، أشقر اللحية
صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن
الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل
القامة ، رائق الرواء ، سنه نحو الخمس
وعشرين سنة ، لابسا ثوبا أبيض شبه القباء
برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة
مذهبة ، مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية
القيمة ، المتخذة للباس الملوك^٢ ، مما هو

كالفلك وأشرف ، متعمدا بذلك زى الأتراك
تعمية لشأته ، لكن الشمس لا تخفى وإن
سترت ؛ وذلك عشية يوم السبت السادس^٢
لصفر سنة ثمانين^٤ .

وأبصرناه أيضا عثى يوم الأحد بعده ،
متطلعا من منظرته المذكورة بالشط^٣ الغربى ،
وكنا نسكن بمقربة منها .

والشرقية حفيلة الأسواق^{*} ، عظيمة
الترتيب ، تشتمل من الخلق على بشر لا
يحصيهم الا الله تعالى الذى أحصى كل شئ
عددا ، وبها من الجوامع ثلاثة ، كل يجتمع
فيها : جامع^٦ الخليفة متصل بداره ، وهو
جامع كبير ، وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة
كاملة : مرافق^٧ الوضوء والطهور . وجامع
السلطان ، وهو خارج البلد ، ويتصل به
قصور تنسب للسلطان أيضا المعروف بشاه
شاه^٨ ، وكان مدبر أمر أجداد هذا الخليفة ،
وكان يسكن هنالك ، فابتنى الجامع أمام
مسكنه . وجامع الرضاة ، وهو على الجانب
الشرقى المذكور ، وبينه وبين جامع هذا
السلطان المذكور مسافة نحو الميل وبالرضاة^٩
تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله .

فجميع جوامع البلد ببغداد ، المجمع فيها ،
أحد عشر .

وأما حماماتها فلا تحصى عدة . ذكر لنا
أحد أشياخ البلد أنها^٢ بين الشرقية والغربية
نحو الألفى حمام ، وأكثرها مطلية بالقار
مسطحة به ، فيخيل للناظر أنه رخام أسود
صقيل . وحمامات هذه الجهات أكثرها على

هذه الصفة ، لكثرة القار عندهم ، لأن شأنه
عجيب يجلب من عين^١ بين البصرة والكوفة ،
وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار ،
فهو يصير فى جوانبها كالصلصال ، فيجرف
ويجلب وقد انعقد . فسبحان خالق ما يشاء ،
لا اله سواه .

وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها
التقدير ، فضلا عن الاحصاء . والمدارس بها
نحو الثلاثين ، وهى كلها بالشرقية ، وما منها
مدرسة الا وهى يقصر القصر البديع عنها ،
وأعظمها وأشهرها النظامية ، وهى التى ابتناها
نظام الملك ، وجددت سنة أربع وخمسمائة .
ولهذه المدارس أوقاف عظيمة ، وعقارات
محبسة تنصير الى الفقهاء المدرسين بها ،
ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذه
البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات
شرف عظيم ، وفخر مخلص ، فرحم الله واضعها
الأول ، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح .

والشرقية أربعة أبواب : فأولها — وهو
فى أعلى الشط — باب السلطان ، ثم باب
الظفرية^١ ، ثم يليه باب الحلبة ، ثم باب
البصلية . هذه الأبواب التى هى فى السور
المحيط بها من أعلى الشط الى أسفلها ، هو
ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة ، وداخلها
فى الأسواق أبواب كثيرة . وبالجمل فشان
هذه البلدة أعظم من أن يوصف ، وأين هى
ما كانت عليه ؟ هى اليوم داخلة تحت قول
حبيب :

لا أنت ولا الديار ديار^١

واتفق رحيلنا من بغداد الى الموصل اثر صلاة العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر ، وهو الثامن والعشرون لمايه ، فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوما . ونحن في صحبة الخاتونين : خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر في هذا التقييد ، وخاتون أم معز الدين صاحب الموصل ، وصحبتهما حاج الشام والموصل وأرض الأعاجم ، المتصلة بالدروب التي^٢ الى طاعة الأمير مسعود ، والد احدى الخاتونين^٣ المذكورتين . وتوجه حاج خراسان وما يليها صحبة الخاتون الثالثة ، ابنة الملك الدقوس ، وطريقهم على الجانب الشرقي من بغداد ، وطريقنا نحن الى الموصل على الجانب الغربي منها .

وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذي توجهنا فيه وقائدتاها ، والله لا يجعلنا تحت قول القائل :

ضاع الرعيل ومن يقوده

ولهما أجناد يرسمها ، وزادهما الخليفة جندا يشيعونهما^٤ مخافة الصرب الخفاجين المضرين^٥ بمدينة بغداد .

وفي تلك المشية التي رحلنا فيها ، فجنبتنا خاتون المسعودية المترفة شابا وملكا ، وهي قد استقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطبتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وعليهما^٦ الجلال المنهبة ، وهما تميران بها سير النسيم سرعة ولينا ، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان ، وهي ظاهرة

في وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعيل من فتياها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق .

ووراءها^١ ركب من جواربها قد ركب المطايا والهماليج على السروج المذهبة ، وعصن رؤوسهن بالمصائب الذهبية ، والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهن يسنن خلف سيدتهن سير السحاب ، ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركبها وعند لزولها وأبصرنا من نخوة الملك النسائي واحتفاله ، رتبة تهم الأرض هرا ، وتسحب أذياله الدنيا عزا .

ويحق أن يفسد بها العز ، ويكون لها هذا هذا الهز ، فإن مسافة مملكة أبيها نحو الأربعة أشهر ، وصاحب القسطنطينية يؤدي إلى الجزية ، وهو من العدل في زعيتها على سيرة عجيبة ، ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية . وأعلننا أحد الحجاج من أهل بلدا أن في هذا العام — الذي هو عام تسعة وسبعين الخالي عنا — استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلدا ، ولقبه عز الدين ، واسم أبيه مسعود ، وهذا الاسم غلب عليه ، وهو عريق في المملكة عن جد فجد .

ومن شرف خاتون هذه — واسمها سلجوقه — أن صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نور الدين ، وهي من أعظم بلاد الدنيا ، فترك البلد لها كرامة لأبيها ، وأعطاها المفاتيح ، فبقى ملك زوجها بسببها . وناهيك من هذا الشأن ، والملك ملك الحى القيوم ، يؤتى الملك من يشاء لا اله سواه .

فكان مبيتنا تلك الليلة باحدى قرى بغداد ،
نزلناها وقد مضى هده من الليل ، وبمقربة
منها دجيل ، وهو نهر يتفرع من دجلة يسقى
تلك القرى كلها . وغدونا من ذلك الموضع
ضحى يوم الثلاثاء ، السادس عشر لصفر
المذكور ، والقرى متصلة فى طريقنا ، فاتصل
سيرنا الى اثر صلاة الظهر ، ونزلنا ، وأقمنا
باقى يومنا ليلحقتنا من تأخر من الحاج ومن
تجار الشام والموصل .

ذكر مدينة تكريت حرسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة ، واسعة الأرجاء ، فسيحة
الساحة ، خفيلة الأسواق ، كثيرة المساجد ،
غاصة بالخلق . أهلها أحسن أخلاقا وقسطا
فى الموازين من أهل بغداد ، ودجلة منها فى
جوفها ، ولها قلعة حصينة على الشط هى
قصبته المنيعة ، ويطيف بالبلد سور ، قد أثر
الوهن فيه ، وهى من المدن العتيقة المذكورة .

ورحلنا مع عشى اليوم المذكور ، وأسرينا
طول الليل ، وأصبحنا يوم السبت ، الموفى *
عشرين منه ، بشط دجلة ، فنزلنا مريحين . ومن
ذلك الموضع يستصحب الماء ليوم وليلة ،
فاستصبحنا ، ورحلنا ذلك اليوم ضحوة ،
فأسرنا الى الليل ، ونزلنا لأخذ نفس راحة
واختلاس سنة نوم ، فهوئنا هنية ، ورحلنا
وأستأذنا الى الصباح .

وتماذى سيرنا الى أن ارتفع النهار من يوم
الأحد بعده ، فنزلنا قائلين بقربة على شط
دجلة تعرف بالجديدة ، وبمقربة منها قرية
كبيرة اجتازنا عليها تعرف بالعقر ، وعلى
رأسها^١ ربوة مرتفعة كانت حصنا لها ،

ثم رحلنا قبيل نصف الليل ، وتماذى
سيرنا الى * أن ارتفع النهار . فنزلنا قائلين
ومريحين على دجيل ، وأسرينا الليل كله ،
فنزلنا مع الصباح بمقربة من قرية تعرف
بالحربة^١ من أخصب القرى وأفسحها . ورحلنا
من ذلك الموضع ، وأسرينا الليل كله ، ونزلنا
مع الصباح من يوم الخميس ، الثامن عشر
الصفر ، على شط دجلة بمقربة من حص
يمرف^٢ بالمعشوق ، ويقال انه (كان) متفرجا
لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجه رحمه الله .

وعلى قبالة هذا الموضع ، فى الشط
الشرقى ، مدينة « سر من رأى » ، وهى اليوم
عبرة من رأى . أين معتصمها وواتقها
ومتوكلها ؟ مدينة كبيرة قد استولى الخراب
عليها ، الا بعض جهات منها هى اليوم معمورة .
وقد أظن المسعودى رحمه الله فى وصفها ،
ووصف طيب هوائها ورائق حسننها ، وهى
كما وصف ، وان لم يبق الا الأثر من
محاسنها . والله وارث الأرض ومن عليها ،
لا اله غيره .

وأسفلها خان جديد بأبراج وشرف ، خفيـل
البنيان وثيقه ، والقري والعنائر من هذا
الموضع الى الموصل متصلة . ومن هنا ينتشر
انتظام الحاج في المشى ، فينبسط كل في
طريقه ، متقدما ومتأخرا ، وبطينا ومستعجلا ،
آمنا مطمئنا .

فرحلنا منها قرب العصر ، وتمادى سيرنا
الى المغرب ، ونزلنا آخذين غفوة سنة خلال
ما تتعشى الابل ، ورحلنا قبل نصف الليل ،
وأدلجنا الى الصباح . وفي ضحوة هذا اليوم
— وهو يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر
والرابع ليونيه — مررنا بموضع ^٢ يعرف
بالقيارة بمقربة من دجلة .

وبالجانب الشرقى منها ، وعن يمين الطريق
الى الموصل فيه ، وهدة من الأرض سوداء
كأنها سحابة ، قد أنبط الله فيها عيونا كبارا
وصغارا تتبع بالقار ، وربما يقذف بعضها
بحجاب ^٣ منه كأنها الغليان ، ويصنع له أحواض
يجتمع فيها ، فتراه شبه الصلصال ، منبسطة
على الأرض ، أسود أملس صقيلا رطباً عطر
الرائحة شديد التعلك ، فيلصق بالأصابع لأول
مباشرة من اللبس .

وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء ،
يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود ، تقذفه
الى جوانبها فيرسب قارا ، فشاهدنا عجا
كنا ^٤ نسمع به فنستغرب سماعه .

وبمقربة من هذه العيون ، على شط دجلة ،
عين * أخرى منه كبيرة ، أبصرنا على البعد
منها ^١ دخانا ، قليل لنا ان النار تشعل فيه ^٢ ،

اذا أرادوا نقله ، فتشقى ^٣ النار وطوبته المائية
وتعقده ^٤ فيقطعونه قطرات * ويحملونه ، وهو
يعم جميع البلاد الى الشام الى عكة الى جميع
البلاد البحرية . والله يخلق ما يشاء ، سبحانه
تعالى جده ، وجلت قدرته لا رب غيره .

ولا شك أن على هذه الصفة هي ^٦ العين
التي ذكر لنا أنها بين الكوفة والبصرة ^٧ ، وقد
ذكرنا أمرها في هذا التقييد .

ومن هذا الموضع الى الموصل مرحلتان ،
وأجزنا تلك العيون القارية ونزلنا قائلين ، ثم
رحنا وسرنا الى العشي ^٤ ونزلنا بقرية ^٨ تعرف
بالعقبة ، ومنها تصبح ^٩ الموصل ان شاء الله .
فأسرنا منها بعد نصف الليل ، ووصلنا
الموصل عند ارتفاع النهار يوم الثلاثاء الثالث
والعشرين لصفر والخامس من يونيه ، ونزلنا
بربضها في أحد الخانات بمقربة من الشط .

ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة ، حصينة فخمة ،
قد طالت صحبتها للزمن ، فأخذت أهبة
استعدادها لحوادث الفتن ، قد كادت أبراجها
تلتقى انتظاما لقرب مسافة بعضها (من بعض) .
وباطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض ،
مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله ، كان ^{١٠}
قد تمكن فتحها فيه لفظ بنيت وسعة
وضعه . وللمقاتلة ^١ في هذه البيوت حرز
وقاية ، وهي من المرافق ^٢ الحربية .

وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها
رصا ، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد

القائمة ، كأنه قضيب من البلور معتدل ، ثم
ينعكس الى أسفل القبة ، ويجمع فى هذين
الجامعين القديم والحديث ، ، ويجمع أيضا
فى جامع الربض .

وفى المدينة مدارس للعلم ، نحو الست^١
أو أزيد على دجلة ، فتلوح كأنها القصور
المشرقة ، ولها مارستانات حاشى الذى ذكرنا
فى الربض . وخص الله هذه البلدة بتربة
مقدسة ، فيها مشهد جرجيس صلى الله عليه
وسلم ، وقد بنى فيها مسجد ، وقبره فى
زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل
اليه ، وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد
وباب الجسر ، يجده المار الى الجامع من باب
الجسر عن يساره ، فتركنا زيارة هذا القبر
المقدس والوقوف عنده ، فنعنا الله بذلك .

ومما خص الله به هذه البلدة أن فى الشرق
منها — اذا عبرت دجلة على نحو الميل — تل
التوبة ، وهو التل الذى وقف به يونس عليه
السلام بقومه ، ودعا ودعوا حتى كشف الله
عنهم العذاب . وبمقربة منه — على قدر الميل
أيضا — العين المباركة المنسوبة اليه ، ويقال
انه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ، ثم
صعدوا على التل داعين .

وفى هذا التل بناء عظيم ، هو رباط يشتمل
على بيوت كثيرة ، ومقاصر ومظاهر وسقايات ،
يضم الجميع باب واحد . وفى وسط ذلك
البناء بيت ينسدل عليه ستر ، وينغلق دونه
باب كريم مرصع كله ، يقال انه كان الموضع
الذى وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم ،

البروج ، وتتصل بها دور السلطان ، وقد
فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من
أعلى البلد الى أسفله ، ودجلة شرقى البلد ،
وهى متصلة بالسور ، وأبراجه فى مائها .

وللبدة ربض كبير فيه المساجد والخمائم
والخانات والأسواق ، وأحدث فيه بعض أمراء
البلدة — وكان يعرف بمجاهد الدين —
جامعا على شط دجلة ، ما أرى وضع جامع^٢
أحفل منه بناء ، يقصر الوصف عنه وعن
تزينه وترتيبه ، وكل ذلك نقش فى الحجر ،
وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، ويظيف
به شبابيك حديد ، تتصل بها مصاطب تشرف
على دجلة ، لا مقعد أشرف منها ولا أحسن .
ووصفه يطول ، وانما وقع الالماع بالبعض
جريا الى الاختصار .

وأمامه مارستان حفيظ من بناء مجاهد
الدين المذكور ، وبنى أيضا داخل البلد وفى
سوقه قيسارية للتجار ، كأنها الخان العظيم ،
تنغلق عليها أبواب حديد ، وتظيف بها دكاكين
وبيوت بعضها على بعض ، قد جلى ذلك كله
فى أعظم صورة من البناء المزخرف الذى
لا مثيل له ، فما أرى فى البلاد قيسارية
تعديلها .

وللمدينة جامعان : أحدهما جديد ، والآخر
من عهد بنى أمية . وفى صحن هذا الجامع
قبة داخلها سارية رخام قائمة ، قد خلخل
جيدها بخسة خلاخل مفتولة قتل السوار من
جرم رخامها ، وفى أعلاها نخسة رخام
مشنة ، يخرج عليها أنبوب من الماء خروج
انزعاج وشدة ، فيرتفع فى الهواء أزيد من

ومحراب هذا البيت يقال انه كان بيته الذى كان يتعبد فيه ، ويظف بهذا البيت شمع كانه جذوع النخل عظما ، فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويتعبدون فيه .

وحول هذا الرباط قرى كثيرة ، ويتصل بها خراب عظيم يقال انه كان مدينة نيسوى ، وهى مدينة يونس عليه السلام ، وأثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر ، وفرج الأبواب فيه بيعة ، وأكوام أبراجه مشرفة . بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ، (ثم) صبحنا العين المباركة ، وشربنا من مائها وتطهرنا فيها ، وصلينا فى المسجد المتصل بها ، والله ينفع بالنية فى ذلك بمنه وكرمه

وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة ، يستعملون أعمال البر ، فلا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغريب واقبال عليهم ، وعندهم اعتدال فى جميع معاملاتهم . فكان مقامنا فى هذه البلدة أربعة أيام .

ومن أحفل المشاهد الدنياوية المربية ، بروز شاهدناه يوم الأربعاء - ثانى يوم وصولنا الموصل - للخاتونين : أم معز الدين صاحب الموصل ، وبنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها . فخرج الناس عن بكرة أيهم ركباناً ومشاة ، وخرج النساء كذلك - وأكثرهن راكبات - قد اجتمع منهن عسكر جرار - وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج الموصلة صحبة خاتونهم على

احتفال وأبهة ، قد جللوا أعناق بلهم بالحري الملون ، وقلدوها القلائد المزوقة .

ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواربها ، وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف ، وسلاسل وتمائيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعاً ٢ ، ومطياتها تزخرفان بها زحفاً ، وصخب ٣ ذلك الحلى يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب ، ومراكب جواربها كذلك ، مجموع ذلك الذهب لايحصى تقديره . وكان مشهداً أبهت الأبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل ملك يفنى الا ملك الواحد القهار لا شريك له .

وأخبرنا غير واحد من الثقات ممن يعرف حال خاتون هذه ، أنها موصوفة بالعبادة والخير مؤثرة لأفعال البر . فمنها أنها أنفقت فى طريقها هذا الى الحجاز فى صدقات ونفقات فى السبيل مالا عظيماً ، وهى تحب الصالحين والصالحات ، وتزورهم متكررة رغبة فى دعائهم . وشأنها عجيب كله ، على شبابها وانغماسها فى نعيم الملك ، والله يهدي من يشاء من عباده .

وفى عشى اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة ، وهو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور ، رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل تفادياً من معاملة الجمالين ، على أن القدر المحمود لم يسبب لنا الا صحبة الأشبه منهم ، ومن شكرناه على طول الصحبة

ذكر مدينة نصيبين ، حرسها الله

شهرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب
وباطنها هرم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر
والصغر ، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر
مد البصر ، قد أجرى ^١ الله فيه مذاب من الماء
تسقيه ، وتطرد في نواحيه ، وتحف بها عن
يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار ، يانعة
الثمار ، يتساب بين يديها نهر قد انعطف
عليها ^٢ انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم
بحافته ^٣ ، وتنفى ظلالها الوارفة عليه . فرحم
الله أبا نواس الحسن بن هانئ . حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوما فطبت لها
يا ليت حظي من الدنيا نصيبين

فخارجها رياض الشمال ، ألدلى
الخمائل ، يرف غضارة ونضارة ، ويتألق عليه
روث الحضارة ، وداخلها شعث البادية باد *
عليه ، فلا مطمح للبصر اليه ، لا تجد العين
فيه فسحة مجال ولا ^٤ مسحة جمال

وهذا النهر يتسرب ^٥ اليها من عين معينة ،
منبعها بجبل قريب منها ، تنقسم منها مذاب
تخترق بسائطها وعمائرها ، ويتخلل البلد منها
جزء فيتفرق ^٦ على شوارعها ^٧ ، ويلح في بعض
ديارها ، ويصل الى جامعها المكرم منه سرب ^٨
يخترق صحنه ، وينصب في صهييجين :
أحدهما وسط الصحن ، والآخ عند الباب
الشرقي منه ، ويفضى ^٩ الى سقايتين حول
الجامع . وعلى النهر المذكور جسر معقود من
صم الحجارة يتصل ^{١٠} بباب المدينة القبلى ،

وتصاديها من مكة - شرقها الله - الى
الموصل . فأسرنا ليلة السبت الى بعيد نصف
الليل ، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل .

ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور ،
وقلنا بقرية تعرف بعين الرصد ، وكان مقيلا
تحت جسر معقود على واد يتحدر فيه الماء ،
وكان مقيلا مباركا . وفي تلك القرية خان
كبير جديد ، وفي محلات الطريق كلها
خانات ، واتفق مييت تلك الليلة بالقرية
المذكورة ، وأسرنا منها ، وأصبحنا يوم الأحد
بقرية تعرف بالمويصلة وأسرنا منها ، وبتنا
بقرية كبيرة تعرف بجداول ، لها حصن عتيق .

وفي يومنا هذا رأينا عن يمين الطريق
جبل الجودي المذكور في كتاب الله تعالى ^١ ،
الذى استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ،
وهو جبل عال مستطيل . ثم رحلنا في السحر
الأعلى من يوم الاثنين ، التاسع والعشرين
لصفر ، فكان مييتنا بقرية من قرى نصيبين
ومنها اليها مرحلة ، ويعرف الموضع المذكور
بالكلابى

شهر ربيع الاول من سنة ثمانين
عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة الثاني
عشر من يونيو ، ونحن بالقرية المذكورة ،
فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ،
ووصلنا نصيبين قبل الظهر من اليوم
المذكور .

وفيها مدرستان ومارستان واحد ، وصاحبها معين الدين ، أخو معز الدين صاحب الموصل ، ابنا بابل .

ولمعين (الدين) أيضا مدينة سنجار ، وهي عن يمين الطريق الى الموصل . ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم الشيخ أبو اليقظان الأسود الجسد ، الأبيض الكبد ، أحد الأولياء الذين نور الله بصائرهم بالايمان ، وجعلهم من الباقيات الصالحات في الزمان ، الشهير المقامات ، الموصوف بالكرامات ، نضو التبتل والزهادة ، ومن أخلقت جدته العبادة ، قد اكتفى بنسج يده ، ولا يدخر من قوت يومه لغده . أسعدنا الله بلقائه ، وأصبحنا من بركة دعائه ، عشى يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول ، فحمدنا الله عز وجل على أن من علينا برؤيته ، وشرفنا بمصافحته ، والله ينفعنا بدعائه ، انه سميع مجيب لأله سواه .

فكان نزولنا بها في خان خارجها ، وبتنا بها ليلة الأربعاء الثاني من ربيع الأول ، ورحلنا صبيحته في قافلة كبيرة من البغال والحمير ، حرائين وحليين وسواهم من أهل البلاد ، بلاد بكر وما يليها ، وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال .

فتبادى سيرنا الى أول الظهير ، ونحن على أهبة وحذر من اغارة الأكراد ، الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل الى نصيبين الى مدينة دنيصر ، يقطعون السبيل ، ويسعون فسادا في الأرض ، وسكناهم في جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ، ولم يعن

الله سلاطينها على قمعهم وكف عاديتهم ، فهم ربما وصلوا في بعض الأحيان الى باب نصيبين ، ولا دافع لهم ولا مانع الا الله عز وجل .

فقلنا يوم الأربعاء المذكور ، ورأينا ذلك اليوم ، عن يمين طريقنا بقرب من صفح الجبل ، مدينة داري العتيقة ، وهي بيضاء كبيرة لها قلعة مشرفة ، ويلها بمقدار نصف مرحلة مدينة * ماردين ، وهي في صفح ١ جبل في قنته قلعة لها كبيرة ، هي من قلاع الدنيا الشهيرة ، وكلتا المدينتين ٢ معمورة .

ذكر مدينة دنيصر ، حرسها الله

هي في بسيط من الأرض فسيح ، وحولها بساتين الرياحين والخضر تسقى بالسواقي ٣ ، وهي مائلة الطبع الى البادية ولا سور لها ، وهي مشحونة بشرا ، ولها الأسواق الحفيلة والأرزاق الواسعة ، وهي مخطر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التي تلي طاعة الأمير مسعود وما يليها . ولها المحرث الواسع ، ولها مرافق كثيرة .

فكان نزولنا مع القافلة ببراح ظاهرها ، وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع (الأول) بها مريحين . وخارجها مدرسة جديدة بقية البناء فيها ، ويتصل بها حمام ، والبساتين حولها ، فهي مدرسة ومأنة . وصاحب هذه البلدة قطب الدين ، وهو أيضا صاحب مدينة داري ومدينة ماردين ورأس العين ، وهو قريب لابني بابل .

وهذه البلدة لسلطين شتى ، كملوك طوائف الأندلس ، كلهم قد تحلى بحلية تنسب الى الدين ، فلا تسمع الا ألقابا هائلة ، وصفات لذى التحصيل غير طائلة ، قد تساوى فيها السوق والملوك ، واشترك فيها الفنى والصلوك ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خليق . الا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن ، المشتهر الفضل والعدل ، فهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك فى سواء فزعازع ريح ، وشهادات يردّها التجريح ، ودعوى نسبة للدين برحت به أى تبريح :

ألقاب مملكة فى غير موضعها

كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

ونرجع الى حديث المراحل — قربها الله — فكان مقامنا بدنيصر الى أن صلينا الجمعة ، وهو اليوم الرابع لربيع (الأول) ، تلوم أهل القافلة بها لشهود سوقها * لأن بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق خفيلة ، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها ، والقرى المتصلة بها ، لأن الطريق كلها يمينا وشمالا قرى متصلة وخانات مشيدة ، ويسمون هذه السوق — المجتمع اليها من الجهات — البازار ، وأيام كل سوق معلومة .

ورحلنا اثر صلاة الجمعة ، فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن تعرف بتل العقاب ، هى للنصارى المعاهدين الذميين ، ذكرتنا هذه

القرية بقرى الأندلس حسنا ونضارة ، فتحققا البساتين والكروم وأنواع الأشجار ، ويسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه ، وخطها متسع ، والبساتين قد انتظمت ، وشاهدنا بها من الخنايص أمثال الغنم كثرة وألسا بأهلها .

ثم وصلنا عشى النهار الى قرية أخرى تعرف بالجسر ، هى الآن لناس من المعاهدين ، وهم فرقة من فرق الروم . فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع المذكور ، ثم أسحرنا منها ، ووصلنا مدينة رأس العين قبل الظهر من يوم السبت المذكور .

ذكر مدينة رأس العين ، حرسها الله

هذا الاسم لها من أصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات . وذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيونا ، وأجراها ماء معيناً ، فتقسمت مذائب ، والنسابت جداول تبسط فى مروج خضر ، فكانها سبائك اللجين مدودة فى بناط الزبرجد ، تحف بها أشجار وبساتين ، قد انتظمت حافتيها الى آخر انتهائها من عمارة بطحائها .

وأعظم هذه العيون عينان ، احدهما ٢ فوق الأخرى : فالعليا منهما ٢ تابعة فوق الأرض فى صم الحجارة ، كأنها فى جوف غار كبير متسع يبسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ، ثم يخرج ويسيل نهرا كبيرا كأكبر ما يكون من الأنهار ، وينتهى الى العين الأخرى ويلتقى بمائها .

وهذه العين الثائية عجب من عجائب مخلوقات الله عز وجل . وذلك أنها تابعة تحت الأرض من الحجر الصلب بنحو أربع قامات أو آقريد ، ويتسع منبعها حتى يصير صهريجاً في ذلك العمق ، وبعلو بقوة تبعه حتى يسيل على وجه الأرض . فربما يروم السابح ، القصى السباحة الشديد ، القوص في أعماق المياه أن يصل بغوصه إلى قعره ، فيبجه الماء يقوّة انبعاثاً من منعه ، فلا يتناهى في غوصه إلى مقدار نصف مسافة العمق أو أقل شيئاً ، شاهدنا ذلك عياناً .

وماؤها أصفى من الزلال ، وأعذب من التسلسيل ، يشف^٢ عما حواه ، فلو طرح الدينار فيه في الليلة الظلماء لما أخفاه ، وبصاد هيها سمك جليل من أطيب ما يكون من السمك .

وينقسم ماء هذه العين نهريْن : أحدهما آخذ يمينا ، والآخر ساراً . فالأيمن يشق حقاقة مبنية للصوفية^٢ والعرباء بازاء العين ، وهي تسمى الرباط أيضاً . والأيسر يسرب على جانب الخاقة ، وتفضى منه جداول إلى مطايرها ومراقفها المعدة للحاجة البشرية ، ثم يلتقيان أسفلها مع نهر العين الأخرى العليا . وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع بيوت آروحي ، تتصل على شط موضوع وسط^٤ النهر كأنه سد ، ومن مجتمع ماء هاتين العينين منشأ نهر الغابور .

وبمقربة من هذه الخاقة ، بحيث تناظرها ، مدرسة بازائها حمام ، وكلاهما قد وهى

وأخلق وتعطل . وما أرى كان في موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لأنها في جزيرة خضراء ، والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب ، والمدخل إليها من جانب واحد ، وأمامها ووراءها بستان ، وبازائها دولاب يلقي الماء إلى بساتين مرتفعة عن مصب النهر .

وشأن هذا الموضع كله عجيب جداً ، فغاية حسن القرى^٦ بشرقى الأندلس أن يكون لها مثل هذا الموضع جمالاً ، أو تتحلى^١ بمثل هذه العيون . والله القدرة في جميع مخلوقاته .

وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء ، وللحضارة عنها استغناء ، لا سور يحصنها^٢ ، ولا دون أتيقة البناء تحسنها . قد ضحيت في صحرائها كأنها عوذة لبطحاتها ، وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن ، ولها جامعان : حديث ، وقديم . فالقديم بموضع هذه العيون ، وتتفجر أمامه عين معينة هي بدون اللتين ذكرناهما ، وهو^٣ من بنيان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لكنه قد أثر القدم فيه حتى آذن بتداعيه . والجامع الآخر داخل البلد ، وفيه يجمع أهله . فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة لم نخلس في سفرنا كله مثلاً

فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور ، وهو السادس عشر ليونيه ، رحلنا منها رغبة في الاساءد وبرد الليل ، وتقاديا من حر هجيرة التأويب ، لأن منها إلى حران مسيرة يومين لا عمارة فيها . فتبادى سيرنا إلى الصباح ، ثم نزلنا في الصحراء على ماء جب ، وأرحنا قليلاً .

ثم رفعتنا ضحوة النهار من يوم الأحد ،
وسرنا ، ونزلنا قريب العصر على ماء بئر ،
بموضع فيه برج مشيد وآثار قديمة ، يعرف
برج حواء ، فبتنا به ، ثم رفعتنا منه بعد
تهويم ساعة ، وأسرينا الى الصباح ، فوصلنا
مدينة حران^٤ مع طلوع الشمس من يوم
الاثنين السابع لربيع المذكور ، والثامن عشر
ليوليّه ، والحمد لله على تيسيره .

ذكر مدينة حران ، كلاها الله

بلد لا حسن لديه ، ولا ظل يتوسط
برديه^٥ ، قد اشتق من اسمه هواؤه ، فلا يألف
البرد مأؤه^٦ ، ولا تزال تنقد بلفح الهجير
ساحاته^٧ وأرجاؤه . لا تجد فيه مقيلا ، ولا
تتنفس منه^٨ الا نقسا ثقيلا . قد نبذ بالعراء ،
ووضع في وسط الصحراء ، فعدم روثق
الحفارة ، وتعمرت أعطافه من ملابس
النضارة .

استغفر الله ! كفى بهذا البلد شرقا وفضلا
أنها البلدة^٩ العتيقة المنسوبة لأبينا ابراهيم
صلى الله عليه وسلم ، وله بقبليها - نحو
ثلاثة فراسخ - مشهد مبارك ، فيه عين
جارية ، كان مأوى له ولسارة ، صلوات الله
عليهما ، وامتددا لهما . ببركة هذه النسبة قد
جمل الله هذه البلدة مقرا للصالحين المتزهدين ،
ومثابة للسائقين المتبتلين .

لقينا من أفرادهم الشيخ أبا البركات حيان
ابن عبد العزيز^{١٠} ، حذاء مسجده المنسوب
اليه ، وهو يسكن منه في زاوية بناها في
قبلته ، وتتصل بها في آخر الجانب زاوية .

لابنه عمر قد التزمها ، وأشبه طريقة أبيه فما
ظلم ، وتعرفت منه شنشنة أعرفها من أخزم^{١١} .
فوصلنا الى الشيخ - وهو قد نيف على
الثمانين - فصافحنا ودعا لنا ، وأمرنا بلقاء
ابنه عمر المذكور ، فلما اليه ولقيناه ودعا
لنا ، ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين بلقاء
رجلين من رجال الآخرة .

ولقينا أيضا بمسجد عتيق ، الشيخ الزاهد
سلمة ، فلقينا رجلا من الزهاد الأفراد ، فدعا
لنا وسألنا ، وودعنا وانصرفنا . وبالبلد سلمة
آخر ، يعرف بالكشوف الرأس ، لا يغطي
رأسه تواضعا لله عز وجل ، حتى عرف بذلك ،
ووصلنا الى منزله ، فأعلمنا أنه خرج للبرية
سائحا . وبهذه البلدة كثير من أهل الخير ،
وأهلها هينون^{١٢} معتدلون ، محبوبون للغرباء ،
مؤثرون للفقراء .

وأهل هذه البلاد ، من الموصل لديار بكر
وديوار ربيعة الى الشام ، على هذه السبيل من
حب الغرباء ، واکرام الفقراء ، وأهل قراها
كذلك ، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم
زادا ، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة^{١٣} .
وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل
عجيب ، والله ينفعهم بما هم عليه . وأما
عبادهم وزهادهم والسائقون في الجبال
منهم ، فأكثر من أن يقيدهم الاحصاء ، والله
ينفع المسلمين ببركاتهم ، ووصول دعواتهم ،
بمنه وكرمه .

ولهذه البلدة المذكورة أسواق خفيفة
الانتظام ، عجيب الترتيب ، مسقفة كلها

بالخشب ، فلا يزال أهلها في ظل ممدود ، فتخترقها كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع ، قد بنى عند كل ملتقى أربع سكك أسواق منها ، قبة عظيمة مرفوعة ، مصنوعة من الجص ، هي كالمفرق اتلك السكك .

ويتصل بهذه الأسواق جامعها المكرم ، وهو عتيق مجدد^١ ، قد جاء على غاية الحسن ، وله صحن كبير فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوارى رخام ، وتحت كل قبة بئر عذبة ، وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة ، قد قامت على عشر سوار من الرخام ، دور كل سارية تسعة أشبار ، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم ، دوره خمسة عشر شبرا . وهذه القبة من بانيان الروم ، وأعلاها مجوف كأنه البرج المشيد ، يقال انه كان مخزنا لعدتهم الحزينة ، والله أعلم .

والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا^٢ ، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط ، وسعته خمس عشرة خطوة ، وهو^٣ خمسة أبلطة ، وما رأينا جامعا أوسع حنايا منه . وجداره المتصل بالصحن ، الذى عليه المدخل اليه ، مفتوح كله أبوابا عددها تسعة عشر بابا : تسعة يمينا^٤ ، وتسعة شمالا ، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الأبواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار الى أسفله ، بهى^٥ المنظر ، جميل الوضع ، كأنه باب من أبواب المدن الكبار . ولهذه الأبواب كلها أغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش ، تنطبق عليها على شبه أبواب مجالس القصور . فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع ، وحسن

ترتيب أسواقه المتصلة به ، مرأى عجيبا ، قل ما يوجد في المدن مثل انتظامه

ولهذه البلدة مدرسة ومارستالا ، وهي بلدة كبيرة ، وسورها متين حصين مبنى بالحجارة المنحوتة ، المرصوص بعضها على بعض في نهاية من^١ القوة ، وكذلك بانيان الجامع المكرم ، ولها قلعة حصينة مما يلي الجهة الشرقية منها ، منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما ، ومنقطعة أيضا عن سورها بحفير عظيم يستدير بها ، قد شيدت حافته بالحجارة المركومة ، فجاء في نهاية الوثاقة والقوة ، وسور القلعة وثيق الحصانة .

ولهذه البلدة نهر مجراه بالجهة الشرقية أيضا منها ، بين سورها وجباتها ، ومصبه من عين هي^٢ على بعد من البلد . والبلد كثير الخلق ، واسع الرزق ، ظاهر البركة ، كثير المساجد ، جم المرافق ، على أحفل ما يكون من المدن . وصاحبه مظفر الدين بن زين الدين ، وطاعته الى صلاح الدين^٣ .

وهذه البلاد كلها : من الموصل ، الى نصيبين ، الى الفرات ، المعروفة بديار ربيعة — وحدها من نصيبين الى الفرات ، مع مايلي الجنوب من الطريق ، وديار بكر التى تليها فى الجانب الجوفى : كآمد وميافارقين و...^٤ وغيرها مما يطول ذكره — ليس فى ملوكها من يتأهض صلاح الدين ، فهم الى طاعته وان كانوا مستبدين ، وفضله يبقى عليهم ، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله .

فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور ، وأقمنا مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده . واثرا الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس الذى فاتنا لقاءه يوم الاثنين ، فلقيناه بمسجده ، فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين وسمت المحبين ، مع طلاقة وبشر وكرم لقاء وبر ، فأنسنا ودعا لنا ، وودعناه ، وانصرفنا حامدين لله عز وجل ، على ما من به علينا من لقاء أوليائه الصالحين وعباده المقربين .

وفى ليلة الأربعاء ، التاسع لربيع المذكور ، كان رحيلنا بعد تهويم ساعة . فأسرنا الى الصباح ، ونزلنا مريحين بموضع يعرف بتل عبدة ، وهو موضع عبارة ، وهذا التل مشرف متسع كأنه المائدة المنصوبة ، وفيه أثر بناء قديم ، وبهذا الموضع ماء جار .

وكان رحيلنا منه عند المغرب ، وأسرينا الليل كله ، واجتزنا على قرية تعرف بالبيضاء ، فيها خان كبير جديد ، وهو نصف الطريق من حران الى الفرات ، ويقابلها على اليمين من الطريق — فى استقبالك الفرات الى الشام — مدينة سروج ، التى شهر ذكرها الحريرى بنسبة أبى زيد اليها ، وفيها البساتين والمياه المطردة ، حسبما وصفها به فى مقاماته .

فكان وصولنا الى الفرات ضحوة النهار ، وعبرنا فى الزواريق ، المقلّة المعدة للمبور ، الى قلعة جديدة على الشط تعرف بقلعة نجم ، وحولها ديار بادية ، وفيها سويقة يوجد فيها المهن من علف وخبز . فأقمنا بها يوم الخميس ،

العاشر لربيع الأول المذكور ، مريحين خلال ما تكمل القافلة بالمبور . وإذا عبرت الفرات حصلت فى حد الشام ، وبسرت فى طاعة صلاح الدين الى دمشق .

والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر ، وعن يسار الطريق — فى استقبالك الفرات الى الشام — مدينة الرقة ، وهى على الفرات ، وتليها رحبة مالك بن طوق — وتعرف برحبة الشام — وهى من المدن الشهيرة . ثم رحلنا منها عند مضي ثلث الليل الأول ، وأسرينا ، ووصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة ، الحادى عشر لربيع المذكور ، والثانى والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة منبج ، حرسها الله

بلدة فسيحة الأرجاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتها ، جوها صقيل ومجتلاها جميل ، ونسيمها أرج النشر عليل ، نهارها يندى ظله ، وليلها ١ كما قيل فيه سحر كله ، تحف بغريبها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار ، مختلفه الثمار ، والماء يطرد فيها ، ويتخلل جميع نواحيها .

وخصص الله داخلها بآبار معينة ، شهيدة العذوبة ، سلسيلية المذاق ، تكون فى كل دار منها البرّ والبثران . وأرضها أرض كريمة ، تستنبط ٢ مياهها كلها ، وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا ، وأعالى

أسواقها مستقفة ؛ وعلى هذا الترتيب أسواق
أكثر مدن هذه الجهات .

لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الأحقاب ،
حتى أخذ منها الخراب . كانت من مدن الروم
العتيقة ، ولهم فيها من البناء آثار تدل على
عظم اعتنائهم بها ، ولها قلعة حصينة في
جوفها تنقطع عنها وتتجاوز منها . ومدن هذه
الجهات كلها لا تخلو من القلاع السلطانية .

وأهلها أهل فضل وخير ، سنيون
شافعيون ، وهي ^٢ مطهرة بهم من أهل المذاهب
المنحرفة والعقائد الفاسدة ، كما تجده في
الأكثر من هذه البلاد ، فمعاملاتهم صحيحة ،
وأحوالهم مستقيمة ، وجاداتهم الواضحة في
دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة .
فكان نزولنا خارجها في أحد بساتينها ، وأقمنا
يوماً مريحين ، ثم رحلنا نصف الليل ، ووصلنا
بزاغة ضحوة يوم السبت الثاني عشر لربيع
المذكور .

ذكر بلدة بزاغة ، كذاها الله عز وجل

بقعة طيبة الثرى ، واسعة الذرى ، تصغر
عن المدن ، وتكبر عن القرى . بها سوق تجمع
بين المرافق السفرية والمتاجر الحضرية ، وفي
أعلىها قلعة كبيرة حصينة ، راماها أحد ملوك
الزمن فغاظته باستصعابها ، فأمر بثلم بنائها
حتى غادرها عورة منبوذة ^٣ بعرائها . ولهذه
البلدة عين معينة ، يخترق ماؤها سيط بطحاء
ترف بساتينها خضرة ونضارة ، وتزيك بروقها
الأنيق حسن الحضارة .

وبناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة ،
تعرف بالبواب ، هي باب بين بزاغة وحلب ،
وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من
الملاحدة الاسماعيلية لا يحصى عددهم الا الله ،
فطار شرارهم ، وقطع هذه السبيل فسادهم
واضرارهم ^١ . حتى داخل أهل هذه البلاد
العصية ، وحركتهم الأثقة والحمية ، فتجمعوا
من كل أوب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم
فاستأصلوهم عن آخرهم ، وعجلوا بقطع
دابرهم ، وكومت بهذه البطحاء جماعهم ^٢ ،
وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم ، وأحق
بهم مكرهم ، والحمد لله رب العالمين .
وسكانها اليوم قوم سنيون .

فأقمنا بها يوم السبت ، يبطحاء هذه
البلدة مريحين ، ورحلنا منها في الليل ، وأسرنا
الى الصباح ، ووصلنا مدينة حلب ضحوة يوم
الأحد الثالث عشر لربيع الأول والرابع
والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة حلب ، حرسها الله تعالى

بلدة قدرها خطير ^١ ، وذكرها في كل زمان
يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من
النفوس ^٢ أثير . فكم حاجت ^٣ من كفاح ،
وسلت ^٤ عليها من بيض الصفاح . لها قلعة
شهرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة
الشبه والنظير في القلاع ، تنزهت حصانة أن
ترام أو تستطاع .

قاعدة كبيرة ، ومائدة من الأرض مستديرة ،
منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة ^٧ اعتدال
واستواء . فسبحان من أحكم تقديرها
وتدبيرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها
وتدويرها . عتيقة فى الأزل ، حديثة وان لم
تزل ، قد طاولت الأيام والأعوام ، وشيعت ^٨
الخواص والعوام .

هذه منازلها وديارها ، فأين سكانها قديما
وعمارها ؟ وتلك دار ^١ مملكتها وفنائها ^٢ ،
فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ أجل
فنى جسيمهم ، ولم يأن بعد فنائها ^٣ . فيا عجا
للبلاذ تبقى وتذهب أملاكها ، ويهلكون ولا
يقضى هلاكها . تخطب بمدحهم فلا يتعذر
ملاكها ^٤ ، وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها .

هذه حلب ! كم أدخلت من ملوكها فى خبر
كان ، ونسخت ظرف ^٥ الزمان بالمكان . أئنت
اسمها فتحت بزينة ^٦ القوان ، ودانت بالعدر
فيمن خان ^٧ ، وتجلت عروسا بعد سيف
دولتها ابن حمدان . هيهات هيهات سيهرم ^٨
شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين
خرابها ، وتتطرق جنبات الحوادث اليها ،
حتى يرث ^٩ الله الأرض ومن عليها ، لا اله
سواه سبحانه جلت قدرته .

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده ، قلنعد
الى ما كنا بصده ، فنقول ان من شرف هذه
القلعة أنه يذكر أنها كانت قديما فى الزمان
الأول ربوة يأوى اليها ابراهيم الخليل ، عليه
وعلى نبينا الصلاة والتسليم ، بغنيمات له ^{١٠}
فيحلبها هناك ويتصدق بلبنها ، فلذلك سميت

حلب ، والله أعلم ، وبها مشهد كريم له ^{١١}
يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه .

ومن كمال خلالها المشترطة فى حصانة
القلاع ^{١٢} أن الماء بها نابع ، وقد صنع * عليه
جبان ^١ ، فهما ينبعان ماء ، فلا تخاف الظماء أبد
الدهر ، والطعام يصبر ^٢ فيها الدهر كله ،
وليس فى شروط الحصانة أهم ولا أكد من
هاتين الخلتين . ويطيف بهذين الجبين
المذكورين سوران ^٣ حصينان ، من الجانب
الذى ينظر للبلد ، ويعترض دونهما خندق
لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه ، والماء ينبع
فيه ^٤ .

وشأن هذه القلعة فى الحصانة والحسن
أعظم من أن تنتهى الى وصفه ، وسورها
الأعلى كله * أبراج منتظمة فيها العلالى
المنيفة ^٦ ، والقصاب المشرفة ^٧ ، قد تفتحت
كلها طيقانا ، وكل برج منها مسكون ، وداخلها
المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة الملوكية .

وأما البلد فموضوعه ضخم جدا ، حفيل ^٨
التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق
كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من
(سماط) صنعة الى سماط صنعة أخرى الى أن
تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها
مستقف بالخشب ، فسكانها فى ظلال وارفة ،
فكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا ،
وتستوقف المستوفز تعجبا .

وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة
وجمالا ، مطيعة بالجامع المكرم ، لا يتشوق
الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائى

الرياضية . وأكثر حوائيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ؛ قد اتصل السماط^١ خزانة واحدة ، وتخللتها شرف خشبية^٢ بديعة النقش ، وتفتحت كلها حوائيت ، فجاء منظرها أجمل منظر ، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم .

وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع ، مفتوح كله أبوابا قصرية الحسن الى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الأبصار حسن منظرها ، وفي صحنه بئران معيتان^٣ ، والبلاط القبلي لا مقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع رائع الانشراح .

وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما أرى في بلد من البلاد منبرا على شكله وغرابة صنعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجلت صفحاته كلها حسنا على تلك الصفة الغربية ، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وعلا حتى اتصل بسبك السقف ، وقد قوس أعلاه ، وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع كله بالعاج والآبنوس ، واتصال الترصيع من المنبر الى المحراب مع ما يليهما^٤ من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال ، فتجلى العيون منه أبدع منظر يكون^٥ في الدنيا .

وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف . ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية^٦ تناسب الجامع حسنا واتقان صنعة ، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى . وهذه

المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن أطرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتوح كله بيوتا وغرفا ، لها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مشرعنا ، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا أمامها ، فيمد الساكن فيها يده ، ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة .

وللبدة سوى هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس ، ولها مارستان ، وأمرها في الاحتفال عظيم . فهي بلدة تليق بالخلافة ، وحسنتها كله داخل ، لا خارج لها الا نهير يجري من جوفها الى قبتها ، ويشق ربضها المستدير بها ، فإن^٦ لها ربضا كبيرا فيه من الخانات ما لا يحصى عدده^٧ . وبهذا النهر الأرحاء ، وهي متصلة بالبلد ، وقائمة وسط ربضه ، وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله .

وكيف ما كان الأمر فيه ، داخلا وخارجا ، فهو من بلاد الدنيا التي لا نظير لها ، والوصف فيه يطول . فكان نزولنا بربضه في خان يعرف بخان أبي السكر ، فأقمنا به أربعة أيام ، ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور ، والثامن والعشرين ليونه ، ووصلنا قنشرين ، قبيل العصر ، فأرخنا بها قليلا ، ثم انتقلنا الى قرية تعرف بتل تاجر ، فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه .

وقنشرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان ، لكنها خربت وعادت كأن لم تكن

بالأمن ، فلم يبق الا آثارها الدارسة
ورسومها الطامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة
لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضا وطولا .
وتشبهها من البلاد الأندلسية جيان ، ولذلك^٢
يذكر أن أهل قصرين ، عند استفتاح
الأندلس ، نزلوا جيان تأنسا بشبه^٣ الوطن
وتملأ به ، مثل ما فعل في أكثر بلادها حسب
ما هو معروف .

ثم رحلنا من ذلك الموضع عند الثلث الماضي
من الليل ، فأسرنا وسرنا الى ضحوة من
النهار ، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف
بباقدين ، في خان كبير يعرف بخان التركمان
وثيق الحصانة . وخانات هذا الطريق كأنها
القلاع امتناعا وحصانة ، وأبوابها حديد ،
وهي من الوثاقة في غاية .

ثم رحلنا من هذا الموضع ، وبتنا بموضع
يسرف بتنى ، في خان وثيق على الصفة
المذكورة . ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع
عشر لربيع الأول المذكور ، وهو آخر يوم من
يونه ، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين ،
يوم الجمعة المذكور ، بلاد المعرة . وهي سواد
كلها بشجر الزيتون والتين والفسق وأنواع
الفواكه ، ويتصل التفاف بساكنيها وانتظام
قراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب بلاد
الله وأكثرها أرزاقا .

ووراءها جبل لبنان ، وهو سامى الارتفاع
ممتد الطول ، يتصل^١ من البحر الى البحر ،
وفي صفحته^٢ حصون للملاحدة الاسماعيلية :
فرقة مرقت من الاسلام ، وادعت الالهية في

أحد الأنام . قبيض لهم شيطان من الأندلس ،
يعرف بسنان ، خلعهم بأباطيل وخيالات ، موه
عليهم باستعمالها وسحرهم بحالها ، فاتخذوه^٣
الها يعبدونه ، ويذلون الأنفس دونه ،
وحصلوا من طاعته وامثال أمره بحيث يأمر
أحدهم بالتردى من شاهقة^٤ جبل فيتردى ،
ويستعجل في مرضاته الردى . والله يفضل من
يشاء ، ويهدي من يشاء بقدرته ، نعوذ به
سبحانه من الفتنة في الدين ، ونسأله العصمة
من ضلال الملحدين ، لا رب غيره ولا معبود
سواه .

وجبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد
المسلمين والافرنج ، لأن وراءه أنطاكية
واللاذقية وسواهما^٥ من بلادهم ، أعادها
للمسلمين . وفي صفح الجبل المذكور حصن
يعرف بحصن الأكراد ، هو للافرنج ، ويغرون^٦
منه على حماة وحمص ، وهو بمرأى العين
منهما . فكان وصولنا الى مدينة حماة في
الضحى الأعلى من يوم السبت المذكور ،
فنزّلنا بربضها في أحد خاناته .

ذكر مدينة حماة ، حماها الله تعالى

مدينة شهيرة في البلدان ، قديمة الصلبة
للزمان ، غير فسيحة الفناء ولا رائقة البناء ،
أقطارها مضمومة ، وديارها مركزومة ، لا يهش
البصر اليها عند الاطلال عليها ، كأنها تكن
بهجتها وتخفيها ، فتجد حسننها كامنا فيها . حتى
إذا جست خلالها ، وتقرت^٧ ظلالتها ، أبصرت
بشرقيها نهرا كبيرا : تتسع في تدفقه أساليه ،
وتتناظر بشطيه دواليه ، قد انتظمت طرته

بساتين تهطل أغصانها عليه ، وتلوح خصرتها
عذارا بصفحتيه ، يسرب في ظلالها ، وينساب
على سمت اعتدالها .

وبأحد شطيه ، المتصل بربضها ، مطاهر
منتظمة يروتا عدة يخترق الماء من أحد دواليبه ١
جمع نوحيتها ، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها .
وعلى شطه الثاني ، المتصل بالمدينة السفلى ،
جامع صغير ، قد فتح جداره الشرقي عليه
طيقانا ، تجتلى منها منظرا ترتاح النفس اليه ،
وتتقيد الأبصار لديه . وبأزاء ممر النهر ،
بجوفى المدينة ، قلعة حلبيية ٢ الوضع ، وإن
كانت دونها فى الحصانة والمنع ، سرب لها من
هذا النهر ماء ينبع فيها ، فهم لا تخاف
الصدى ، ولا تنهيب مرام العدا .

وموضوع هذه المدينة فى وهدة من الأرض
عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق ، يرتفع لها
جانبان أحدهما كالجبل المطل . والمدينة العليا
متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلى ، والقلعة
فى الجانب الآخر فى ربوة منقطعة كبيرة
مستديرة ، قد تولى نحتها ٣ الزمان ، وحصل
لها بحصاتها من كل عدو الأمان . والمدينة
السفلى تحت القلعة ، متصلة بالجانب الذى
يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان ٤ .
وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها
العلى الجبلى ، ويطيف بها . وللمدينة السفلى
سور يحقق بها من ثلاثة ٥ جوانب ، لأن جانبها
المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور .

وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة ،
يتصل من المدينة السفلى الى ربضها ، وربضها

كبير فيه الخانات والديار ، وله حوائط
يستعجل فيها ٦ المسافر حاجته الى أن يفرغ
لدخول المدينة . وأسواق المدينة العليا أحفل
وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهى
الجامعة لجميع الصناعات والتجارات ،
وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب
والتقسيم ، ولها جامع أكبر من الجامع
الأسفل ، ولها ثلاث مدارس ومارستان على
شط النهر بازاء الجامع الصغير .

وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض ،
قد انتظم أكثره شجرات الأغصان ، وفيه ١
المزارع والمحارث ، وفى منظره انشراح للنفس
وانفساح ، والبساتين متصلة على شطى النهر ،
وهو يسمى العاصى ، لأن ظاهره انحداره من
سفل الى علو ، ومجره من الجنوب الى
الشمال ، وهو يجتاز على قبلى حمص وبمقربة
منها .

فكان مقامنا بحماة الى عشى يوم السبت
المذكور ، ثم رحلنا منها ، وأسرنا الليل كله ،
وأجزنا فى نصفه هذا النهر العاصى المذكور ،
على جسر كبير معقود من الحجارة ، وعليه
مدينة رستن ٢ التى خربها عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ، وآثارها عظيمة ، ويذكر الروم
القسطنطينيون ٣ أن بها أموالا ١ جمة مكنوزة ،
والله أعلم بذلك . فوصلنا الى مدينة حمص مع
شروق الشمس من يوم الأحد ، الموفى عشرين
لربيع (الأول) ، وهو أول يولييه ، فنزلنا
بظاهرها بخان السيل .

ذكر مدينة حمص عرسها الله تعالى

هي فسيحة الساحة مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسط من الأرض عريض * مداه ، لا يخرقها^١ النسيم عسراء ، يكاد البصر يقف دون منتهاه^٢ أفيح أغبر لا ماء ولا شجر ، ولا ظل ولا ثمر . فهي تشتكي ظمأها ، وتستقي على البعد * ماءها ، فيجلب لها من نهرها العاصي ، وهو منها بنحو مسافة الميل ، وعليه طرة بساكنين تجتلي العين خضرتها ، وتستغرب لضرتها ، ومنبعه في مغارة بصفح^١ جبل فوقها^٢ مرحلة ، بموضع يقابل بملك - أعادها الله - وهي عن يمين الطريق الى دمشق .

وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتئرس بالعدو لمجاورتهم إياه^٣ ، وبعدهم في ذلك أهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ، ونسيمها^٢ الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكان الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه . وبقبلى هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ، عاصية غير مطيعة ، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه ، هو سيف الله المسلول ، ومعه قبر ابنه عبد الرحمن ، وقبر عبيد الله بن عمر رضى الله عنهم .

وأسوار هذه المدينة في غاية * العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وأبوابها أبواب حديد سامية الإشراف هائلة المنظر ، رائعة الاطلال والانافة ،

تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة . وأما داخلها فما شئت من بادية شعناء ، خلقة الأرجاء ، ملفقة البناء ، لا اشتراق لآفاقها ، ولا روثق لأسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنفاقها .

وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال سيرة ، وهو مقفل العدو ، فهو منه تترأى ناره ، ويحرق اذا يطير شراره ، ويتمهد اذا شاء كل يوم مغاره . وسألنا أحد الأسياف بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات ؟ فقال - وقد أنكر ذلك - : حصص كلها مارستان ، وكفاك تبينا^١ شهادة أهلها فيها ، وبها مدرسة واحدة .

وتجد في هذه البلدة عند اطلالك^٢ عليها من بعد ، في بسطها ومنظرها وهيئة موضوعها^٣ ، بعض شبه بمدينة اشيلية من بلاد الأندلس ، يقع للحين في نفسك خياله^١ ، وبهذا الاسم سميت في القديم ، وهي العلة التي أوجبت نزول الأعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر . وهذا التشبيه^٢ وان لم يكن بذاته فله لمحة من إحدى جهاته .

فأقينا بها يوم الأحد المذكور ويوم الاثنين بعده ، وهو الثاني ليوليه^٢ ، الى أول الظهر . ورحلنا منها ، وتمادى سيرنا^٣ الى العشي ، ونزلنا بقرية خربة تعرف بالمشعر ، فعشبنا^١ بها الدواب . ثم رحلنا عند المغرب ، وأسرينا طول ليلتنا ، وتمادى سيرنا الى الضحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور ، ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف بالقارة ، ليس فيها من المسلمين

أحد ، وبها خان كبير كانه الحصن المشيد ،
فى وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرب ^٦ له
تحت الأرض من عين على البعد ، فهو لا ياله
ملآن .

فأرسلنا بالخان المذكور الى القاهر ، ثم رحلنا
منه الى قرية تعرف بالنبك ، بها ماء جار
ومحراث متسع ، فنزلنا بها للتعشية . ثم رحلنا
منها — بعد اختلاس تهوية خفيفة —
وأسرنا الليل كله ، فوصلنا الى خان السلطان
مع الصباح . وهو خان بناء صلاح الدين
صاحب الشام ، وهو فى نهاية الوثاقة
والحسن ، بباب حديد على سبيلهم فى بناء
خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم فى
تشيدها . وفى ^٧ هذا الخان ماء جار ، يتسرب
الى سقاية فى وسط الخان كانها صهريج ،
ولها منافس ينصب منها الماء فى سقاية صغيرة
مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص فى سرب
فى الأرض .

والطريق من حمص الى دمشق قليل
العمارة ، الا فى ثلاثة مواضع او اربعة ، منها
هذه الخانات المذكورة . فأقمنا ^٨ يوم الأربعاء ،
الثالث والعشرين لربيع المذكور ، بالخان
المذكور مريحين ومستديركين النوم الى أول
الظهر . ثم رحلنا وجزنا بثنية العقاب ، ومنها
يشرف على بسيط دمشق وغوملتها ، وعند
هذه الثنية مفرق طريقين : احدهما ^٩ التى جئنا
منها ، والثانية آخذة شرقا فى البرية على
السماوة الى العراق ، وهى ^{١٠} طريق قصد ،
لكنها لا تدخل الا فى الشتاء .

فانحدرنا منها بين جبال فى بطن واد الى
البسيط ، ونزلنا منه بموضع يعرف بالقصير ،
فيه خان كبير ، والنهر جار أمامه . ثم رحلنا
منه مع الصبح ، ومرنا فى بساتين متصلة
لا يوصف حسننا ، ووصلنا دمشق فى الضحى
الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين
لربيع الأول ، والخامس ليوليه ، والحمد لله
رب العالمين .

شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الأربعاء ، بمواقفة العادى
عشر ليوليه ، ونحن بدمشق ، لازلين فيها بدار
الحديث غربى جامعها المكرم .

ذكر مدينة دمشق ، حرسها الله تعالى

جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤلق المشرق ،
وهى خاتمة بلاد الاسلام التى استقرناها ،
وعروس المدن التى اجتليناها . قد تحلت ^{*}
بأزاهير الرياحين ، وتجلت فى حل سندسية
من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن
بالمكان المكين ^١ ، وتزينت فى منصتها أجمل
تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح
وأمه ، صلى الله عليهما ، منها الى ربوة ذات
قرار ومعين .

ظل ظليل ، وماء سلسيل تساب مذابه ^٢ .
انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض يحيى
النفوس لسيما ^٣ العليل ، تتبرج ^٤ لناظريها
بمجتلى صقيل ، وتناديهم هلموا ^٥ الى معرس
للحسن ومقبل ، قد سئمت أرضها كثرة الماء
حتى اشتاقت الى الظماء ، فتكاد تناديك بها

لصم الصلاب « أركض برجلك هذا مقتسل
بارد وشراب ^٤ » .

قد أهدت البساتين بها أحداق الهالة
بالقمر ، واكتفتها اكتناف الكمامة ^٥ للزهر ،
وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد
البصر ، فكل موضع لحظته ^٦ بجهاتها الأربع
نضرت الياقة قيد النظر . والله صدق القائلين ^٧
عنها : ان كانت الجنة فى الأرض فدمشق
لا شك فيها ، وان كانت فى السماء فهى بحيث
تسامتها ^٨ وتحاذيها .

ذكر جامعها المكرم ، عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الاسلام حسنا ،
واقفان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق
وتزيين ، وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن
استغراق ^٩ الوصف فيه . ومن عجيب شأنه أنه
لا تسج به العنكبوت ، ولا تدخله ولا
تلم به الطير المعروفة بالخطاف .

اتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه
الله ، ووجه الى ملك الروم بالقسطنطينية
يأمره بأشخاص اثني عشر ألفا من الصناع
من بلاده ، وتقدم اليه بالوعيد فى ذلك ان
توقف عنه . فامثل أمره مدعنا بعد مراسلة
جرت بينهما فى ذلك ، مما هو مذكور فى
كتب التواريخ .

فشرع فى بنائه ، وبلغت العناية ^{١٠} فى
التأنيق فيه ، وأنزلت جدره كلها بفصوص من
الذهب المعروف ^{١١} بالفسيساء ، وخلطت ^{١٢} بها

أنواع من الأصبغة الغربية ، قد مثلت أشجارا
وفرعت أغصانا ، منظومة بالفصوص يبدائع
من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف ،
فجاء يفتى العيون وميضاً وبهيمها .

وكان مبلغ النفقة فيه — حسبما ذكره ابن
المعلّى ^{١٣} الأسدي فى جزء وضعه فى ذكر
بنائه — مائة صندوق ، فى كل صندوق
ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ^{١٤} ألف
دينار ، فكان مبلغ الجميع احد عشر ألف
ألف دينار ومائتى ألف دينار ^{١٥} .

والوليد هذا (هو) الذى أخذ نصف
الكنيسة الباقية منه فى أيدي النصارى ،
وأدخلها فيه ، لأنه كان قسمين : قسما
للمسلمين وهو الشرقى ، وقسما للنصارى
وهو الغربى ، لأن أبا عبيدة بن الجراح رضى
الله عنه دخل البلد من الجهة الغربية ، فاتمى
الى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين
النصارى ^{١٦} ، ودخل خالد بن الوليد رضى الله
عنه عنوة من الجانب الشرقى ، واتمى الى
النصف الثانى وهو الشرقى ، فاحتازه
المسلمون ، وصيروه مسجدا .

وبقى النصف المصالح عليه — وهو
الغربى — كنيسة بأيدي النصارى ، الى أن
عوضهم منه ^{١٧} الوليد ، فأبوا ذلك ، فانتزعه
منهم قهرا ^{١٨} ، وطلع لهدمه بنفسه . وكانوا
يزعمون أن الذى يهدم كنيستهم يجن ، فبادر
الوليد وقال : أنا أول من يجن فى الله ، وبدأ
الهدم ييمده ، فبادر المسلمون ^{١٩} وأكملوا
هدمه .

واستمدوا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيام خلافته ، وأخرجوا العهد^١ الذى بأيديهم من الصحابة رضى الله عنهم فى إبقائه عليهم ، فهم^٢ بصرفه اليهم ، فأشفق المسلمون من ذلك ، ثم عوضهم منه بمال عظيم أرضاهم به ، فقبلوه . ويقال ان أول من وضع جداره القبلى ، هود النبی عليه السلام ، وكذلك ذكر ابن المعلى^٣ فى تاريخه ، والله أعلم بذلك لا اله سواه .

وقرأنا فى فضائل^٤ دمشق ، عن سفيان الثورى رضى الله عنه ، أنه قال : ان الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة . وفى الحديث ، عن النبی صلى الله عليه وسلم ، أنه يعبد الله عز وجل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

ذكر تفريعه ومساحته وعدد ابوابه وشمسياته

ذرحه فى الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة ، وهما ثلاثمائة ذراع . وذرحه فى السعة ، من القبلة الى الجوف ، مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مائتا ذراع . فيكون تكسيه من المراجع الغربية أربعة وعشرين^٥ مرجعا ، وهو تكسير مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أن الطول فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من القبلة الى الشمال

وبلطاته المتصلة بالقبلة^٦ ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب : سعة^٧ كل بلاط^٨ منها ثمان عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف . وقد قامت^٩ على ثمانية وستين عمودا ، منها أربع^{١٠} وخمسون سارية ، وثمانى^{١١} أرجل

جصية تتخللها^{١٢} ، واثنتان مرخمة ملصقة^{١٣} معها فى الجدار الذى يلى الصحن ، وأربع^{١٤} أرجل مرخمة أبدع ترخيم ، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، قد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب وأشكالا غريبة ، قائمة فى البلاط^{١٥} الأوسط تقل قبة^{١٦} الرصاص مع القبة التى تلى المحراب ، سعة كل رجل منها ستة عشر شبرا ، وطولها عشرون شبرا ، وبين كل رجل ورجل فى الطول سبع عشرة خطوة ، وفى العرض ثلاث عشرة^{١٧} خطوة ، فيكون كل دور رجل منها اثنين وسبعين شبرا .

ويستدير بالصحن بلاط^{١٨} من ثلاث جهاته ، الشرقية والغربية والشمالية ، سعته عشر خطا ، وعدد قوائمه سبع^{١٩} وأربعون : منها أربع عشرة رجلا^{٢٠} من الجص ، وسائرهما سوار ، فيكون سعة الصحن - حاشى المسقف القبلى والشمالى - مائة ذراع ، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص .

وأعظم ما فى هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه : سامية فى الهواء ، عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم ، هو غارب^{٢١} لها يتصل من المحراب الى الصحن ، وتحت ثلاث قباب : قبة تتصل بالجدار الذى الى الصحن ، وقبة تتصل بالمحراب ، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما .

والقبة الرصاصية قد أغصت الهول وسطه ، فاذا استقبلتها أبصرت منظرا رائعا

جدار الجامع القبلى ، ولا سماط أحسن منظرا منه ، ولا أكبر طولاً وعرضاً . وخلف هذا السماط ، على مقربة منه ، دار الخيل برسمه ، وهى اليوم مسكونة ، وفيها مواضع للكمادين . وطول المقصورة الصحائية المذكورة أربعة وأربعون شبرا ، وعرضها نصف الطول .

ويليها لجهة الغرب ، فى وسط الجامع ، المقصورة التى أحدثت عند اضافة النصف المتخذ كنيسة الى الجامع حسبما تقدم ذكره ، وفيها منبر الخطبة ، ومحراب الصلاة . وكانت مقصورة الصحابة أولا فى نصف الحظ الاسلامى من الكنيسة ، وكان الجدار حيث أعيد المحراب فى المقصورة المحدثه ، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجدا صارت مقصورة الصحابة طرفا فى الجانب الشرقى ، وأحدثت المقصورة الأخرى وسطا حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال ، وهذه المقصورة المحدثه أكبر من الصحائية .

وبالجانب الغربى بازاء الجدار مقصورة أخرى ، هى برسم الحنفية ^٢ يجتمعون فيها للتدريس ، وبها يصلون ، وبازائها زاوية محدقة بالأعواد المشرجة كأنها مقصورة صغيرة ، وبالجانب الشرقى زاوية أخرى على هذه الصفة هى كالمقصورة ، كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية ، وهى لاصقة بالجدار الشرقى .

وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب ، يتخذها الطلبة للنسخ والدرس

ومرأى هائلا ، يشبهه الناس بنسر طائر : كان القبة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمين ، ونصف الثانى عن شمال جناحه ، وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن أى جهة استقبلت البلد ترى القبة فى الهواء منيفة ^٢ على كل علو ، كأنها معلقة من الجو .

والجامع المكرم مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، وعدد شمسياته ^٨ الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون : منها فى القبة التى تحت قبة الرصاص عشر ، وفى القبة المتصلة بالمحراب مع ما يليها من الجدار أربع عشرة شمسية ، وفى طول ^٩ الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون ، وفى القبة ^٢ المتصلة بجدار الصحن ست ، وفى ظهر الجدار الى الصحن سبع وأربعون شمسية .

وفى الجامع المكرم ثلاث مقصورات : مقصورة الصحابة رضى الله عنهم ، وهى أول مقصورة وضعت فى الاسلام ، وضعها معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه ^١ . وبازاء محرابها - عن يمين - قبل القبلة - باب حديد كان يدخل سارية رضى الله عنه الى المقصورة منه الى المحراب ، وبازاء محرابها لجهة اليمين صلى أبى الدرداء رضى الله عنه .

وخلفها كانت دار معاوية رضى عنه ، وهى اليوم سماط عظيم للصغارين يتصل بطول

قلعة يحصب النسوبة لهم ، وهو قريب لبني سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها ، وثانية بالجانب الغربى على هذه الصفة ، وثالثة بالجانب الشمالى على الباب المعروف بباب الناطفين ^١ .

وفى الصحن ثلاث قباب : احداها فى الجانب الغربى منه وهى أكبرها ، وهى قائمة على ثمانية ^١ أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج ، مزخرفة بالقصوص والأصبغة الملونة كأنها الروضة حسنا ، وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة ، يقال انها كانت مخزنا لمال الجامع ، وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف — على ما ذكر لنا — على الثمانية آلاف دينار سورية فى السنة ، وهى خمسة عشر ألف ^٢ دينار مؤمنة أو نحوها .

وقبة أخرى صغيرة فى وسط الصحن ، مجوفة مئمة ، من رخام قد ألصق أبدع الصاق ، قائمة على أربعة أعمدة صفار من الرخام ، وتحتها شباك حديد مستدير ، وفى وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء الى علو ، فيرتفع وينثنى كأنه قضيب لجين ، يشربه الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافا له واستحسانا ، ويسمونه ققص الماء . والقبة الثالثة فى الجانب الشرقى ، قائمة على ثمانية أعمدة ، على هيئة القبة الكبيرة لكن أصغر منها .

وفى الجانب الشمالى من الصحن باب كبير يفضى الى مسجد كبير ، فى وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير ، يجرى

والانفراد عن ازدحام الناس ، وهى من جملة مرافق الطلبة . (وفى) الجدار المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات القبلية ، عشرون بابا متصلة بطول الجدار ، قد علتها قصى جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات ، فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه .

والبلاط المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات ، على أعمدة ، وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوسة ، تحملها أعمدة صفار تطيف بالصحن كله . ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ، وهو متفرجهم ومنتزههم ، كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق الى غرب من باب جيرون الى باب البريد .

فمنهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ ، لا يزالون على هذه الحال ، من ذهاب ورجوع ، الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ، ثم ينصرفون ، ولبعضهم بالغداة مثل ذلك . وأكثر الاحتفال انما هو بالعشى ، فيخيل لمبصر ذلك انها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم ، لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم ، وأهل البطالة من الناس يسمونهم الحرائين .

وللجامع ثلاث صوامع : واحدة فى الجانب الغربى ، وهى كالبرج المشيد ، تعتوى على مساكن متسعة وزوايا فسيحة ، راجعة كلها الى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير ، والبيت الأعلى منها كان معتكف أبى حامد الغزالى رحمه الله ، ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن سعيد ، من أهل

الماء فيه دائما من صفحة ^٢ رخام أبيض مشتمة ،
قد قامت وسط الصهرج ، على رأس عمود
مقنوب يصعد الماء منه إليها ، ويعرف هذا
الموضع بالكلاسة ، ويصلى فيه اليوم صاحبنا
الفقيه الزاهد المحدث أبو جعفر الفسكى
القرطبي ، ويتزاحم الناس على الصلاة فيه
خلفه التماسا لبركته ، واستماعا لحسن
صوته .

وفي الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى
الى مسجد ، من أحسن المساجد وأبدعها .
وضعا وأجملها بناء ، يذكر الشيعة أنه مشهد
لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهذا من
أغرب مختلفاتهم ^٤ . ومن العجيب أنه يقابله
فى الجهة الغربية ، فى زاوية البلاط الشمالى
من الصحن ، موضع ، هو ملتقى آخر البلاط
الشمالى مع أول البلاط الغربى مجلل بستر
فى أعلاه ، وأمامه ستر أيضا منسدل ، يزعم
أكثر الناس أنه موضع لعائشة رضى الله عنها ،
وانها كانت تسمع الحديث فيه .

وعائشة رضى الله عنها فى دخول دمشق
كعلى رضى الله عنه ، لكن لهم فى على رضى
الله عنه مندوحة من القول ، وذلك أنه
يزعمون أنه رأى فى المنام مصليا فى ذاك
الموضع ، فبنت التبة فيه مسجدا . وأما
الموضع المنسوب لعائشة رضى الله عنها ، فلا
مندوحة فيه ، وإنما ذكرناه لشهرته فى
الجامع .

وكان هذا الجامع المبارك - ظاهرا
وباطنا - منزلا كله بالفصوص المذهبة ،

مزخرفا بأبدع زخارف البناء المعجز الصنعة ،
فأدركه الحريق مرتين ، فتهدم وجدد ،
وذهب أكثر رخامه فاستحال روقه ، فأسلم
ما فيه اليرم قبلته مع ^١ الثلاث قباب المتصلة
بها ، ومحرابه من أعجب المحارِب الإسلامية
حسنا وغرابة صنعة ، يتقد ذهابا كله ، وقد
قامت فى وسطه محارِب صغار متصلة
بجداره ، تحفها سويريات مفتولات قتل
الأسورة كأنها مخروطة ، لم ير شئ أجمل
منها ، وبعضها حمر كأنها مرجان .

فشان قبله هذا الجامع المبارك ، مع
ما يتصل بها من قبابه الثلاث ، واشراق
شمسياته المذهبة الملونة عليه ، واتصال شعاع
الشمس بها ، وانعكاسه الى كل لون منها ،
حتى ترتدى الأبصار منه أشعة ^٢ ملونة ،
يتصل ذلك بجداره القبلى كله ، عظيم لا يلحق
وصفه ، ولا ^٣ تبلغ العبارة بعض ما يتصوره
الخطر منه ، والله يعمره بشهادة الاسلام
وكلمته بمنه .

وفى الركن الشرقى من المقصورة الحديثة
فى المحراب خزانة كبيرة ، فيها مصحف من
صاحف عثمان رضى الله عنه ، وهو المصحف
الذى وجه به الى الشام ، وتفتح الخزانة كل
يوم أثر الصلاة ، فيتبرك الناس بلمسه
وتقبيله ، ويكثر الازدحام عليه . وله أربعة
أبواب :

باب قبلى : ويعرف بباب الزيادة . وله
دهليز كبير متسع له أعمدة عظام ، وفيه
خوانيت للخرزين ^١ وسواهم ، وله مرأى

للكرام مشرفة على الدهليز ، وفوقها ٤ سطح
بيت به سكان الحجر والبيوت .

وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير
من الرخام ، عليه قبة تعلها أعمدة من الرخام ،
ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص ، واسعة
مكشوفة للهواء ، لم ينعطف عليها تعيب * .
وفي وسط الحوض الرخامي أبواب صفر
يزعج الماء بقوة ، فيرتفع الى الهواء أزيد
من القامة لم ١ ، وحوله أنابيب صغار
ترمي الماء الى علو ، فيخرج عنها كفضبان
للحين ، فكانها أغصان تلك الدوحة المائية ،
ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه
الوصف .

وعن سين الخارج ٢ من باب جيرون
— في جدار البلاط الذي أمامه — غرفة ٣ ،
وأما هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقتان
صفر ، قد فتحت أبوابا صغارا على عدد
ساعات النهار ، ودبرت ٤ تدييرا هندسيا .
فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان
من صفر ، من قمى ٥ بازيين مصورين من صفر
قائمين على طاستين من صفر ٦ ، تحت كل
واحد منهما : أحدهما تحت أول باب من تلك
الأبواب ، والثاني تحت آخرها .

والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع
البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى
الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما
بالبندقتين ٧ الى الطاستين ، ويقذفانها
بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا .
وعند وقوع البندقتين في الطاستين ، يسمع

رائع ، ومنه يفضى الى دار الخيل ، وعن يسار
الخارج منه سماء النارين ، وهي كانت دار
معاوية رضى الله عنه ، وتعرف بالخضراء .

وباب شرقي ، وهو أعظم الأبواب ، ويعرف
بباب جيرون .

وباب غربي ، ويعرف بباب البريد .

وباب شمالي ، ويعرف بباب الناطقين .
وللشرقي والغربي والشمالي أيضا من هذه
الأبواب دهاليز متسعة ، يفضى كل دهليز
منها الى باب عظيم ، كانت كلها مداخل
للكنيسة ٢ فبقيت على حالها .

وأعظمها منظرا الدهليز المتصل بباب
جيرون ، يخرج من هذا الباب الى بلاط
طويل عريض ، قد قامت أمامه خمسة أبواب
مقوسة ، لها ستة أعمدة طوال . وفي رجه
اليسار منه مشهد كبير حفيظ ، كان فيه رأس
الحسين بن علي رضى الله عنه ، ثم نقل الى
القاهرة ، وبازائه مسجد صغير بنسب لعمر بن
عبد العزيز رضى الله عنه ، وبذلك المشهد ماء
جار .

وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر
عليها الى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم ،
يتصل الى باب عظيم الارتفاع ينحصر الطرف
دونه ٢ سموا ، قد حفته أعمدة كالجزوع طولا
وكالاطواد ضخامة . وبجانب هذا الدهليز
أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة ، فيها
الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم ، وعليها
شوارع أخر مستطيلة ، فيها الحجر والبيوت

لها ^٨ دوى ، وينفلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لا ^٩ يزال كذلك عند كل انقضاء ^{١٠} ساعة من النهار ، حتى تنفلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ، ثم تعود الى حالها الأول .

ولها بالليل تدوير آخر . وذلك أن فى القوس ، المنعطف على تلك الطيقان المذكورة ، اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتمترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، مدبر ^{١١} ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة محسرة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل ، وتحمر الدوائر كلها . وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها ، درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف ^١ الصنج الى موضعها ، وهى التى يسميها الناس المنجاة ^٢ .

ودهلز الباب الغربى فيه حوائت البقالين والعطارين ، وفيه سباط لبيع الفواكه ، وفى أعلاه باب عظيم يصعد اليه على أدراج ، وله أعمدة سامية فى الهواء ، وتحت الأدراج سقايتان مستديرتان : سقاية يمينا ، وسقاية يسارا ، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمى الماء فى حوض رخام مستطيل . ودهلز الباب الشمالى فيه زوايا على مصاطب ، محدقة

بالأعواد المشرجة ، هى محاضر لمعلمى الصبيان .

وعن يمين الخارج فى الدهليز خاتمة مبنية للصوفية ، فى وسطها صهريج ، ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، ولها خبر سيأتى ذكره بعد هذا ، والصهريج الذى فى وسطها يجرى الماء فيه ، ولها مظاهر يجرى الماء فى بيوتها . وعن يمين الخارج أيضا من باب البريد مدرسة للشافعية ، فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه ، ولها مظاهر على الصفة المذكورة .

وفى الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيرا ، لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجبان ، قد خرما أحسن تخريم ، يصرجان ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتغلتان . واحتفال أهل هذه البلدة ^٣ لهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم .

وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، لقراءه سبع من القرآن دائما ، ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر ^١ الى الخاتمة . ويحضر فى هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن ، وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش ^٢ منه أزيد من خمسمائة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم ، فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء .

بغيره ، فهو يستفرغ جهده في التعليم ^١ ،
والصبي في التعلم ^٢ كذلك ، ويسهل عليه
لأنه بتصوير يحذو حذوه .

ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع
سقايات ، في كل جانب سقاية ، كل واحدة
منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية ،
والماء يجري في كل بيت منها ، وبطول صحنها
حوض من الحجر مستطيل ، تصب فيه عدة
أنابيب منتظمة بطوله .

واحدى هذه السقايات في دهليز باب
جيرون ، وهي أكبرها ، وفيها من البيوت ثيف
على الثلاثين ، وفيها زائدا ^٢ على السقاية
المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران
مستديران ، يكادان يسكان لسقائهما ^٣ عرض
الدار المحتوية على هذه السقاية ^٤ ، والواحد
يميد من الآخر ، ودور كل واحد منهما نحو
الأربعين شبرا ، والماء نابع فيهما . والثانية
في دهليز باب الناطقين بازاء المعلمين .
والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد .
والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة .

وهذه أيضا من المرافق العظيمة للغيرباء
وسواهم . والبلد كله سقايات ، قل ما تخلو
سكة من سككه ، أو سوق من أسواقه ، من
سقاية . والمرافق به أكثر من أن توصف ، والله
يقيه دار اسلام ، بقدرته .

ذكر مشاهده المكرمة وآثاره العظيمة

فأولها مشهد رأس يحيى بن زكرياء عليهما
(السلام) . وهو مدفون بالجامع المكرم ، في
البلاط القبلى ، قبالة الركن الأيمن من

وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، والمدرسين
فيها اجراء واسع . المالكية زاوية للتدريس
في الجانب الغربى ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ،
ولهم اجراء معلوم . ومرافق هذا الجامع
المكرم للغيرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة .
وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه ،
هى بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها
وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة
والتدريس ، أبصرنا بها فمينا من أهل اشبيلية
يعرف بالمرادى .

وعند فراغ المجتمع السبى من القراءة
ضابحا ، يستند كل انسان منهم الى سارية ،
ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن ، واللصبيان
أيضا على قراءتهم جراية معلومة ، فأهل الجدة
من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها وسائرهم
يأخذونها ^٣ . وهذا من المفاخر الاسلامية .
وللايتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها
وقف كبير ، يأخذ منه ^٤ المعلم لهم ما يقوم
به ، وينفق منه على صبيان ما يقوم بهم
وبكسوتهم . وهذا أيضا من أغرب ما يحدث
به من مفاخر هذه البلاد .

وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية
كلها انما هو تلقين ، ويعلمون الخط فى
الأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجل
عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد
يكون فى أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب
على حدة ، فينفصل من التلقين الى التكتيب ،
لهم فى ذلك سيرة حسنة ، وكذلك ما يتأتى
لهم حسن الخط لأن المعلم له لا يشتغل

المقصورة الصحابة رضى الله عنهم ، وعليه
تابوت خشب معترض من الأسطوانة * ،
وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف كأنه
القدح الكبير ، لا يدرى أمن زجاج ^٦
عراقى ، أم صورى ^٧ هو ، أم من غير ذلك .

ومولد ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى
نبينا الكريم ، وهو بصفح جبل قاسيون عند
قرية تعرف ببرزة ، وهى من أجمل القرى .
وهذا الجبل مشهور بالبركة فى القديم ، لأنه
مصعد الأنبياء صلوات الله عليهم ومطلعهم ^١ ،
وهو فى الجهة الشمالية من البلد ، وعلى مقدار
فرسخ .

وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق ^٢ ،
وقد بنى عليه مسجد كبير مرتفع ، مقسم على
مساجد كثيرة كالغرف المظلة ، وعليه صومعة
عالية . ومن ذلك الغار رأى صلى الله عليه
وسلم الكوكب ثم القمر ، ثم الشمس ، حسبما
ذكره الله تعالى فى كتابه عز وجل ^٣ ، وفى ظهر
الغار مقامه الذى كان يخرج اليه .

وهذا كله ذكره الحافظ محدث الشام ،
أبو القاسم بن هبة الله بن عساكر الدمشقى ،
فى تاريخه فى أخبار دمشق ، وهو ينف على
مائة مجلد . وذكر أيضا أن بين باب الفراديس
— وهو أحد أبواب البلد — وفى الجهة
الشمالية من الجامع المبارك ، على مقربة منه
الى جبل قاسيون ، مدفن سبعين ألف نبى ،
وقيل سبعون ألف شهيد ، وأن الأنبياء
المدفونين به سبعمائة نبى ، والله أعلم .

وتخرج هذا البلد ^٤ الجبابة العتيقة ، وهى
مدفن الأنبياء والصالحين ، ويركتها شهيرة ،
وفى طرفها مما يلى البساتين وهدة من الأرض
متصلة بالجبابة ، ذكر أنها مدفن سبعين نبيا ،
وعصمها الله ونزهها من أن يدفن فيها أحد ،
والقبور محيطة بها ، وهى لا تظلو من الماء
حتى عادت قرارة له ، كل ذلك تنزيه من الله
تعالى لها .

وبجبل قاسيون أيضا — لجهة الغرب على
مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك —
مغارة تعرف بمغارة الدم ، لأن فوقها فى
الجبل دم هايل ، قتيل أخيه قاييل ، ابنى
آدم صلى الله عليه وسلم ، يتصل من نحو
تصف الجبل الى المغارة . وقد أبقي الله منه
فى الجبل آثارا حمرا فى الحجارة تحك
فتستحيل ، وهى كالطريق فى الجبل ، وتقطع
عند المغارة ، وليس يوجد فى النصف
الأعلى من المغارة آثار تشبهها ، فكان يقال
انها لون حجارة الجبل ، وانما هى من الموضع
الذى جر منه ^١ القاتل لأخيه حيث قتله حتى
اتتهى الى المغارة . وهى من آيات الله تعالى ،
وآياته لا تحصى .

وقرأنا فى تاريخ ابن الملقى ^٢ الأسدى أن
تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى
ولوط وإيوب ، عليهم وعلى نبينا الكريم
أفضل الصلاة والسلام ، وعليها مسجد قد
أُتقن بناؤه ، ويصعد اليه على أدراج ، وهو
كالغرفة المستديرة ، وحولها أعواد مشرجة
مطيقة بها ، وبه بيوت ومرافق للسكنى ، وهو

يفتح كل يوم خميس ، والمرج من الشمع والفتائل تقد فى المغارة ، وهى متسعة .

وفى أعلى الجبل كهف منسوب لآدم صلى الله عليه وسلم ، وعليه بناء ، وهو موضع سبارك ، وتحتة فى حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع ، ذكر أن سبعين نبيا ماتوا^٢ فيها جوعا ، وكان عندهم رغيغ ، فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ، ويدور عليهم من يد الى يد ، حتى لحقتهم المنيّة صلوات الله عليهم . وعلى هذه المغارة أيضا مسجد مبنى ، وأبصرنا فيه سرجا تقد نهارا .

ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة ، من بساتين وأرض بيضاء ورباع ، حتى ان البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها . وكل مسجد يستحدث بناؤه ، أو مدرسة أو خانقة ، يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها ويساكنتها والملتزمين لها ، وهذه أيضا من المفاخر المخلدة . ومن النساء الخواتين ذوات الاقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة ، وتنفق فيها الأموال الواسعة ، وتعين لها من مالها الأوقاف . ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك ، لهم فى هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل .

وبآخر هذا الجبل المذكور ، وفى رأس البسيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله

تعالى^١ ، مأوى المسيح وآمه صلوات الله عليهما ، وهى من أبدع مناظر الدنيا حسنا وجمالا واشراقا ، واتقان بناء واحتفال تشيد ، وشرف وضع : هى كالقصر المشيد ، ويصعد اليها على أدراج ، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة فى وسطها ، وهى كالبيت الصغير ، وبازائها بيت يقال انه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم . فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ، ولا سيما المأوى المبارك ، وله باب حديد صغير ينفتح دوله .

والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم ير أحسن منها ، قد سيق اليها الماء من علو ، ومأوها ينصب على شاذروان فى الجدار ، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم ير أحسن من منظره ، وخلف ذلك مطاهر يجرى الماء فى كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان .

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار : يأخذ كل نهر طريقه . وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بشورا^٢ ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد تقرر له فى الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار ، وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة فى النهر ، واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ويخرج أسفلها ، وهى مخاطرة كبيرة .

ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغريبة من البلد ، ولا اشراف كاشرافها حسنا وجمالا واتساع مراح

للأبصار ، وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرب
وتسيح فى طرق شتى ، فتعار الأبصار فى
حسن اجتماعها وافتراقها والندفاع الصابها .
وشرف موضوع هذه الربوة ، ومجموع
حسنها ، أعظم من أن يحيط به وصف واصف
فى غلو مدحه ، وشأنها فى موضوعات الدنيا
الشريفة خطير كبير .

ويتصل بها — أسفل منها بمقربة من
المسافة — قرية كبيرة تعرف بالنيرب ، قد
غطتها البساتين ، فلا يظهر منها الا ما سما
بناؤه ، وبها جامع لم ير أحسن منه ، مفروش
سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، فيخيل
لناظره أنه دياج مبسوط ، وفيه سقاية ماء
رائقة الحسن ، ومطهرة لها عشرة أبواب يجرى
الماء فيها ويظيف بها . وفوقها لجهة القبلة
قرية كبيرة ، هى من أحسن القرى ، تعرف
بالمزة ، وبها جامع كبير ، وسقاية معينة ،
وبقرية النيرب حمام ، وأكثر قرى هذه البلدة
فيها الحمامات .

وفى الجهة الشرقية من البلد ، عن يمين
الطريق الى مولد ابراهيم عليه السلام ، قرية
تعرف ببيت لاهية^١ — يريدون الآلهة —
وكانت فيها^٢ كنيسة ، هى الآن مسجد
مبارك . وكان آزر أبو ابراهيم ينحت فيها
الآلهة ويصورها ، فيجىء الخليل ابراهيم ،
صلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم ،
فيكسرها . وهى اليوم مسجد يجتمع فيه أهل
القرية ، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام
الملونة ، منتظم كله خواتيم وأشكالا بديعة ،

يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة^٣ مزخرفة ،
وهو من المشاهد الكريمة .

وللربوة المباركة أوقاف كثيرة من بساتين
وأرض بيضاء ورباع^٤ ، وهى معينة التقسيم
لوظائفها : فمنها ما هو معين باسم النفقة فى
الأدم للبائتين فيها من الزوار ، ومنها ما هو
معين للأكسية برسم التغطية بالليل ، ومنها
ما هو معين للطعام ، الى تقاسيم تستوفى
جميع مؤنها ومؤن الأمين الراتب فيها برسم
الامامة ، والمؤذن الملتزم خدمتها ، ولهم على
ذلك كله مرتب معلوم فى كل شهر ، وهى
خطة من أعظم الخطط .

والأمين فيها الآن من بقية المرابطين
المشوفيين^٥ ومن أعيانهم ، يعرف بأبى الربيع
سليمان بن ابراهيم ابن مالك ، وله مكانة
من السلطان ووجوه الدولة ، وله فى الشهر
خمس دنانير — حاشى فائدة الربوة — وهو
متسم بالخير ومرسم به ، وهو متعلق بسبب
من أسباب البر فى ابواء أهل الغرب^٦ من
الغرباء ، المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم
وجوه المعاش : من امامة فى مسجد ، أو
سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة ، أو
التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى
اليه فيها رزقه ، أو حضور فى قراءة متبع ،
أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون
فيه ، ويجرى عليه ما يقوم به من أوقافه ،
الى غير ذلك من الوجوه المعاشية ، على
هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه .

فالغريب المحتاج هنا ، اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه . وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ، ممن عهد الخدمة والمهنة ، بسبب^٢ له أيضا أسباب غريبة من الخدمة : أما بستان يكون فاطورا شيه ، أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظا لاثواب داخلية ، أو طاحونة يكون آمينا عليها ، أو كفاالة صبيان يؤديهم الى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة .

وليس يؤتمن فيها كلما سوى المغاربة الغرباء ، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت فى الأمانة ، وطار لهم فيها ذكر ، وأهلها لا يأتنونون البلديين ، وهذا من أطفاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشكر على ما يولى عباده . وإن شاء أحد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان^٣ ، يقبله ويكرمه ويرتبه ، ويجرى عليه بحسب قدره ومنصبه ، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه القضايل قديما وحديثا . وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذى نحن فيه ، والحديث ذو شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا رب سواه .

وبغربى البلد جبانة كبيرة ، تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من الصحابة والتابعين ، الأئمة الصالحين رضى الله عنهم . فالمشهور بها من قبور الصحابة ، رضى الله عنهم ، قبر أبى الدرداء ، وقبر زوجته أم الدرداء رضى الله عنهما . وموضع مبارك ، فيه تاريخ قديم

مكتوب عليه « فى هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة رضى الله عنهم : منهم فضالة بن عبيد ، وسهل بن الحنظلية من الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، وخال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه » ، وقبره مسنم فى الموضع المذكور . وقرأت فى فضائل دمشق أن أم المؤمنين أم حبيبة^١ ، أخت معاوية رضى الله عنهما مدفونة بدمشق ، وقبر وائلة بن الأسقع من أهل الصفة .

وفى الجهة التى (تلى) هذا الموضع المبارك تاريخ فيه مكتوب « هذا قبر أوس بن أوس الثقفى » . وحول هذا الموضع المذكور ، على مقربة منه ، قبر بلال بن حماسة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضى الله عنه . والدعاء فى هذا الموضع المبارك مستجاب ، قد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم^٢ ، الى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ، ممن قد ذهب اسمه وغبر ذكره ، ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضى الله عنهم رجالا ونساء ، وقد احتفل الشيعة فى البناء عليهم ، ولها الأوقاف الواسعة .

ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، قد بنى عليه مسجد حفىل رائق البناء ، وبازائه بستان كله نارنج ، والماء يطرد فيه من سقاية معينة ، والمسجد^٣ كله ستور معلقة فى جوانبه صفار وكبار ، وفى المحراب حجر

عظيم قد شق بنصقين ، والتحم^٤ بينهما ، ولم بين النصف عن^٥ النصف بالكلية . يزعم الشيعة أنه انشق لعلى رضى الله عنه ، أما بضربة سيفه أو بأمر من الأمور الالهية على يديه . ولم يذكر عن على رضى الله عنه أنه دخل قط هذا البلد ، اللهم الا ان زعموا أنه كان في النوم ، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم اذ لا تصح لهم جهة اليقظة . وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد .

وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم أكثر من السنين بها ، وقد عموا^١ البلاد بمذاهبهم . وهم فرق شتى : منهم الرافضة وهم السبابون ، ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ، ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة ، فانهم يزعمون الالهية لعلى رضى الله عنه — تعالى الله عن قولهم — ومنهم الفراية وهم يقولون ان عليا رضى الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب ، ويسبون الى الروح الأمين عليه السلام قولاً ، تعالى الله عنه علوا كبيرا ، الى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء : قد أضلهم الله ، وأضل بهم كثيرا من خلقه فسأل الله العصمة في الدين ، ولعمود به من ريغ الملحدين .

وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية^٢ ، سنيون يدينون بالفنوة وبأمور الرجولة^٣ كلها ، وكل من الحقوه بهم — لخصلة يرونها فيه منها — يحرّمونه^٤ السراويل فيلحقونه بهم ، ولا يرون أن يستعدي

أحد منهم في نازلة تنزل به ؛ لهم في ذلك مذاهب عجيبة ، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أين ما وجدوهم ، وشأنهم عجيب في الأنفة والاتلاف .

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بقرية تعرف بالنيحة شرقي البلد ، وعلى مقدار أربعة أميال منه ، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء ، والقبر في وسطه ، وعند رأسه مكتوب « هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ومن مشاهد أهل البيت : رضى الله عنهم ، مشهد أم كلثوم ابنة على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، ويقال لها زينب الصغرى ، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم ، لشبهها بابنته أم كلثوم رضى الله عنها ، والله أعلم بذلك ومشهد الكرم بقرية قبلى البلد تعرف براوية^١ ، على مقدار فرسخ ، وعليه مسجد كبير ، وخارجه مساكن ، وله أوقاف ، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم . مشينا اليه ، وبتنا به ، وتبركنا برؤيته ، نعمنا الله بذلك .

وبالجبانة التى بغربى البلد ، من قبور أهل البيت ، كثير رضى الله عنهم : منها قبران عليهما مسجد ، يقال انهما من ولد الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ومسجد آخر فيه

قبر يقال انه لسكينة بنت الحسين رضى الله
عنهما ، أو لعائسا سكينة أخرى من أهله
البيت .

ومن المشاهد أيضا قبر بجامع التيرب ، في
بنت بالجهة الشرقية منه ، يقال انه لأم مريم
رضى الله عنها . وبقرية دارية ^٢ قبر أبى مسلم
الخلوانى رضى الله عنه ، وعليه قبة هي علامة
القبر ، وبها أيضا قبر أبى سليمان الداراني
رضى الله عنه . وبين هذه القرية وبين البلد
مقدار أربعة أميال ، وهي لجهة الغرب منه .

ومن المشاهد الكريمة التي لم نعاينها ،
ووصفت ^٢ لنا ، قبرا ^٤ شيث ونوح عليهما
السلام ، وهما بالبقاع ، وهي على يومين من
البلد . وحدثنا من ذرع قبر شيث ، فالتقى فيه
أربعين باعا ، وفي قبر نوح ثلاثين ، وبازاء
قبر نوح قبر ابنة له ، وعلى هذه القبور بناء ،
ولها أوقاف كثيرة ، ولها قيم يلتزمها .

ومن المشاهد المباركة أيضا بالجباة
الغربية ، وبمقربة من باب الجابية ، قبر أويس
القرنى رضى الله عنه ، وقبور خلفاء بنى أمية
رحمهم الله ، يقال انها بازاء باب الصغير بمقربة
من الجباة المذكورة ، وعليها اليوم بناء
يسكن فيه . والمشاهد المباركة بهذه البلدة
أكثر من أن تنضب بالتقيد ، وانما رسم من
ذلك ما هو مشهور ومعلوم .

ومن المشاهد الشهيرة أيضا مسجد
الأقدام ، وهو على مقدار ميلين من البلد
مما يلي القبة ، على قارعة الطريق الأعظم
الآخذ الى بلاد الحجاز والساحل ، وديار

مصر ، وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر
مكتوب عليه « كان بعض الصالحين يرى النبي
صلى الله عليه وسلم في النوم فيقول له : ههنا
قبر أخى موسى صلى الله عليه وسلم » .
والكثيب ^١ الأحمر على الطريق بمقربة من
هذا الموضع ، وهو بين غالية وغويطية كما
ورد في الأثر ، وهما موضعان .

وشأن هذا المسجد في البركة عظيم ،
ويقال ان النور ما خلا قط من هذا الموضع
الذى يذكر أن القبر فيه حيث الحجى
المكتوب ، وله أوقاف كثيرة . فأما الأقدام ففي
حجارة في الطريق اليه معلم عليها ، تجد أثر
القدم في كل حجر ، وعسد الأقدام تسع ،
ويقال انها أثر قدم موسى عليه السلام . والله
أعلم بحقيقة ذلك لا اله سواه .

شهر جهادى الاولى ، عرفنا الله بركته
استهل هلاله ليلة الجمعة بموافقة العاشر
لشهر أغوشت المعجى .

ذكر جمل من احوال البلد
عمره الله بالاسلام

لهذه البلدة ثمانية أبواب : باب شرقى ^٣ ،
وهو شرقى ، وفيه منارة بيضاء يقال ان عيسى
عليه السلام ينزل فيها ، كما ^٢ جاء في الأثر انه
ينزل بالمنارة البيضاء شرقى دمشق . ويلى هذا
الباب باب توما ، وهو أيضا في حيز الشرق .
ثم باب السلامة . ثم باب الفراديس ، وهو
شمالى . ثم باب الفرج . ثم باب النصر ، وهو
غربى . ثم باب الجابية كذلك . ثم باب
الصغير ، وهو بين الغرب والقبلة .

لكن الاحتفال فى الجديد أكثر ، وهذا القديم هو غربى الجامع المكرم .

وللمجانين المعتقلين^٤ أيضا ضرب من العلاج ، وهم فى سلاسل موثقون * - نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر - وتندر من بعضهم النوادر^٦ الظريفة حسب ما كنا نسمع به .

ومن أعجب ما حدثت به من ذلك أن رجلا كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أوتى مسحة جمال ، واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به ، فزاد كلفه حتى اختبل ، وأدى الى المارستان ، واشتهرت علته وفضيحتة بالصبي . وربما كان يدخله أبوه اليه فليل له : اخرج ، وعد لما كنت عليه من القرآن ، فقال متماجنا تماجن المجانين : وأى قراءة بقيت ؟ لى ؟ ما بقى فى حفظى من القرآن شئ سوى اذا جاء نصر الله^١ ، فضحك منه ومن قوله ، ونسأل^٢ الله العافية له ولكل مسلم ، فلم يزل كذلك حتى توفى ، سمح الله له .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام ، والمدارس كذلك . ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره ونوره الله . وهى قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيها الماء فى شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء فى ساقية مستطيلة الى أن يقع فى صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الأبصار فى حسن ذلك المنظر ،

والمسجد الجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، والأرباض به مطيقة^٥ الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبله يسيرا ، والأرباض * كبار^٧ .

والبلد ليس بمنفرد الكبير ، وهو^١ مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبناءه طين وقصب طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقات ، فيحتوى من الخلق على ما تحتوى ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقا ، وحسنه كله خارج لا داخل .

وفى داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ، وهى حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبته الأفكار وتستوقف الأبصار ، ومرآها عجيب ، وهى بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان^٢ : قديم وحديث ، والحديث أحفظهما وأكبرهما^٣ ، وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية أسماء المرضى ، وعلى النفقات التى يحتاجون اليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يكررون اليه فى كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم . والمارستان الآخر على هذا الرسم ،

فكل من يصره يجدد الدعاء لنور الدين
رحمه الله .

وأما الرباطات ^٣ - التي يسمونها الخواثق -
فكثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصور
مزخرفة ، يطرد في جميعها الماء على أحسن
منظر يصير .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه
البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا
وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة
في أسباب المعاش ، وأسكنهم في قصور
تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون
منهم قد حصل لهم - بفضل الله تعالى -
نعيم الدنيا والآخرة .

وهم على طريقة شريفة ، وسنة في المعاشرة
عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة
غريبة ، وعوائدهم ^٤ من الاجتماع للسمع
المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في
تلك الحالات ، المنفعل المثار ، رقة وتشوقا .
وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة ، وهم يرجون
عيشا طيبا هنيئا .

ومن أعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف
بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ،
في أعلاه مساكن لم ير أجمل اثرا منها ،
وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم
يتصل به ، وكان منتزعا لأحد ملوك الأتراك .
فيقال انه كان فيه إحدى الليالي على راحة ،
فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم
من النيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك
القصر ، فرفعوا الأمر لنور الدين ، فلم يزل

حتى استوبه من صاحبه ، ووقفه برسم
الصوفية مؤبدا لهم . فطال العجب من السماح
بمثله ، وبقي أثر الفضل فيه مخلدا لنور
الدين رحمه الله .

ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة ،
وكان من الملوك الزهاد ، وتوفي في
شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ،
واستولى بعده على الأمر صلاح الدين ، وهو
على طريقة من الفضل شهيرة ، وشأنه في
الملوك كبير ، وله الأثر الباقي شرفه من إزالة
المكوس بطريق الحجاز ، ودفعه عوضا عنها
لصاحب الحجاز . وكانت الأيام قد استمرت
قديما بهذه الضريبة اللعينة ، الى أن محا الله
رسمها على يدي هذا الملك العادل ، أصلحه
الله .

ومن مناقب نور الدين ، رحمه الله تعالى ،
أنه كان عين للمغاربة الغرباء ، الملتزمين زاوية
المالكية بالمسجد الجامع المبارك ، أوقافا
كثيرة : منها طاحوتان ، وسبعة ^١ بساتين ،
وأرض بيضاء ، وحمام ، ودكانان بالعطارين .
وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون
فيه - وهو أبو الحسن علي بن سردال
الجياني ، المعروف بالأسود - أن هذا الوقف
المغربي يغل ، اذا كان النظر فيه جيدا ،
خمسمائة دينار في العام . وكان له ، رحمه
الله ، بجانب فضل ^٢ كبير - نفعه الله بما
أسلف من الخير - وهيا ديارا موقوفة لقراء
كتاب الله عز وجل يسكنونها .

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن
يأخذها الإحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله

هو وجل والمنتمين^٢ للطلب ، قالشان بهذه
البلدة لهم عجب جدا . وهذه البلاد المشرقية
كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه
البلدة أكثر ، والاتساع أجود .

فمن شاء الفلاح من نشأة^١ مغربنا ،
فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب
العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة : فأولها
فراغ البسال من أمر المعيشة — وهو أكبر
الأعوان وأهمها — فإذا كانت الهمة ، فقد
وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر .
الا من يدين بالمعجز والتسوف ، فذلك من
لا يتوجه هذا الخطاب عليه ، وانما المخاطب
كل ذى همة يحول طلب المعيشة بينه وبين
مقصده في وطنه من الطلب العلمى .

فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها
المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل
علق الأهل والأولاد ، ويقرع سن الندم على
زمن التضييع^١ ، والله يوفق ويرشد لا اله
سواه . قد نصحت ان ألفت^٢ سامعا ،
وناديت ان أسمع مجيبا . ومن يهد^٢ الله
فهو المهتدى ، جلت قدرته وتعالى جده .

ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا
مبادرة أهلها لأكرام الغرباء ، وإيثار الفقراء
— ولا سيما أهل باديتها ، فانك تجد من
يلتزم الى بر الضيف عجبا — كفى^١ بذلك
شرفا لها . وربما يعرض أحدهم كسوته على
فقير ، فيتوقف عن قبولها ، فيسكى الرجل

ويقول : لو علم الله^٢ فى خيرا لأكل الفقير
طعامى . لهم فى ذلك من شرف .

ومن عجب أمرهم تعظيمهم للحاج ، على
قرب مسافة الحج منهم ، وتيسير ذلك لهم ،
واستطاعتهم لسبيله ؛ فهم يتمسحون بهم
عند صدورهم ، ويتهاقنون عليهم تبركا
بهم . ومن أغرب ما حدثنا من ذلك أن الحاج
الدمشقى ، مع من انضاف اليهم من المغاربة ،
عند صدورهم الى دمشق فى هذا العام الذى
هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقيهم ، الجم
الغفير نساء ورجالا ، يصافحونهم ويتمسحون
بهم ، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم
بها ، وأخرجوا اليهم الأطعمة .

فأخبرنى من أبصر كثيرا من النساء يتلقين
الحاج ، ويناولنهم الخبز ، فإذا عض الحاج
فيه اختطفته من أيديهم ، وتبادرن لأكله تبركا
بأكل الحاج له ، ودفعن له عوضا منه
دراهم ، الى غير ذلك من الأمور العجيبة ،
ضد ما اعتدنا فى المغرب فى ذلك ، وصنع بناء
فى بغداد — عند تلقى الحاج بها — مثل
ذلك أو قريب منه .

ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت
بنا عن مقصد التقييد ، وانما وقع الاماع
بلمحة دالة يكتفى بها عن التطويل . وكل من
وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد ،
يلتزم ان أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها
طيب العيش ، ناعم البال ، وينال الخبز عليه
من أهل الضيعة ، ويلتزم الامامة^١ أو التعليم
أو ما شاء ، ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة

أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان أو الى جبل
الجودي ، فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله
عز وجل ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف الى
حيث شاء .

ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل
لبنان اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين ،
جلبوا لهم القوت ، وأحسنوا اليهم ويقولون :
هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب
مشاركتهم ^٢ . وهذا الجبل من أخصب جبال
الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة
والظلال الوارقة ، وقل ما يخلو من التبتل
والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضد
ملتهم هذه المعاملة ، فما ظنك بالمسلمين بعضهم
مع بعض !

ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة
تشتعل بين الفتنين : مسلمين ، ونصارى ،
وربما يلتقى الجمعان ، ويقع المصاف بينهم ،
ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون
اعتراض عليهم .

شاهدنا في هذا الوقت — الذى هو شهر
جمادى الأولى — من ذلك خروج صلاح
الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن
الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ،
وهو المعترض فى طريق الحجاز ، والمانع
لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس
مسيرة يوم أو أشف قليلا ، وهو سرارة ^٣
أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع
متصل العمارة يذكر أنه ينتهى الى أربعمئة
قرية . فنأزله هذا السلطان ، وضيق عليه ،
وطال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر

الى دمشق على بلاد الافرنج . تغير منقطع ،
واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ،
وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم
ولا يعترض .

وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها
فى بلادهم ، وهى من الأمانة على غاية ^١ ،
وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين
على سلمهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى
جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون
بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن
غلب .

هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم ، وفى
الفتنة ^٢ الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم
كذلك ، ولا تعترض ^٣ الرعايا ولا التجار ،
فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلما
أو حربا . وشأن هذه البلاد فى ذلك أعجب
من أن يستوفى الحديث عنه ، والله يعلى كلمة
الاسلام بمنه .

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة
فى الجهة الغربية من البلد ، وهى بازاء باب
الفرج من أبواب البلد ، وبها جامع السلطان
يجمع فيه ، وعلى مقربة منها — خارج البلد
فى جهة الغرب — ميدانان كأنهما مبسوطان
خزا لشدة خضرتهما ، وعليهما حلق ^٤ ،
والنهر بينهما ، وغیضة عظيمة من الحور
متصلة بهما ، وهما من أبدع المناظر : يخرج
السلطان اليهما ، ويلعب فيهما بالصوالجة ،
ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للمين
كمجالهما فيهما ، وفى كل ليلة يخرج أبناء

السلطان اليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة .

وبهذه البلدة أيضا قرب مائة حمام فيها وفي أرباضها ، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء يجرى الماء فيها كلها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب ، لأن المرافق بها كثيرة ، وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية ، والله يقيها دار اسلام بمنه .

وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاما وأبدعها وضعا ، ولا سيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفناديق ، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب * القصور ، وكل قيسارية منفردة بصيغتها ، وأغلقها الجديدة . ولها أيضا سوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية الى باب شرقي ، وفيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى ، وفي قبلته حجر يقال ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع .

وحديث الدار النسوبة لعمربن عبد العزيز التي هي اليوم خاتمة للصوفية ، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي ، المعروف بباب الناطقين - وقد تقدم التثنية عليه قبل هذا - حديث عجيب . وذلك أن الذي اشتراها وبناها ، وجعل لها الأوقاف الواسعة ، وأمر بأن يدفن فيها ، وأن يختم على قبره القرآن كل جمعة ، وعين من تلك الأوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة دولا من

تخبز الخوارى ، وهو ثلاثة أرطال من أرطال المغرب ، رجل من المعجم يعرف بالسميساطى - وسميساط ٢ بلدة من بلاد المعجم - وكان موصوفا بالورع والزهد .

وأصل يساره وتموله - فيما ذكر لنا - أنه ألقى يوما من الأيام بالدهليز المذكور ، ازاء الدار المذكورة ، رجلا أسود مريضا مطروحا بموضعه ، غير ملتف اليه ولا معتنى به ، فتأجر فيه ، والتزم تمرضه وخدمته والنظر له اغتناما للشواب من الله عز وجل .

فحانت وفاة الرجل ، فاستدعى ممرضه السميساطى المذكور ، فقال له : أنت قد أحسنت الى وخدمتني ، ولطفت في تمرىضى ، وأشفتك لحالى وغربتى ، فأنا أريد أن أكافئك على فعلك بى ، زائدا الى مكافأة الله عز وجل عنى فى الآجل ، ان شاء الله .

وذلك أنى كنت من أحد فتيان الخليفة المعتضد العباسى ، ومعروفا بزمام الدار ، وكانت لى حظوة ومكانة ، فعتب على فى بعض الأمر ، فخرجت طريدا ، فاتتهيت الى هذه البلدة ، فأصابنى فيها من أمر الله ما أصابنى ، فسببك الله لى رحمة .

فأنا أقلدك أمانة ، وأعهد اليك فيها عهدا : اذا أنا مت وغسلتني ، فانهض على بركة الله تعالى الى بغداد ، وتلطف فى السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة ، فاذا أرشدت اليها ، فصرف الحيلة فى اكترائها ، وأرجو أن الله يعينك على ذلك . واذا سكتها ، فاعمد الى موضع - سماه له فيها ، وذكر

له أماره عليه — فاحضر فيه مقدار كذا ،
وانزع اللوح الذى تجده معترضا تحت
الأرض ، وخذ الذى تجده مدفونا تحت
الأرض ، وصرفه فى منافعك وما يوفقك
الله اليه من وجوه البر والخير ، مباركاً لك
فى ذلك ان شاء الله .

ثم توفى الرجل الموصى رحمه الله ، وتوجه
الموصى اليه بمهده الى بغداد ، فيسر الله له فى
اكتراء الدار ، وانهى الى الموضع المذكور ،
فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها ، عظيمة
الشان كبيرة القدر ، قدسها فى أحمال متاع
ابتاعها ، وخرج الى دمشق من بغداد ،
فابتاع الدار المذكورة — المنسوبة لعمر بن
عبد العزيز رضى الله عنه — وبنهاها خاتمة
للسوفية ، واحتفل فيها ، وابتاع لها الأوقاف
ضياعا ورباعا ، وجعلها برسم الصوفية ،
وأوصى بأن يدفن فيها ، وأن يختم القرآن
على قبره كل جمعة ، وعين لكل من يحضر
ذلك ما ذكرناه .

فوجد الغرباء والفقراء فى ذلك مرفقا
كثيرا ٢ ، فتخص الخاتمة بالقراءة كل جمعة ،
فاذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا واندفع
لكل واحد منهم رطل من الخبز على الصفة
المذكورة . وبقي للمتوفى جميل الأثر والخير ،
رحمة الله ورضوانه عليه .

والكوثرية التى ذكرناها أيضا بالجامع
المكرم — المقررة كل يوم بعد العصر ،
المعينة لمن لا يحفظ القرآن — كان أصلها
أيضا أن أحد ذوى اليسار توفى وأوصى
بأن يدس قبره فى الجامع المكرم ، وأوقف

وقفا يغل مائة وخمسين دينارا فى السنة
برسم من لا يحفظ القرآن ، ويقرأ من سورة
الكوثر الى الخاتمة ، فينقسم له أربعون
دينارا ١ فى كل ثلاثة أشهر من السنة .

ويذكر أن أحد الملوك السالفين توفى
أيضا ، وأوصى بأن يجعل قبره فى قبلة الجامع
المكرم بحيث لا يظهر ، وعين أوقافا عظيمة
تغل نحو الألف دينار وأربعمائة دينار فى
السنة ، وزائدا ٢ لقراء سبع القرآن كل
يوم . وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع
المبارك ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، بالجهة
الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم .

ويقال ان فى ذلك الموضع هو القبر
المذكور ، وقراءة السبع لا تتعدى ذلك
الموضع متصلا مع جدار القبلة الى الجدار
الشرقى ، والله عز وجل لا يضع أجر
المحسنين .

وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع
الأيام ، نفع الله بها راسمها ، وناهيك فيها من
بلاد يهدى فيها لهذه الصنائع المولفة لرضوان
الله عز وجل .

وللفقراء الملتزمين الجلوس فى الجانِب
الشرقى من الجامع المكرم ، الذين ليس لهم
مأوى يأوون اليه ، وقف وضعه بعض
التأجرين الموقعين ٣ برسمهم ، الى ما يطول
ذكره من المآثر الأخراوية الصديقة ، التى
كفل الله بها غرباء هذه الجهات .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد
المستحسنة ، المرجو لهم فيها من الله عز وجل

قبول ، أنهم فى كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم اثر صلاة العصر : يقف بهم أيتهم كاشفى رؤوسهم داعين الى ربهم ، التماسا لبركة الساعة التى يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات ؛ فلا يزالون واقفين ، داعين متضرعين الى الله عز وجل ، وبحجاج بيته الحرام متوسلين ، الى أن يسقط قرص الشمس ، ويقدروا نفر الحاج ، فينفصلوا باكين على ما حرموا من ذلك . الموقف العظيم بعرفات ، وداعين الى الله عز وجل فى أن يوصلهم اليها ، ولا يحلهم من بركة القبول فى فعلهم ذلك .

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغربية الشأن ، وهياكلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصنعة والاتقان ، المعترف لوصفها بالتقشير لسان كل بيان ، الصعود الى أعلى قمة الرصاص المذكورة فى هذا التقيد ، القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول فى جوفها ، واجالة لحظ الاعتبار فى بديع وضعها ١ مع القبة التى فى وسطها ، كأنها كرة مجوفة داخلية وسط كرة أخرى أعظم منها .

صعدنا اليه فى جولة من الأصحاب المغاربة ، ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجسادی الأولى المذكورة ، من مرقى فى الجانب الغربى من بلاط الصحن كان صومعة فى القديم ، وتمشينا على سطح الجامع المكرم — وكله ألواح رصاص منتظمة كما قد تقدم الذكر لذلك ، وطول كل لوح أربعة

أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض فى الألواح نقص أو زيادة — حتى اتهمنا الى القبة المذكورة ، فصعدنا اليها على سلم منصوب ، وريح المبد تكاد تطير بنا ، فحبونا ٢ فى المشى المطيف بها — وهو من رصاص وسعته ستة أشبار — فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه .

فأسرعنا الولوج فى جوف القبة ، على أحد شراحيبها المفتحة فى الرصاص ، فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول ، وتقف دون ادراك هية وصفه الأفهام ، وجلنا فى فرش من الخشب العظيم حول القبة الصغيرة ، الداخلة فى جوف الرصاصية على الصفة التى ذكرناها ، ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه ، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان فى المحاضر .

وهذه القبة مستديرة كالكرة ، وظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام ، موقفة بنطق من الحديد ، ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الأضلاع كلها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها . وداخل هذه القبة — وهو ما بلى الجامع المكرم — خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض ، قد اتصل اتصالا عجيبا ، وهى كلها مذهبة بأبداع صنعة من التذهيب ، مزخرفة التلوين بديعة القرصنة ، يرتقى الأبصار ١ شعاع ذهبها ، وتتحير الأبواب فى كيفية عقدتها ووضعها لافراط سنوها .

أبصرنا من تلك الخواتيم ^٢ الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة ، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة ، وهى تلوح فى انتظامها للمعين كان دور كل واحد ^٢ منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها .

والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شئت أيضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام ، موثقة الأوساط بنطق الحديد ، وعددها ثمان ^٤ وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعطافا عجيبا ، واجتمعت أطرافها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها . ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة ، وهى مائتا شبر وستون شبرا ، والحال فيها أعظم من أن يبلغ ^٥ وصفها ، وإنما هذا الذى ذكرناه نبذة يستدل بها على ما وراءها .

وتحت الغارب المستطيل المسمى النسي ، الذى تحت ساتن القبتين ، مدخل عظيم هو سقف للنسي ^٦ ، بينه وبينها سماء جص مزينة ، وقد أسظم فيه من الخشب مالا يحصى عدده ، وانعقد بعضها ببعض ، وتقوس ^٦ بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره ، وقد أدخلت فى الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين .

وفى ذلك الجدار حجارة ، كل واحد منها وزن قناطير مقنطرة ، لا تنقلها القيلة فضلا عن غيرها . فالعجب كل العجب من تطليمها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ! فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ، ومعينهم

على التأتى لما ليس موجودا قى طبائهم البشرية ، ومظهر آياته على أيدي من يشاء من خلقه ، لا اله سواه .

والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة ، قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصم الكبار ، وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها . والقبتان فى رأى العين واحدة ، وكنا عنها بائنتين لكون الواحدة فى جوف الأخرى ، والظاهر منها قبة الرصاص .

ومن جملة عجائب ما عايناه فى هاتين القبتين أن لم نجد فيهما عنكبوتا فاسجا ، على بعد العهد من التفقد لهما ^١ من أحد ، والتعاهد لتنظيف مساحتهما ، والعنكبوت فى أمثالهما ^٢ موجود كثير . وقد كان حقق عندنا أن الجامع المكرم لا تسج فيه العنكبوت ، ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف ، وقد تقدم ذكرنا لذلك فى هذا التقيد .

فانصرفنا منحدرين ، وقد قضينا عجا عجايا من هذا المنظر العظيم شأنه ، المعجز وضعه ، المترفع عن الإدراك وصفه . ويقال انه ما على ظهر المعمور أعجب منظرا ، ولا أبعد سموا ، ولا أغرب بنيانا ، من هذه القبة . إلا ما يحكى عن قبة بيت المقدس ، فانها يذكر ^٣ أنها أبعد فى الارتفاع والسمو من هذه .

وجمله الأمر أن منظرها ، والوقوف على هيئة وضعها ، وعظيم الاستعداد فيها عند معانيها ، بالصعود إليها ، والولوج داخلها — من أغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا . والقدرة لله الواحد القهار ، لا اله سواه .

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنازتهم رتبة عجيبة . وذلك أنهم يشنون أمام الجنازة بقاء يقرءون القرآن بأصوات شجية ، وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا ^٤ : يرفعون أصواتهم بها ^٥ فتستلقى الآذان بأدمع الأجفان ^٦ ، وجنازهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة ، فلا بد لكل جنازة من الجامع . فإذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا الى موضع الصلاة عليها . الا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته ، فإن الحالة المميزة له في ذلك أن يدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه .

وربما اجتمعوا للعرزاء بالبلاط الغربي من الصحن ، بازاء باب البريد ، فصلون أفرادا أفرادا ، ويجلسون وأمامهم ربهات من القرآن يقرءونها ، وتقباء الجناز يرفعون أصواتهم بالدعاء لكل واصل للعرزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم ، ويحلونهم بخطتهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين ، فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمس أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محيه أو زكيه أو نجيه ،

الى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة وتتبعها ^١ ، ولا سيما في الفقهاء بما شئت أيضا ، من سيد العلماء ، وجمال الأئمة ، وحجة الاسلام ، وفخر الشريعة ، وشرف الملة ، ومفتى الفريقين ، الى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية .

فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساجدا أذيلة من الكبر ، ثانيا عطفه وقذاله . فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة ، وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعاظهم واحدا واحدا — بحسب رتبهم في المعرفة — فوعظ وذكر ، ونبه على خدع الدنيا وحذر ، وأشد في المعنى ما حضر من الأتساع ، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى ، ثم قعد وتلاه آخر على مثل طريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا . فربما كان مجلسا نافعا لمن يحضره من الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحضرة . وإذا لقي أحد منهم آخر مسلما يقول : جاء المملوك أو الخادم يرسم الخدمة ، كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطيا ، والحد عندهم عنقاء مغرب ، وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود فتري الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك : فواحد ينحط ، وآخر يقوم ، وعنائهم تهوى بينهم هويا

المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة ، فهم يستعملونها اثر الصلوات - ولا سيما اثر صلاة الصبح وصلاة العصر - واذا سلم الامام وفرغ من الدعاء ، أقبلوا عليه بالمصافحة ، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره ، فيثرقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز وجل .

وقد تقدم الذكر ، فيما سلف من هذا التقيد ، أنهم يستعملونها عند رؤية الأهله ، ويدعو بعضهم لبعض ، بتعرف بركة ذلك الشهر ويمينه ، واستصحاب السعادة والخير فيه وفيما يعود عليه من أمثاله . وتلك أيضا طريقة حسنة ينفعهم الله بها ، لما فيها من تعاطي الدعوات ، وتجديد المودات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا ، رحمة من الله تعالى ونعمة .

وقد تقدم الذكر أيضا في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات ، صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ، وما له من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ، ومثابرته على جهاد أعداء الله : لأنه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام ، والشام أكثره بيد الأفرنج ، فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات ، فهو لا يأوى لراحة ، ولا يخلد الى دعة ، ولا يزال مرجه مجلسه . انا بهذه البلدة نازلون^١ منذ شهرين اثنين ، وحللناها وقد خرج لنازلة حصن الكرك - وقد تقدم

وهذه الحالة من الانعطاف الركوعي في السلام ، كنا عهدنا لقينات النساء ، وعند استعراض رقيق الاماء . فيا عجباً لهؤلاء لرجال ! كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ؟ قد ابتدلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الآية منه ، واستعملوا تكفير الذمى المنهى في لشرع عنه ، لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل . فيا للعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة ، واثهوا الى هذه الغاية في الألفاظ بينهم ! فيما اذا^١ يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟ لقد تساوت الأذنان عندهم والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس . فسبحان خالق الخلق أطوارا ، لا شريك له ولا معبود سواه .

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وأيديهم الى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة^٢ مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيمرا تمينا^٣ وتثني^٤ . وهم يعتقدون تلك الهيئة^٥ تميزا لهم في ذوى الخصوصية وتشريفا ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا في الأعضاء وراحة من الاعياء . والمختشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبرا ، أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا ، وكل منهم قد زين له سوء عمله فرآه حسنا .

أستغفر الله منهم ، فان لهم من آداب المصافحة عوائد تجدد لهم الايمان ، وتستوهم لهم من الله الغفران ، لما بشر به الحديث

الذكر أيضا له — وهو عليه محاصر له حتى الآن . والله تعالى يعينه على فتحه .

وسمنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين ، بسدة ^٢ هذا السلطان والعاشرين مجلسه ، يذكر عنه — فى حضرة محفل علماء البلد وفقهائه — ثلاث مناقب ، فى ثلاث كلمات حكماها عنه ، رأينا اثباتها هنا :

أحداها ^٢ أن العلم من سجاياه ، فقال — وقد صفع عن جريرة أحد الجناة عليه — : « أما أنا فلأن أخطئ فى العفو أحب الى من أن أصيب فى العقوبة » ، وهذا فى العلم منزع أخفى .

وقال أيضا — وقد تنوشدت بحضرته الأشعار ، وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم : — : « والله لو وهب الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما فى خزائنى لما كان عوضا مما أراقه من حرماء وجهه فى استمناحه إياى » ، وهذا فى الكرم مذهب رشيدى أو جعفرى .

وحضره أحد مماليكه ، المتميزين لديه بالخطوة والأثرة ، مستعديا على جمال ذكر أنه باعه جملا معيا ، أو صرف عليه جملا بعب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : « ماعسى أن أصنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيته منتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشيخته — والشحنة عندهم

صاحب الشرطة — فالحق يقضى لك أو عليك » ، وهذا فى المقصد عمى .

وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخرا ، والله يتمتع ببقائه الاسلام والمسلمين ، بـه .

شهر جمادى الآخرة ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الأحد ، التاسع من شهر شتبر العجوى ، ونحن بدمشق — حرمها الله — على قدم الرحلة الى عكة — فنحما الله — والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى ، وفى مراكبهم المعدة لسفر الخريف ، المعروف عندهم بالصليبية ، عرفنا الله فى ذلك معهود خيرته وتكفلنا بكلاءته وعصمته ، بعزته وقدرته . انه سبحانه الحنان المنان ، ولى الطول والاحسان ، لا رب غيره .

وكان انفصالنا منها عشى يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور — وهو الثالث عشر من شهر شتبر المذكور — فى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة . ومن أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج ، وسببهم يدخل الى بلاد المسلمين .

شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمرا عجيبا . وذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك — المتقدم الذكر فى هذا التاريخ — قصد اليه الافرنج فى جميعهم ، وقد تألبوا من كل أوب ، وراموا أن يسبقوه الى

موضع الماء ، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين ، فصعد اليهم ، وأقلع عن الحصن بجملته ، وسبقهم الى موضع الماء ، فحادوا عن طريقه ، وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه أكثر دوابهم ، وتوجهوا الى حصن الكرك المذكور ، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ، ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ، ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه .

فاحتبل^١ صلاح الدين في بلادهم الغرة^٢ ، واثتهز الفرصة ، وقصد قصدتها عن الطريق القاصدة ، فدهم مدينة نابلس ، وهجمها بعسكره ، فاستولى عليها ، وسبى كل من فيها ، وأخذ اليها حصونا وضياعا ، وامتألت أيدي المسلمين سبيا لا يحصى عدده من الافرنج ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرية ، منسوبة الى السامري ، وانبط فيهم القتل الذريع ، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، الى ما اكنت^٣ من الأمتعة والذخائر والأسباب والأثاث ، الى النعم والكراع الى غير ذلك .

وكان من فعل هذا السلطان الموفق أن أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتازته ، وسلم لهم ذلك ، فاحتازت كل يد (ما) حوت ، وامتألت غنى ويسارا ، وعفى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مر عليها من بلاد الفرنج ، وآبو غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والاياب ، وتخلصوا من أسرى المسلمين عددا كثيرا ، وكانت غزوة لم يسمع بمثلا^٤ في البلاد .

وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم ، كل " بما احتواه وحصلت يده عليه ، وكان مبلغ السبي آلافا لم تتحقق احصاءها . ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا ، الأقرب ليوم انفصالنا ، وأعلمنا أنه يجم^٥ عسكره قليلا ويعود الى الحصن المذكور . فالله يعينه ، ويفتح عليه ، بعزته وقدرته .

وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج ، وسيبهم يدخل بلاد المسلمين . وناهيك من هذا * الاعتدال في السياسة ! فكان ميتنا ليلة الجمعة بدارية ، وهي قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف . ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده الى قرية تعرف بيت جكن هي بين جبال .

ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الى مدينة بانياس ، واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط ، عظيمة الجرم متسعة التدويج ، أعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان . فسالنا عن ذلك ، فقيل لنا هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الافرنج - وهم الحواسة والقطاع - من أخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ولو يباع أو شبر أسر ، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك أطلق سبيله ؛ لهم في ذلك عهد يوفون به وهو من أطرف الارتباطات الافرنجية وأغربها .

ذكر مدينة بانياس ، حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين ، وهي صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها تحت السور

نهر ، ويفضى الى أحد أبواب المدينة ، وله ^١ مصب تحت أرحاء . وكانت بيد الافرنج ، فاسترجعها نور الدين رحمه الله .

ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هونين ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ ، وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين ، لهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجرى بينهم ^٢ فيها .

فرحلنا عنها عشى يوم السبت المذكور الى قرية تعرف بالمسية ^٣ بمقربة من حصن الافرنج المذكور ، فكان مبيتنا بها . ثم رحلنا منها يوم الأحد سحرا ، واجتزنا فى طريقنا بين هونين وتبنين ^٤ بواد ملتف الشجر - وأكثر شجره الرند - بعيد العمق ، كأنه الخندق السحيق المهورى ، تلتقى حافتاه ، ويتعلق بالسماك أعلاه ، يعرف بالأسطيل ، لو ولجته المساكر لغابت فيه ، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه ، المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان .

فمجبنا من أمر ذلك المكان ، فأجزنا ومشينا عنه سيرا ، واتتهنا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبنين ^١ . وهو موضع تمكيس القوافل ، وصاحبه خنزيرة تعرف بالملكة ، هى أم الملك الخنزير صاحب عكة ، دمرها الله .

فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ، ومكس الناس تمكيسا غير مستقى ، والضريبة فيه

دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار أربعة وعشرون قيراطا .

وأكثر المعترضين فى هذا المكس المغاربة ، ولا اعتراض على غيرهم ^٢ من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الافرنج عليهم ، سبها : أن طائفة من أنجادهم غزت ، مع نور الدين رحمه الله ، أحد الحصون ، فكان لهم فى أخذه غنى ظهر واشهر ، فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم ، فكل مغربى يؤن على رأسه الدينار المذكور فى اختلافه على بلادهم .

وقال الافرنج : ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ، ونسالهم ولا نرأهم شيئا . فلما تعرضوا لحربنا ، وتآلبوا مع اخوانهم المسلمين علينا ، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم . فللمغاربة فى أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل فى نكايتهم العدو يسهله عليهم ، ويخفف عنه ^٣ عنهم .

ورحلنا من تبنين ^٤ - دمرها الله - سحرا يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلها مسلمون ، وهم مع الافرنج على حالة ترفيه - نموذ بالله من الفتنة - وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قرايط ، ولا يعترضونهم فى غير ذلك ، ولهم على ثمر

الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا ،
ومساكنهم بأيديهم ، وجميع أحوالهم متروكة ^١
لهم .

وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل
الشام على هذه السبيل : رساتيقها ^٢ كلها
للمسلمين ، وهى القرى والضياع ، وقد
أشربت الفتنة قلوب أكثرهم ، لما يصرون ^٣
عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين
وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه
والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على
المسلمين أن يشتكى الصنف الاسلامى جور ^٤
صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه
المالك له من الافرنج ، ويأنس بعدله . فإلى
الله المشتكى من هذه الحال ، وحسبنا تعزية
وتسلية ما جاء فى الكتاب العزيز « ان هى الا
فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » .

فنزّلنا يوم الاثنين المذكور بضيفة من
ضياع عكة على مقدار فرسخ ، ورئيسها
الناظر فيها من المسلمين ، مقدم من جهة
الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين .
فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حافلة ،
وأحضرهم صغيرا وكبيرا فى غرفة متسعة
بمنزله ، وأأنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم ،
فعمهم بتكرمه ، وكنا فيمن حضر هذه
الدعوة ، وبتنا تلك الليلة .

وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر
المذكور ، وهو الثامن عشر لشتنبر ، مدينة
عكة - دمرها الله - وحنلنا الى الديوان ،
وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بابها

مصاطب مفروشة : فيها كتاب الديوان من
النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلى ،
وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ،
ورئيسهم - صاحب الديوان والضامن
له - يعرف بالصاحب : لقب وقع عليه
لكافه من الخطه ، وهم يعرفون به كل
محتشم متمين عندهم من غير الجند ، وكل
ما يجبى ^١ عندهم راجع الى الضمان ، وضمان
هذا الديوان بمال عظيم .

فأنزل التجار رجالهم به ، ونزلوا فى
أعلاه ، وطلب رجل ^١ من لا سلعة له لثلا
يحتوى على سلعة مخبوءة فيه ، وأطلق سبيله
فنزّل حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة
دون تعنيف ولا حمل . فنزلنا بها فى بيت
اكريناه من نصرانية بازاء البحر ، وسألنا الله
تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة .

ذكر مدينة عكة ، دمرها الله وأعادها

هى قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط
الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ^٢ ،
مرقا كل سفينة ، والمشبهة فى عظمها
بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ،
ومتلقى تجار المسلمين والنصارى من جميع
الآفاق . سككها وشوارعها تفص بالزحام ،
وتضيق فيها مواطىء ^٣ الأقدام ، تستمر كهرا
وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة
قدرة ، ملووة كلها رجسا وعذرة .

اتزعها الافرنج من أيدي المسلمين فى
العشر الأول من المائة السادسة ، فبكى لها
الاسلام ملء جفونه ، وكانت أحد ^٤

ذكر مدينة صور ، دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لا تلقى لطلبها يد^٦ طاعة ولا استكانة ، قد أعدها الافرنج^٧ مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم . هي أنظف من عكة سككا وشوارع ، وأهلها ألين في الكفر طبائع ، وأجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلأئقهم أسجح ، ومنازلهم أوسع وأفسح ، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن ، وعكة أكبر وأظنى وأكفر .

وأما حصانتها ومنعتها^٨ فأعجب ما يحدث به ، وذلك أنها راجعة الى باين : أحدهما في البر والآخر في البحر ، وهو^٩ يحيط بها الا من جهة واحدة . فالذي في البر يفضى اليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالبواب .

وأما الذي في البحر فهو مدخل^١ بين برجين مشيدين الى ميناء^٢ ليس في البلاد البحرية أعجب وضعا منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحديق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيها . وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة^٣ ، تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها . وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ، ولا يخرج الخارج الا على أعينهم .

شجونه ، فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقر . وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة ، بقيت بأيدي المسلمين مسجدا صغيرا ، يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة ، وعند محرابه قبر صالح النبي صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء ، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة هذا القبر المقدس .

وفى شرقي البلدة العين المعروفة بعين البقر ، وهي التي أخرج الله منها البقر لآدم صلى الله عليه وسلم . والمهبط لهذه العين على أدراج وطية ، وعليها مسجد بقي محرابه على حاله ، ووضع الافرنج في شرقيه محرابا لهم ، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه : يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصلاه ، وهو بأيدي النصاري معظم محفوظ ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين .

فكان مقامنا بها يومين . ثم توجهنا الى صور يوم الخميس الثاني عشر لجمادى المذكورة^١ ، والموفى عشرين لشعبان^٢ المذكور ، على البر . واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب^٣ وهي مظلة^٤ على قرى وعمائر متصلة ، وعلى قرية مسورة تعرف بإسكندرونة ، وذلك لمطالعة مركب بها أعلمنا أنه يتوجه^٥ الى بجاية ، طمعا في الركوب فيه ، فحللناها عشى يوم الخميس المذكور ، لأن المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا ، فنزلنا بها في خان معد لنزول المسلمين .

فشان هذه ٤ الميناء شأن عجيب فى حسن الوضع . ولعكة مثلها فى الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وإنما ترسى خارجها ، والمراكب الصغار تدخل إليها ، فالصورة أكمل وأجمل وأحفل .

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما : دخلناها يوم الخميس ، وخرجنا منها يوم الأحد الثانى * والعشرين لجمادى المذكورة ، وهو آخر يوم من شتبر ، وذلك أن المركب الذى كنا أملنا الركوب فيه استصفرناه فلم نر الركوب فيه .

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها : زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سمالطين عند باب العروس الهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تنهادى بين رجلين يسكانها من يمين وشمال كأنها من ذوى أرحامها .

وهى فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة . من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبثها مثل ذلك منتظم . وهى راقلة فى حليها وحللها : قمشى قترا فى فتر ، مشى الحمامة ، أو سير الحمامة — نعوذ بالله من فتنة المناظر — وأمامها جلة رجالها من النصارى

فى أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات : يتهادين فى أنفس الملابس ، ويرفلن فى أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم .

والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سمالطين ، يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك . فساروا ١ بها حتى أدخلوها دار بعلمها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة . فأدانا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفى ، المستعاذ بالله من الفتنة فيه .

ثم عدنا الى عكة فى البحر ، وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث ٢ والعشرين من جمادى المذكورة ، وأول يوم من شهر أكتوبر ، واكترنا فى مركب كبير نروم الاقلاع الى مئينة من بلاد جزيرة صقلية . والله تعالى كليل بالتيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته ٣

وكانت راحتنا ، مدة مقامنا بصور ، بمسجد بقى بأيدي المسلمين — ولهم فيها مساجد أخر — فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وأخذت عكة قبلها باثنتى عشرة سنة بعد محاصرة طولىة .

وبعد استيلاء المسغبة عليهم ، ذكر لنا أنهم اتهموا منها لحال نعوذ بالله منها ، وأنهم حملتهم الأتفة على أن هموا يركوب خطة عصمهم الله منها .

وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ، ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ، ثم يخرجوا الى عدوهم بعزيمة نافذة ، ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ، ويقضى الله قضاءه . فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، وأجمعوا على دفع البلد ، والخروج منه بسلام ، فكان ذلك ، وتفرقوا في بلاد المسلمين .

ومنهم من استهواه حب الوطن ، فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم ، بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها . والله غالب على أمره ، سبحانه جلت قدرته ، ونفذت في البرية مشيئته .

١ وليست له ١ عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر الا ٢ مجتازا ، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين ، لمشقات وأهوال ٣ يعانيتها في بلادهم : منها الذلة والمسكنة الذمية ، ومنها سماع ما يفجع الأفتدة من ذكره من قدس الله ذكره وأعلى خطره ، لا سيما من أرادلهم وأسافلهم ، ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخزائر وجميع المحرمات ، الى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده

فالحذر ، الحذر من دخول بلادهم . والله تعالى المسئول حسن الاقالة والمغفرة ، من هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم ، ولم تتداركها الا بعد موافقة الندم ، فهو سبحانه ولى ذلك لا رب غيره .

ومن الفجائع التي يعاينها من حل بلادهم أسرى المسلمين ، يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك في أسواقهن * خلاخيل الحديد ، فتتفطر لهم الأفتدة ، ولا يعنى الاشفاق عنهم شيئا .

ومن جيل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشامية الافرنجية ، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين ، بهذه الجهات الشامية وسواها ، انما يعينها في افتكالك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل ، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم . فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين ، والخواتين من النساء ، وأهل اليسار والثراء ، انما ينفقون أموالهم في هذه السبيل .

وقد كان نور الدين رحمه الله نذر ، في مرضة أصابته ، تفريق اثني عشر الف دينار في فداء أسرى من المغاربة . فلما استبل من مرضه أرسل في فدائهم ، فسيق فيهم ثمر ليسوا من المغاربة — وكانوا من حماة من جملة عمالته — فأمر بصرفهم واخراج عوض منهم من المغاربة ، وقال : هؤلاء يفتكهم أهلوههم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لا أهل لهم . فانظر الى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي .

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار ، وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء : أحدهما يعرف بنصر بن قوام ،

والثاني بأبي الدر باقوت مبولي العطاقي وتجارتهما كلها بهذا الساحل الأفرنجي ، ولا ذكر فيه لسواهما ، ولهما الأمناء من المقارضين ، فالقوافل صادرة وواردة بيضائهما ^١ ، وشأنها في الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والأفرنجيين خطير . وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغريين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا ، لأنهما المقصودان بها ، لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلها أموالهما في هذه السبيل ، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما ، فهما طول الدهر بهذه السبيل : ينفقان أموالهما ، ويبدلان اجتهدهما ^٢ في تخلص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين . والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين .

ومن سوء الاتفاقات ، المستعاذ بالله من شرها ، أنه صحبنا في طريقنا إلى عكة من دمشق رجل مغربي ، من بونة عمل بجاية ، كان أسيرا ، فتخلص على يدي أبي الدر المذكور ، وبقي في جملة صبيان ، فوصل في قافلته إلى عكة . وكان قد صحب النصراني ، وتخلق بكثير من أخلاقهم ، فما زال الشيطان يستهويه ويغريه ، إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر وتصر مدة بمقامنا بصور .

فانصرفنا إلى عكة ، وأعلمنا بخبره ، وهو بها قد بطس ورجس ، وقد عقد الزنار ، واستعجل النار ، وحقت عليه كلمة العذاب ، وتأهب لسوء الحساب وسحيق المآب .

سأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والآخرة ، ولا يعدل بنا عن الملة الحنيفة ، وأن يتوفانا مسلمين بفضلته ورحمته .

وهذا الخنزير صاحب عكة - المسمى عندهم بالملك - محجوب لا يظهر : قد ابتلاه الله بالجذام ، فعجل له سوء الانتقام . قد شغلته بلواه في صباه عن نعيم دنياه ، فهو فيها يشقى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ^١ . وحاجبه وصاحب الحال عوضه : خاله القومس ، وهو صاحب المجبي ، وإليه ترتفع الأموال .

والمشرف على الجميع بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن ، في الأفرنجية اللعينة ، القومس اللعين صاحب طرابلس ، وطبرية ، وهو ذو قدر ومنزلة عند الأفرنج ، وهو المؤهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر . وكان أسيرا عند نور الدين نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد ، ثم تخلص بمال عظيم بذله ^٢ في نفسه ، مدة ^٣ صلاح الدين وعند أول ولايته ، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعنق .

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها ، ويقصد بقوافل البغال على تبين ^٤ لوعورتها وقصد طريقها . وبحيرة طبرية مشهورة ، وهي ماء عذب ، وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ ، والأقوال فيها تختلف ، وهذا القول أقربها إلى الصحة لأننا لم نعاينها ، وعرضها أيضا مختلف سعة وضيقا .

وفيه قبور كثيرة من قبور الأنبياء صلوات الله عليهم : كشعيب ، وسليمان ، ويهوذا ، ورويل ، وابنة شعيب زوج الكليم موسى ، وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وجبل الطور منها قريب .

وبين عكة وبيت المقدس ، ثلاثة أيام ، وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام ، وهو بين المغرب والقبلة من عكة الى جهة الاسكندرية . والله يعيده الى أيدي المسلمين ، ويظهره من أيدي المشركين ، بعزته وقدرته .

وهاتان المدينتان : عكة وصور ، لا يساتين حولهما ، وانما هما ١ في بسيط من الأرض أفيح متصل بسيف البحر ، والقواكه تجلب اليهما من يساتينهما التي بالقرب منهما ، ولهما

عمالة متسعة . والجبال التي تقرب منها ٢ معمورة بالضبياع ، ومنها تجبى ٣ الثمرات اليهما ، وهما من غر البلاد .

ولمكة في الشرق منها مع آخر البلد واد يسيل ماء ، ولها من شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظرا ، ولا ميدان للخليل يشبهه ، واليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية ، وبه يجتمع العسكر دمره ٤ الله .

ولصور عند بابها البرى عين معينة بنحدر اليها على أدراج ، والآبار والجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها ٥ ، والله تعالى يعيد اليها والى أخواتها كلمة الاسلام ، بمنه وكرمه .

وفى يوم السبت الثامن ٧ والعشرين لجمادى المذكورة ، والسادس لأكتوبر ٨ ، سعدنا الى المركب - وهو سفينة من السفن الكبار - بمنة الله تعالى على المسلمين بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج . وصعدنا من النصارى المعروفين بالبغريين ٩ ، وهم حجاج بيت المقدس ، عالم لا يحصى ينتهى الى أزيد من ألفى انسان . أراح الله من صحبتهم بمآجل السلامة ، ومأمول التسهيل والصنع الجميل ، بمنه وكرمه ، لا معبود سواه . ونحن به منتظرون موافقة الريح وكمال الوسق بمشيئة الله عز وجل .

شهر رجب الفرد ، عرفنا الله بركته وبمنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر ، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة ، منتظرون كمال وسقه ، والاقلاع بسم الله تعالى وبركته وجميل صنعه وكرمه مشيئته . وتمادى مقامنا فيه مدة اثني عشر يوما لعدم استقامة الريح .

وفى مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب ١ فيها الا فى فصلى الربيع والخريف ، والسفر لا يكون الا فيهما ، والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا فى هذين ٢ الفصلين . والسفر فى الفصل الربيعى من نصف أبريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، وتطول مدتها الى آخر شهر مايو وأكثر وأقل بحسب ما يقضى الله تعالى به .

والسفر فى الفصل الخريفى من نصف
أكتوبر ، وفيه تتحرك الرياح الشرقية ^٢ ،
ومدتها أقصر من المدة الربيعية ، وإنما هى
عندهم خلسة من الزمان ، قد تكون خمسة
عشر يوما وأكثر وأقل ، وما سوى ذلك من
الزمان فالرياح فيه تختلف ، والرياح الغربية
أكثرها دواما . فالمسافرون الى المغرب وإلى
صقلية وإلى بلاد الروم ، ينتظرون هذه الرياح
الشرقية فى هذين الفصلين انتظار وعد
صادق . فسبحان المبدع فى حكمته ، المعجز
فى قدرته ، لا اله سواه .

وكنا طول هذه المدة التى أقمنا فيها على
ظهر المركب نبيت فى البر ، وتتفقد المركب
فى الأحيان . فلما كان سحر يوم الخميس
العاشر لرجب المذكور ، والثامن عشر
لاكتوبر ، أقلع المركب . وكنا على عادتنا فى
البر بائتين ، ولم يحسن النهار للروم بأهبة
السفر ، فضيعنا الحزم ، ونسينا المثل
المضروب فى اعداد الماء ^١ والزاد ، وألا يفارق
الانسان رحله ، فأصبحنا والمركب لا عين له
ولا أثر

فاكترينا للحين زورقا كبيرا له أربعة
مجاديف ، وأقلعنا تتبعه ، وكانت مخاطرة
عصم الله منها ، فأدركنا المركب مع العشى ،
فحمدنا الله عز وجل على ما من به . وكان
أول ^١ ذلك اليوم يوم شدتنا فى هذا السفر
الطويل ، وآخره والحمد لله يوم فرجنا ^٢ ،
ولله الحمد والشكر على كل حال .

واتصل جرينا والرياح الموافقة تأخذ وتدع
نحو خمسة أيام ، ثم هبت علينا الرياح الغربية
من مكمنها دافعة فى وجه المركب ، فأخذ
رئيسه ومديره الرومى الجسوى - وكان
بصيرا بصنعتة ، حاذقا فى شغل الرياسة
البحرية - يراوغها تارة يميننا وتارة شمالا ،
طمعا ألا يرجع على عقبه ، والبحر فى أثناء
ذلك رهو ^٢ ساكن .

فلما كان نصف الليل أو قريب منه ليلة
السبت التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع
والعشرين لأكتوبر ، تردت ^١ علينا الرياح
الغربية ، فقصفت قرية الصارى المعروف
بالأردمون ، وألقت نصفها فى البحر مع
ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من
وقوعها فى المركب ، لأنها كانت تشبه
الصوارى عظما وضخامة .

فتبادر البحريون إليها ، وحط شراع
الصارى الكبير ، وعطل المركب من جريه ،
وصيح بالبحريين الملازمين للعشارى المرتبط
بالمركب ، فقصدوا الى نصف الخشبة الواقعة
فى البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط
بها ، وحصلنا فى أمر لا يعلمه الا الله تعالى ،
وشرعوا فى رفع الشراع الكبير ، وأقاموا
فى الأردمون شراعا يعرف بالدلون .

وبتنا بليلة شهباء الى أن وضع الصباح ،
وقد من الله عز وجل بالسلامة ، وشرع
البحريون فى اصلاح قرية أخرى من خشبة
كانت معدة عندهم ، والرياح الغربية على أول
لحاجها ، ونحن بين اليأس والرجاء تتردد ،
مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى

وحفى^٦ لطفه ومعهود فضله ، سبحانه هو
أهل ذلك جلت قدرته وتناهت عظمته ،
لا اله سواه .

وفى يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه ،
تحركت الرياح الشرقية نسيما فاترا عليلا ،
فاستبشرت النفوس بها رجاء فى نمائها
وقوتها ، فكانت نفسا خافتا ، ثم بعد ذلك
غشى البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه ،
فعاد كأنه صرخ ممرد من قوارير^١ ، ولم يبق
للجهات الأربع نفس يتسم ، فبقينا لاعبين
على صفحة ماء^٢ تغاله العين سبيكة لجين ،
كأننا نجول بين سماءين ، وهذا الهواء الذى
يسميه البحرىون الغلبنى^٣ .

وفى ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب
المذكور - وهو أول يوم من نونبر
المعجبى - كان للنصارى عيد مذكور
عندهم ، احتفلوا له فى اسراج الشمع ، وكاد
لا يخلو أحد منهم - صغيرا أو كبيرا ذكرا
أو أنثى - من شمعة فى يده ، وتقدم
قسيوهم^٤ للصلاة فى المركب بهم ، ثم
قاموا واحدا واحدا لوعظهم وتذكيرهم
بشرائع دينهم ، والمركب يزهر كله أعلاه
وأسفله سرجا متقدة .

وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة ،
ثم أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن ،
واتصل بنا ذلك الى ليلة الأحد السابع^٥
والعشرين منه ، فتحركت ربح شمالية ، فعاد
المركب بها لجريته^٦ واستبشرت النفوس
والحمد لله .

شهر شعبان المكرم ، عرفنا الله خيرته وبركته

غم هلاله علينا ، فأكملنا عدة أيام رجب ،
فهو على الكمال من ليلة الخميس بنوافقة
الثامن من نونبر ، وقد تم لنا على ظهر
البحر من يوم اقلعنا من عكة اثنان وعشرون
يوما ، حتى عدنا الانس ، واستشعرنا القنط
واليأس . وصنع الله عز وجل مأمول ، ولطفه
الخفى^٨ بنا كفى . . . بمنه وكرمه .

وقل الزاد بأيدى الناس ، لكن هم من هذا
المركب - بمنه الله - فى مدينة جامعة
للمرافق ، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد ، من
خبز وماء ، ومن جسيع القواكه والأدم ،
كالرمان ، والسفرجل ، والبطيخ السندى ،
والكمثرى ، والشاه بلوط ، والجوز ،
والحمص ، والبلاقلانيا ومطبوخا ، والبصل
والثوم ، والتين ، والجن ، والحوت ، وغير
ذلك مما يطول ذكره ، عاينا جميع ذلك
بياع . وفى خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا
ير ، والله يأتى بالفرج القريب .

ومات فيه رجلان من المسلمين ، رحمهما
الله ، فقدقا فى البحر ، ومن البلغريين اثنان
أيضا ، ومات منهم بعد ذلك خلق ، وسقط
منهم واحد فى البحر حيا فاحتسلته الموج أسرع
من خطفة البارق . وورث هؤلاء الأموات ، من
المسلمين والنصارى البلغريين ، رئيس المركب
لأنها سنة عندهم فى كل من يموت فى البحر ،
ولا سبيل لوارث الميت الى ميراثه ، فطال
عجبنا من ذلك .

المذكورة ، ونحن نجرى بريح شمالية موافقة ،
فزئرت ١ وعصفت ، فطار لها المركب بجناحي
شراعه ، والبحر بها قد جن واستشرى لجاجه ،
وقذفت بالزبد أمواجه ، فتخال غواربه
المتسوجة جبلا مثلجة ، ومع تلك استشعرت
النفوس الألس ، وغلب رجاؤها اليأس .

وقد كنا مدة ستة وعشرين يوما المذكورة ،
التي لم يظهر لنا فيها بر ، نرجم الظنون
ونغازل المنون ، حذرا من نفاد الزاد والماء ،
والحصول بين المهلكين الجوع والظمأ ؛ فمن
قائل يقول أنا قد ملنا في جرينا إلى بر الغرب ؟
وهو بر إفريقية ، وآخر يزعم أنا قد ملنا إلى
بر الأرض الكبيرة بر انقسطنطينية وما يليها ،
ومهم من يقول إلى اللاذقية جهة الشام ،
ومنهم من يقول إلى صباط بر الاسكندرية .

وكنا نحذر أن تلجنا الريح إلى أحد
جزائر الرمانية الخالية فشتو فيها ، أو
تضطرنا الحال إلى المغبور منها ، وليس في
هذه الوجوه المتوقعة كلها وجه فيه حظ
لخيار ؟ ، حتى أتى الله بالفرج ، وأذهب اليأس
واليأس ، ومكن في النفوس الايناس بعد
مكابدة الأمرين ومقاساة البرحين . فله ذر
القائل :

البحر مرّ المذاق صعب

لا جعلت حاجتي إليه

أليس ماء ونحن طين

فما عسى صبرنا عليه ؟

ونحن الآن — بفضل الله تعالى — نتطلع
البشرى يظهر بر صقلية إن شاء الله .

وفي سحر يوم الثلاثاء السادس من الشهر
المؤرخ ، والثالث عشر من نوفمبر ، ظهرت لنا
جبال في البحر . وقد اشتدت الريح الغربية
وتوالى اعصارها ، وكانت تتقلب بالقبول
والدبور ، فألجأتنا إلى أحد تلك الجبال ،
فأرسينا عنده ، وسألنا عن الموضع ، فأعلمنا
أنه من جزائر الرمانية . وهذه الجزائر تيف
على الثلاثمائة وخمسين جزيرة ، وهي إلى على
صاحب القسطنطينية ، والروم يحذرون أهلها
كحذر المسلمين لأنهم لا صلح بينهم .

فأقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور
وصدر يوم الأربعاء بعده ، ونزل من تلك
الجزيرة قوم بايعوا أهل المركب بعض ساعة
من النهار في الخبز واللحم ، بعد أمان
أخذوه . ثم أقلعنا يوم الأربعاء المذكور ،
وقد تم لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون
يوما .

وظهر لنا يوم الخميس بعده بر جزيرة
قريبش . وهذه الجزيرة أيضا لعل صاحب
القسطنطينية ، وطولها تيف على الثلاثمائة ميل .
وقد تقدم ذكرها في سفرنا البحري إلى
الاسكندرية — فبقينا نجرى بطولها ، وهي
منا على اليمن ، والبحر في أثناء ذلك كله
هائل ، والريح لا توافق ، ونحن نتظر الفرج
من الله عز وجل بصبر جميل ، وارتقب منه
جل جلاله معهود التيسير والتسهيل بسنة
ونظفه .

وفي يوم السبت العاشر لشعبان المذكور
والسابع عشر لنوڤمبر ، انقطع عنا بر الجزيرة

وفى النصف من ليلة الأحد ، الحادى عشر منه ، انقلبت الريح غربية : وكشف النوء من المغرب ، وجاءت الريح عاصفة ، فأخذت بنا جهة الشمال . وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجه وماج مائج ، فرمى بموج كالجبال ، يصطدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه قلب الفصن الرطب ، وكان كالسور علوا ، فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمى فى وسطه بشايب كالوابل المنسكب .

فلما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الأذان غماغمه ، واستشرى عصف الريح ، فحطت الشرع ، واقتصر على الدالين الصغار دون أنصاف الصوارى ، ووقع اليأس من الدنيا ، وودعنا الحياة بسلام ، وجاءنا الموج من كل مكان ، وغلطنا أنا قد أحيط بنا . فيا لها ليلة يشيب لها سود الذوائب ، مذكورة فى لىالى الشوائب ، مقدمة فى تعداد الحوادث والنوائب .

ونحن منها فى مثل ليل صول طولا ، فأصبحنا ولم نكد ، فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر اقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا ، وكنا قد خلفناه عن يميننا ، فأسقطنا الريح عن مجرانا ونحن نظن أنا قد جزناه ، فسقط فى أيدينا ، وخالفنا المجرى المعهود الميمون : وهو أن يكون البر المذكور منا يميننا فى استقبال صقلية ، فاستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غصص هذا الكدر ، وقلنا :

سيكون الذى قضى سخط العبد أو رضى وفى أثناء ذلك انبسطت الشمس ، ولان البحر قليلا ، وصمنا ^١ فروم أخذ مرسى فى البر المذكور الى أن يقضى الله قضاءه ^٢ ، وينفذ حكمه . ولكل سفر أوان ، وسفر البحر انما هو فى ابائه ، والمعهود من زمانه ، لا أن يعتسف فى فصول ^٣ أشهر الشتاء اعتسافنا له ، والأمر لله من قبل ومن بعد . فالحذر الحذر من ركوب مثل هذا الخطر ، وان كان المحذور لا ينفى عن المقدور شيئا ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم ان الريح ساعدت عند استقبالنا البر بعض مساعدة ، فانصرفنا عنه وتركناه يميننا ، وعدنا الى قريب من المجرى المقصود . وجرينا بعض ليلة الثلاثاء الثالث عشر منه — وقد تم لنا على ظهر المركب أربعة وثلاثون يوما — والشرع مصلبة ، وهو ^١ عندهم أعدل جرى ، لأنه لا يكون الا بالريح التى تتلقى مؤخر المركب فى مجراه .

فأصبحنا يوم الثلاثاء المذكور على مثل تلك الحال ، وساعدت الريح ، فقرحنا وسررنا ، وطلعت علينا مراكب قاصدة مقصدنا ، فاستبشرنا بها ، وعلمنا أنا على مجرى مقصود ، والله الحمد والشكر على كل حال من الأحوال .

ثم انقلبت الريح غربية ، وهبت عاصفا ، فألجأتنا اضطرارا — بعد ^٢ أن جرت بنا بعض ليلة الأربعاء ويوم الأربعاء — الى مرسى من مراسى جزائر الرمانية ، وهو رأس الجزيرة ، ومنه الى الأرض الكبيرة مجاز فيه الاثنا ^٣

عشر ميلا . فأصبحنا يوم الخميس الخامس عشر لشعبان المكرم والثاني والعشرين لنونبر ، فحمدنا الله عز وجل على ما من به من السلامة . وتوافقت بعدنا الى ذلك المرسى خمسة مراكب : منها اثنان كانا قد أقلعا من بر الاسكندرية عن عهد نحو خمسين يوما ، فأسقطتهما^١ الريح .

فأقمنا بذلك المرسى أربعة أيام ، وجدد الناس به الماء والزاد ، لأن العمارة كانت منا قريبا . فنزل أهل الجزيرة ، وبايعوا أهل المركب في الخبز واللحم والزيت ، وما كان عندهم من الأدم . ولم يكن خبزهم برا خالصا ، انما كان خليطا بالشعير ، وكان يضرب للسواد ، فتهاقت الناس عليه على غلائه ، ولم يكن بالرخيص في سومه ، وشكروا لله على ما من به عليهم .

وفي هذا المرسى كمل لنا على ظهر البحر أربعون يوما ، والحمد لله على كل حال ، ومدة مقامنا بالمرسى لم يفتر عصف الريح الغربية ، وعادت أشد ما يكون هبوبا . فحمدنا الله تعالى على أن لم تأخذنا ونحن على ظهر البحر جارين ، والحمد لله على جميل صنعه .

وأقلعنا من المرسى المذكور يوم الاثنين التاسع عشر لشعبان المذكور ، والسادس والعشرين لنونبر ، بريح طيبة موافقة . فاستبشرنا بها ، واستطلعنا جميل صنع الله عز وجل ولطف قضاائه ، لا رب سواه . وتبادى سيرنا الى يوم الخميس الثاني والعشرين لشعبان، والتاسع والعشرين لنونبر .

ثم انقلبت الريح غربية ، وأنشأت سحابه فيها رعد قاصف ، وزجتها ريح عاصف ، وتقدمها برق خاطف ، فأرسلت حاصبا من البرد صبته علينا في المركب شآبيب متداركة ، فارتاعت له النفوس ، ثم أسرع انقشاعها ، وانجلى عن الأنفس ارتياعها . وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة ، وطالنا اليأس من مكمنه ، فلما أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا بر صقلية لائحا أمامنا ، فيالها بشرى ومرة لو لم يعد حصرة في كرة !

فأسينا ليلة السبت ، وهو أول يوم من دجبر ، ونحن على ادراكه في أقل من ثلثها أو منتصفها -- ولكل أجل كتاب وميقات ، وكما أمل تعترض دونه الآفات -- فما كان الا كلا ولا ، حتى ضربت في وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب ، وحالت بين الابصار والارتقاب ، وما زالت تعصف حتى كادت تنسف وتقصف^١ ، فحطت الشرع عن صواربها ، واستسلمت النفوس لباربها ، وتركنا بين السفينة ومجرها .

وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ، ومن الليل والبحر ، في ثلاث ظلم ، وغباب الموج تنوالى صدماته ، وتطفر الأبواب رجفاته . فنبذت قفوسنا كل أمنية ، ونأهبت للقاء المنية . وقطعنا هذه الليلة البهائم في مصادمة أهوال ، ومكابدة أوجال ، ومقاساة أحوال ، يالها من أحوال !

ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب ، أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب ، والأمواج

والرياح تتراعى بنا حيث شاءت ، وقد استسلمنا للقضاء وتمسكنا بأسباب الرجاء .

ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء : ففترت الرياح ، ولأن متن البحر ، وأسفر وجه الجو . وأصبحنا يوم الأحد ثانی دجبر ، والخامس والعشرين لشعبان ، وقد بدل لنا من الخوف الأمان ، وتطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الأكفان ، وساعدت^١ الريح بعض مساعدة ، فعدنا نطلب من البر أثرا بعد عين ، ونرجم الظنون بين متى وأين . والله عز وجل لطيف بعباده ، وكفيل بمعهود^٢ صنعه الجميل ومعتاده ، لا رب سواه .

شهر رمضان المعظم
عرفنا الله البركة والقبول فيه
بمنه وكرمه لا رب غيره

استهل هلاله ليلة الجمعة ، السابع لشهر دجبر ، ونحن بازاء الأرض الكبيرة على متن البحر مترددین . وقد من الله علينا بريح شرقية فاترة المهب ، سرنا بها سيرا رويدا حتى وصلنا هذا الموضع من ازاء الأرض الكبيرة المذكورة ، وأبصرنا فيها ضياعا وعمارة كثيرة أعلنا أنها من قلو زرية ، وهى من بلاد صاحب صقلية ، لأن بلاده فى الأرض الكبيرة تتصل نحو شهرين .

وبهذا الموضع نزل كثير من البلغرين فائزين بأنفسهم لمسغبة مست أهل المركب لعدم الزاد ونفاذه . وحسبك أنا كنا تقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس : تنقسمه بين أربعة منا ، ونبله ييسير من الماء ، فتبلغ به ، وكل من نزل من البلغرين باع فضله زاده ، فترفق المسلمون بابتياح ما أمكن منه

على غلاته ، واتتهى الى مقدار نخبة بدرهم من الخالص .

فما ظنك بمدة شهرين على ظهر البحر ، فى مسافة ظن ، الناس أنهم يقطعونها فى عشرة أيام أو خمسة عشر يوما الغاية ، فالحازم من أدخل زاد ثلاثين يوما ، وسائر الناس لعشرين يوما ، ولخمس عشرة يوما .

ومن العجب فى الاتفاقات فى الأسفار البحرية ، أنا استطلعنا على ظهر البحر أهلة ثلاثة أشهر : هلال رجب ، وهلال شعبان ، وهلال رمضان هذا . وفى يوم مستهله مع الصباح أبصرنا أماننا جبل النار - وهو جبل البركان المشهور بصقلية - فاستبشرنا بذلك . والله تعالى يعظم أجورنا على ما كابدناه ، ويختم لنا بأجمل الصنع وأسناه ، ويوزعنا فى كل حال شكر ما أولاه ، بمنه وكرمه .

ثم حركتنا من ذلك الموضع ربح موافقة . فلما كان عشى يوم السبت ، ثانى الشهر المذكور ، اشتد هبوبها فزجت المركب تزجية سريعة ، فلم يكن الا كلا ولا حتى أدتنا الى أول المضيق والليل قد جن . وهذا المضيق ينحصر فيه البحر الى مقدار ستة أميال ، وأضيق موضع فيه ثلاثة أميال يعترض من بر الأرض الكبيرة الى بر جزيرة صقلية ، والبحر بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم ، ويغلى غليان الرجل لشدة انحصاره وانضغاطه ، وشقه صعب على المركب . فاستمر مركبنا فى سيره ، والريح الجنوبية تسوقه

سوقا عنيقا ، وبرز الأرض الكبيرة عن يميننا ،
وبر صقلية عن يسارنا .

فلما كان مع نصف ليلة الأحد الثالث^١
لشهر المبارك ، وقد شارفنا مدينة مسينة من
الجزيرة المذكورة ، دهمتنا زعقات البحرين
بأن المركب قد أمالته الرياح بقوتها الى أحد
البرين ، وهو ضارب فيه . فأمر رئيسهم بحط
الشرع للحين ، فلم ينحط شرع الصاري
المعروف بالأردمون ، وعالجوه فلم يقدرُوا
عليه لشدة ذهاب الرياح به ، فلما أعياهم
مزقه الرانس بالسكين قطعا قطعاً طمعا في
توقيفه .

وفي أثناء هذه المحاولة سنح المركب بكلكله
على البر ، والتقاء بسكانيه - وهما رجلاه
اللذان يصرف بهما - وقامت الصيحة الهائلة
في المركب ، فجاءت الطامة الكبرى ،
والصدعة التي لم نطق لها جبرا ، والقارعة
الصماء التي لم تدع لنا صبرا ، والتدم
النصاري التداما ، واستسلم المسلمون لقضاء
ربهم استسلاما ، ولم يجدوا سوى جبل
الرجاء استمسكا واعتصاما . وتعاورت^١
الرياح والأمواج صفح المركب حتى تكسرت
رجله الواحدة ، فألقى الرانس مرسى^٢ من
مراسيه طمعا في تمسكه به فلم يغن شيئا ،
فقطع حبله وتركه في البحر .

فلما تحققنا أنها هي قمنا فشددنا للموت
خيائميننا ، وأمضينا على الصبر الجميل
عزائميننا ، وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين
المتاح . وقد علا الصياح ، وارتفع الصراخ من

أطفال الروم ونسائهم ، وألقى الجميع عن يد
الاذعان ، وقد حيل بين العير والنزوان^٣ .

ونحن قيام نبصر البر قريبا ، وتردد بين
أن نلقى بأنفسنا إليه سبحا ، أو نتظر لعل
الفرج من الله يطلع صباحا ، فأحضرنا نية
الثبات . والبحريون قد ضموا العشاري
لاخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم ،
فساروا به الى البر دفعة واحدة ، ثم لم يطبقوا
رده ، وقذفته الموج مكسرا على ظهر البر ،
فتمكن حينئذ اليأس من النفوس .

وفي أثناء مكابدة هذه الأهوال أسفر
الصبح ، فجاء نصر الله والفتح ، وحققنا
النظر ، فاذا بمدينة مسينة أمامنا على أقل من
نصف الميل ، وقد حيل بيننا وبينها ، فعمجنا
من قدرة الله عز وجل في تصرف أقداره ،
وقلنا رب مجلوب اليه حتفه في عتبة داره .

ثم تمكن الشروق ، فجاءتنا الزواريق
مغيثة . ووقعت الصيحة في المدينة ، فخرج
ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله ،
متطلعا لتلك الحال ، وبادرنا الى النزول في
الزواريق ، والأمواج لشدة لا يسكنها
الوصول الى المركب . فكان نزولنا فيها خاتمة
الهول العظيم ، ونجونا الى البر منجى أبي
نصر^١ عن قدره وتلف للناس بعض أسبابهم ،
فقتلوا عن الغنيمة بإيابهم^٢

ومن العجب - على ما أخبرنا به - أن
هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء ، من
المسلمين يتطلعون من المركب ، وليس لهم شيء
يؤدونه في نزولهم ، لأن أصحاب الزواريق

ذكر مدينة مسنية من جزيرة صقلية
اعادها الله تعالى

هذه المدينة موسم تجار الكفار ، ومقصد
جوارى البحر من جميع الأقطار ، كثيرة
الأرفاق برحاء الاسعار ، مظلمة الآفاق
بالكفر ، لا يقر فيها لمسلم قرار ، مشحونة
بعبدة الصليبان ، تنص بقاطنيها ، وتكاد
تضيق ذرعا بساكنيها ، مملوءة تننا^١ ورجسا ،
موحشة لا توجد الغريب انسا .

أسواقها نافقة خفيلة ، وأرزاقها واسعة
بارغاد العيش كفيفة ، لا تزال بها ليالك ونهارك
فى أمان ، وإن كنت غريب الوجه واليد
واللسان ، مستندة الى جبال قد انتظمت
حضيضها وخنادقها ، والبحر يعترض أمامها
فى الجهة الجنوبية منها .

ومرساها أعجب مراسى البلاد البحرية ، لأن
المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد
تمسه^٢ ، وتنصب منها الى البر خشبة
يتصرف^٣ عليها . فالحمال^٤ يصعد بحمله
اليها ، ولا يحتاج لزواريق^٥ فى وسقها ، ولا
فى تفريقها ، الا ما كان مرسيا على البعد
منها يسيرا ، فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف
الجياد فى مراتبها واصطبلاتها ، وذلك لافراط
عمق البحر فيها . وهو زقاق معترض بينها
وبين الأرض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال ،
ويقابلها منه بلدة تعرف بيرة وهى عمالة
كبيرة .

وهذه المدينة مسينة رأس جزيرة صقلية ،
وهى كثيرة المدن والمعائر والضياع ،
وتسميتها تطول . وطول هذه الجزيرة صقلية

أغلوا على الناس فى تخليصهم . فسأل عنهم
فأعلم بقصتهم ، فأمر لهم بمائة رباعى من
سكته ينزلون بها . وخلص جميع المسلمين^٦
عن سلام ، وقيل الحمد لله رب العالمين .
وفرغ النصارى جميع ما كان لهم فيه ، فأصبح
فى اليوم الثانى وقد جعلته الأمواج جذاذا ،
ورمت به الى البر أفلاذا ، فماد عبرة للناظرين ،
وآية للمتوسمين .

ووقع العجب من سلامتنا منه ، وجددنا
شكر الله عز وجل على ما من به من لطيف
صنعه وجميل قضائه ، وتخليصه لنا من أن
يكون هذا القدر ينفذ علينا فى الأرض
الكبيرة أو احدى جزائر الروم المعمورة ، فكنا
لو سلمنا نستعبد للأبد . والله عز وجل يميننا
على أداء شكر هذه المنة والنعمة ، وما تداركنا
به من لحظات الرأفة والرحمة . انه على ذلك
قدير ، وبعوائد الفضل والخير جدير ، لا اله
سواه .

ومن جملة صنع الله عز وجل لنا ، ولطفه
بنا فى هذه الحادثة ، كون هذا الملك الرومى
حاضرا فيها . ولولا ذلك لانتهب جميع ما فى
المركب انتهابا ، وربما كان يستعبد جميع
من فيه من المسلمين ، لأن المصادرة جرت لهم
بذلك . وكان وصول هذا الملك لهذه البلاد ،
بسبب أسطوله الذى ينشئه ، رحمة لنا .
والحمد لله على ما من به علينا من حسن نظره
الكفيل بنا ، لا اله سواه .

سبعة أيام ، وعرضها مسيرة خمسة أيام . وبها جبل البركان المذكور ، وهو يأنزر بالسحب لأفراط سموه ، ويعتم بالثلج شتاءً وصيفا دائما .

وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف ، وكفى بانها ابنة الأندلس في سعة العمارة ، وكثرة الخصب * والرفاهة : مشحونة بالأرزاق على اختلافها ، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها ، لكنها معمورة بعبدة الصلبان : يمشون في منابكها ، ويرتعون في أكفافها . والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم ، قد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم اتاوة في فصلين من العام يؤدونها ، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها . والله عز وجل يصلح أحوالهم ، ويجعل العقبى الجميلة مآلهم بمنه . وجبالها كلها بساكنة مثمرة بالفتح والشاه بلوط والبندق والاجاص ، وغيرها من الفواكه .

وليس في مسينة هذه من المسلمين الا نفر يسير من ذوى المهن ، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب .

وأحسن مدنها قاعدة ملكها ، والمسلمون يعرفونها بالمدينة ، والنصارى يعرفونها بيلارمة ، وفيها سكنى الحضريين من المسلمين ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم في الأرباض^١ كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع أقرائها وسائر مدنها كسرقوسة^٢ وغيرها . لكن المدينة الكبيرة ،

التي هي مسكن ملكها غليام ، أكبرها وأحفلها ، وبعدها مسينة . وبالمدينة — إن شاء الله — يكون مقامنا ، ومنها تؤمل سفرا إلى حيث يقضى الله عز وجل من بلاد المغرب إن شاء الله .

وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، واتخاذ الفتيان المجاييب — وكلهم أو أكثرهم كاتم أيمانه ، متمسك بشريعة الاسلام — وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم في أحواله والمهم من أشغاله ، حتى ان الناظر في مطبخته رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته ، والمرتمسون بخاصته ، وعليهم يلوح روق مملكته ، لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ، وما منهم الا من له الحاشية والخول والاتباع .

ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة — ولا سيما بحضرة ملكه المدينة المذكورة — وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة مظل على ساحل البحر . وهو كثير اتخاذ للفتيان والجواري ، وليس في ملوك النصارى أتراف في الملك ، ولا أنعم ولا أرفه ، منه . وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه ، وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زنته ، بملوك المسلمين .

وملكه عظيم جدا ، وله الأطباء والمنعمون ، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم . حتى انه متى ذكر له أن طيبيا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه ، وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه ، والله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنه ، وسنه نحو الثلاثين سنة ، كفى الله المسلمين عاديته وبسطته .

ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته — على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به — « الحمد لله حق حمده » ، وكانت علامة أبيه « الحمد لله شكرا لأنعمه » . وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلما كلهم .

ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور — وهو يحيى بن ^١ فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك — أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة . وهن على تكتم من ملكن في ذلك كله ، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة .

وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة دعر لها هذا الشرك ، فكان يتطلع في قصره ، فلا يسمع الا ذاكرا لله ولرسوله من نسائه وفتياته ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم : ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به ، تسكينا لهم

وأما فتياته الذين هم غيون دولته وأهل هباته في ملكه فهم مسلمون ، ما منهم الا من يصوم الأشهر تطوعا وتأجرا ، ويتصدق

تقربا الى الله وتزلفا ، ويفتك الأسرى ، ويربى الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن اليهم ، ويعمل الخير ما استطاع . وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة ، وسر من أسرار اعتناء الله عز وجل بهم

لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح ، من وجوههم وكبرائهم — بعد مقدمة رغبة منه اليها في ذلك — فاحتفل في كرامتنا وبرقا ، وأخرج اليها عن سره المكنون ، بعد مراقبة منه في مجلسه ، أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه . فسألنا عن مكة — قدسها الله — وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام ، فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا ، واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة — قدسهما الله — ورغب في أن لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك .

وقال لنا : أتمم مدلون باظهار الاسلام ، فائزون بما قصدتم له ، رابحون ان شاء الله في متجركم . ونحن كاتمون ايماننا ، خائفون على أنفسنا ، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا ، معتقلون في ملكة كافر بالله ، قد وضع في أعناقنا ريقة الرق ، فغايتنا التبرك ببقاء أمثالكم من الحجاج ، واستهداء أدعيتهم ، والاعتباط بما تلقاه منهم من تحفه تلك المشاهد المقدسة ، لتتحدا عدة للإيمان وذخيرة للأكفان .

فتفطرت قلوبنا له اشفاقا ، ودعونا له بحسن الخاتمة ، وأتحفاء ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه ، وأبلغ في مجازاتنا

ومكافأنا ، واستكتمنا سائر اخبوانه من
الفتيان ولهم فى فعل الجميل أخبار مأثورة ،
وفى افتكالك الأسرى صنائع عند الله
مشكورة ، وجميع خدمتهم على مثل
أحوالهم .

ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم
يحضرون عند مولاهم ، فيحين وقت الصلاة ،
فيخرجون أفذاذا من مجلسه فيقضون
صلاتهم . وربما يكونون بموضع تلحقه عين
ملكهم ، فيسترهم الله عز وجل ، فلا يزالون
بأعمالهم ونياتهم وبصنائعهم - الباطنة
للمسلمين فى جهاد دائم . والله ينفعهم ،
ويجمل خلاصهم بيمينه .

ولهذا الملك بمدينة مسينة المذكورة دار
صنعة (البحر) ^١ ، تحتوى من الأساطيل على
مالا يحصى عدد مراكبه ، وله بالمدينة مثل
ذلك .

فكان نزولنا فى أحد الفناديق ، وأقمنا
بها تسعة أيام . فلما كان ليلة الثلاثاء الثانى
عشر للشهر المبارك المذكور ، والثامن عشر
لدجنير ^٢ ، ركبنا فى زورق ، متوجهين الى
المدينة المتقدم ذكرها ، وضرنا قريبا من
الساحل بحيث نبصره رأى العين . وأرسل
الله علينا ريحا شرقية رخاء طيبة زجت الزورق
أهنا تزجية ، وسرنا نسرح اللحظ فى عمائر
وقرى متصلة ، وحصون ومعازل فى قن
الجبال مشرفة ^٣ .

وأبصرنا عن يميننا فى البحر تسع جزائر
قد قامت جبالا ^٤ مرتفعة على مقربة من بر

الجزيرة اثنتان * منها تخرج منها ^٦ النار
دائما ، وأبصرنا الدخان صاعدا منها ، ويظهر
بالليل نارا حمراء ^٧ ذات ألسن تصعد فى
الجو - وهو البركان المشهور خبره -
وأعلمنا أن خروجها من منافس فى الجبلين
المذكورين ، يصعد منها ^٨ نفس نارى بقوة
شديدة تكون عنه النار ، وربما قذف فيها
الحجر الكبير ، فتلقى به فى الساعة ^٩ الى
الهواء لقوة ذلك النفس ، وتمنعه من
الاستقرار والالتقاء الى القمر ، وهذا من
أعجب المسوعات الصحيحة .

وأما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة ،
المعروف بجبل النار ، فشأنه أيضا عجيب .
وذلك أن نارا تخرج منه فى بعض السنين
كالسيل العرم ، فلا تمر بشيء الا أحرقت ،
حتى تنتهى الى البحر ، فتتركب ثبجه على
صفحه حتى تغوص ، فيه . فسبحان المبدع
فى عجائب مخلوقاته ، الا اله سواه . الى أن
حللنا عشى يوم الاربعاء ، بعد يوم الثلاثاء
المؤرخ ، مرسى مدينة شفلودى ^١ وبينها وبين
مسينة مجرى ونصف مجرى .

ذكر مدينة شفلودى من جزيرة صقلية
اعادها الله تعالى

هى مدينة ساحلية ، كثيرة الخصب ،
واسعة المرافق ، منتظمة أشجار الأغراب
وغيرها ، مرتبة الأسواق : تسكنها طائفة من
المسلمين ، وعليها قنة جبل واسعة مستديرة ،

يومين ، وقد - تلبث الزوارق فى قطعها
- على ما أعلننا به - العشرين يوما
والثلاثين يوما ونيفا على ذلك .

فأصبحنا يوم الجمعة ، منتصف الشهر
المبارك ، على نية من السير فى البر على
أقدامنا ، فنفذنا لطيئنا ^١ ، وتحملنا بعض
أسبابنا ، وخلفنا بعض الأصحاب على
الأسباب الباقية فى الزورق ، وصرنا فى
طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر
ووارد ، وطوائف النصارى يتلقوننا ،
فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسونا . فرأينا
من سياستهم ، ولين مقصدهم مع المسلمين ،
ما يوقع الفتنة ^٢ فى نفوس أهل الجبل .
عصم الله جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم
من الفتنة بهم ، بعزته ومنه .

فاتهينا الى قصر سعد - وهو على فرسخ
من المدينة - وقد أخذ منا الاعياء ، فملأنا
اليه وبنا فيه . وهذا القصر على ساحل
البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من
عهد ملكة المسلمين للجزيرة ، لم يزل - ولا
يزال بفضل الله - مسكنا للعباد منهم ،
وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة
والورع . وهو موصوف بالفضل والبركة ،
مقصود من كل مكان ، وبازائه عين تعرفه
بعين المجنونة ، وله باب وثيق من الحديد ،
وداخله مساكن وعلالى مشرفة ويبوت
منتظمة ، وهو كامل مرافق السكنى .

وفى أعلاه مسجد من أحسن مساجد
الدنيا بهاء ، مستطيل ذو حنايا مستطيلة ،

فيها قلعة لم ير أمنع منها ، اتخذوها عدة
لأسطول يفجؤهم ^٣ من جهة البحر ، من جهة
المسلمين نصرهم الله .

وكان اقلعنا منها نصف الليل ، فجئنا
مدينة ثرمة ^٤ ضحوة يوم الخميس بسير رويد ،
وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلا ، فانتقلنا
فيها ^٥ من ذلك الزورق الى زورق ثان
اكثرناه ، لكون البحرين (الذين) صحبونا
فيه من أهلها .

ذكر مدينة ثرمة من الجزيرة المذكورة ، فتحها الله

هى أحسن وضعا من التى تقدم ذكرها ،
وهى حصينة تركب البحر وتشرف عليه ،
وللمسلمين فيها رضى كبير لهم فيه المساجد ،
ولها قلعة سامية منيعة ، وفى أسفل البلدة
حمة ^٦ قد أغتت أهلها عن اتخاذ حمام .
وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على
غاية ، والجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله فى
الخصب وسعة الأرزاق .

فأقمنا بها يوم الخميس الرابع عشر للشهر
المذكور ، ونحن قد أرسينا فى واد بأسفلها ،
ويطلع فيه المد من البحر ثم نحسر عنه ،
وبتنا بها ليلة الجمعة . ثم انقلب الهواء
غربيا ، فلم نجد للاقلاع سبيلا ، وبيننا
وبين المدينة المقصودة - المعروفة عند
النصارى بيلارمة - خمسة وعشرون ميلا ،
فخشينا طول المقام ، وحمدنا الله تعالى على
ما أنعم به من التسهيل فى قطع المسافة فى

مفروش بحصر فظيفة لم ير أحسن منها
صنعة ، وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلا
من أنواع الصفر والزجاج ، وأمامه شارع
واسع مستدير بأعلى القصر ، وفي أسفل
القصر بئر عذبة . فبتنا في هذا المسجد أحسن
مبيت وأطيبه ، وسمعنا الأذان وكنا قد طال
عهدنا بسماعه ، وأكرمنا القوم الساكنون
فيه ، وله امام يصلى بهم الفريضة والتراويح
في هذا الشهر المبارك .

وبمقربة من هذا القصر ، بنحو الميل الى
جهة المدينة ، قصر آخر على صفته يعرف
بقصر جعفر ، وداخله سقاية * تقور بماء
عذب .

وأبصرنا للنصارى في هذه الطريق كنائس
معدة لمضى النصارى ، ولهم في مدنها مثل
ذلك على صفة مارستانات المسلمين ، وأبصرنا
لهم بمكة وبصور مثل ذلك . فمعجبنا من
اعتنائهم بهذا القدر .

فلما صلينا الصبح توجهنا الى المدينة ،
فجئنا لدخل فمئنا ، وحملنا الى الباب
المتصل بقصور الملك الافرنجى - أراح الله
المسلمين من ملكته - وأدنا الى المستخلف^١
من قبله ليسألنا على مقصدنا ، وكذلك فعلهم
بكل غريب . فسلك بنا^٢ رحاب وأبواب
وساحات ملوكية ، وأبصرنا من القصور
المشرقة والميادين المنتظمة والبساتين والمراتب
المتخذة لأهل الخدمة ، ماراع أبصارنا ،
وأذهل أفكارنا ، وتذكرنا قول الله عز وجل :
« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا

لن يكفر بالرحمن لبيوتهم سققا من قضة
ومعارج عليها يظهرون^٣ » .

وأبصرنا فيما أبصرناه مجلسا في ساحة
فسيحة ، قد أحرق بها بستان ، وانتظمت
جوانبها بلاطات ، والمجلس قد أخذ استطالة
تلك الساحة كلها . فمعجبنا من طوله واشراف
مناظره ، فأعلمنا أنه موضع غداء^٤ الملك مع
أصحابه ، وتلك البلاطات والمراتب حيث تقعد
حكامه ، وأهل الخدمة والعمالة أمامه .

فخرج الينا ذلك المستخلف يتهادى بين
خديمين يحفان به ويرفمان أذياله ، فأبصرنا
شيخا طويل السيلة أيضا ذا أبهة ، فسألنا
عن مقصدنا وعن بلدنا بكلام عربى لين .
فأعلمناه ، فأظهر الاشفاق علينا ، وأمر
بانصرافنا بعد أن أحفى^٥ في السلام والدعاء ،
فمعجبنا من شأنه . وكان أول سؤاله لنا عن
خير القسطنطينية العظمى وما عندنا منه ،
فلم يكن عندنا ما نعلمه به ، وقد تقيد خبرها
بعد هذا .

وكان من أغرب ما شاهدناه من الأمور *
الفتاة ، أن أحد^٦ من كان قاعدا عند باب
القصر من النصارى ، قال لنا - عند
انصرافنا عن القصر المذكور - : تحفظوا بما
عندكم يا حجاج من العمال المسكين لئلا
يقموا عليكم ؛ وظن أن عندنا تجارة تقتضى
التكيس . فاستجاب له أحد النصارى
فقال : ما أعجب أمرك ، يدخلون حرم
الملك ، ويخافون من شيء ! ما كنت أود

لهم ٢ الا آلاف من الرباعيات ، انهضوا
بسلام لا خوف عليكم .

فقضينا عجا مما شاهدناه وسمعناه ،
وخرجنا الى أحد الفنادق فنزلنا فيه ، وذلك
يوم السبت السادس عشر للشهر المبارك ،
والثاني والعشرين للجمبر . وفي خروجنا من
القصر المذكور ، سلكنا بلاطا متصلا مشينا
فيه مسافة طويلة وهو مستقف ، حتى اتهمنا
الى كنيسة عظيمة البناء ، فأعلمنا أن ذلك
البلاط ممشي الملك الى هذه الكنيسة .

ذكر المدينة التي هي حضرة صقلية اعادها الله

هي بهذه الجزائر أم الحضارة ، والجامعة
بين الحسين غضارة ونضارة ، فما شئت بها
من جمال مخبر ومنظر ، ومراد عيش يانع
أخضر ، عتيقة أتيقة ، مشرقة مؤنقة ، تتطلع
بمرأى فتان ، وتتخايل بين ساحات وبساتين
كلها بستان ، فسيحة السكك والشوارع ،
تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجبية
الشان ، قرطبية البنيان ، مبانيها كلها بمنحوت
الحجر المعروف بالكذان ٢

يشقها نهر معين ، ويطرد في جنباتها أربع
عيون ، قد زخرفت فيها للملكها دنياء ،
فاتخذها حضرة ملكه الافرنجى - ، أباده الله .
تنظم بلبتها قصوره انتظام العقود في نحور
الكواكب ، ويتقلب من بساتينها ومياديتها بين
فزهة وملاعب . فكم له فيها - لا عسرت
به - من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع ،
وكم له بجهاتها ١ من ديارات قد زخرف

بنيانها ، ورفه ٢ بالاقطاعات الواسعة
رهباتها ، وكنايس قد صيغ من الذهب
والفضة صلبانها . وعسى الله عن قرب أن
يصلح لهذه الجزيرة الزمان ، فيعيدها دار
إيمان ، وينقلها من الخوف للأمان ، بعزته .
انه على ما يشاء قدير .

والمسلمين بهذه المدينة رسم باق من
الايان : يعبرون أكثر مساجدهم ، ويقيرون
الصلاة بأذان مسسوع ، ولهم أرباض قلا
اشرودا فيها بكنائهم عن النصارى ،
والأسواق معمورة بهم . وهم التجار فيها ،
ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ،
ويصلون الأعياد بخطبة دعائهم ٢ فيها
للعباسي .

ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم ،
وجامع يجتمعون للصلاة فيه ، ويحتفلون في
وقيده في هذا الشهر المبارك ، وأما المساجد
فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي
القرآن . وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم
المسلمين تحت ذمة الكفار ، ولا أمن ٤ لهم
في أموالهم ولا في حريمهم ولا آبائهم ،
تلاقاهم الله بصنع جميل بمنه .

ومن جملة شبه هذه المدينة بقرطبة
- والشيء قد تشبه بالشيء من إحدى
جهاته - أن لها مدينة قديمة تعرف بالقصر
القديم ، هي في وسط المدينة الحديثة ، وعلى
هذا المثال موضوع قرطبة حرسها الله . وبهذا
القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة ،
لها مناظر في الجو مظلمة ٢ تنحار الأبصار في
حسنها .

ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران : كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكي . أبصرناها يوم الميلاد - وهو يوم عيد لهم - عظيم - وقد احتفلوا لها رجالا ونساء ، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ، ويقع القطع بأنه أعجب مصالح الدنيا المزخرفة : جدرها الداخلة ذهب كلها ، وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله ، قد رصمت كلها بفصوص الذهب ، وكللت بأشجار الفصوص الأخضر ، ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج ، فتخطف الأبصار بساطع شعاعها ، وتحدث في النفوس فتنة نعوذ بالله منها

وأعلمنا أن بانيها ، الذي تنسب إليه ، أنفق فيها قناطر من الذهب ، وكان وزيرا لجد هذا الملك المشرك . ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار^١ من الرخام ملونة ، وعلت قبة على أخرى سوار كلها ، كتعرف بصومعة السوارى^٢ ، وهي من أعجب ما يبصر من البنيان . شرفها الله عن قريب بالأذان ، بلطفه وكرمه صنعه .

وزى النصرانيات في هذه المدينة زى نساء المسلمين ، فصيحات اللسن ملتحفات منتقبات . خرجن في هذا العيد المذكور ، وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائقة ، وانتقبن بالنقب الملونة ، واتعلن الأخفاف المذهبة ، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين ، من التحلى والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوما
يلق فيها جآزرا وظباء^٣
ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ، ويؤدى الى أباطيل اللهو ، ونعوذ به من تقييد يؤدى الى تقييد . انه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام ، ونزلنا بها في أحد فنادقها التى يسكنها المسلمون . وخرجنا منها صبيحة^٤ يوم الجمعة الثانى . والعشرين لهذا الشهر المبارك ، والثامن والعشرين لشهر دجنبر ، الى مدينة أطرابنش بسبب مركبين بها : أحدهما يتوجه الى الأندلس ، والثانى الى سبتة - وكنا أقلعنا الى الاسكندرية فيه - وفيهما^٥ حجاج وتجار من المسلمين .

فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة ، وأبصرنا محارث ومزارع لم تر مثل تربتها طيبا وكرما واتساعا ، فشبهناها بقنباينة قرطبة ، أو هذه أطيب وأمتن . وبتنا فى الطريق ليلة واحدة فى بلدة تعرف بعلمقة ، وهى كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد ، وسكانها وسكان هذه الضياع التى فى هذه الطريق كلها مسلمون .

وقمنا منها سحر يوم السبت الثالث والعشرين لهذا الشهر المبارك ، والتاسع والعشرين لدجنبر ، فاجتزنا بمقربة منها على

وبركنها من جهة الشرق ، مائلا الى الشمال على مقربة منها ، جبل عظيم مغرط السمو متسع ، فى أعلاه قنة تنقطع عنه ، وفيها معقل للروم ، وبينه وبين الجبل قنطرة ، ويتصل به فى الجبل للروم بلد كبير ، ويقال ان حريمه من أحسن حريم هذه الجزيرة ، جعلها الله سببا للمسلمين .

وبهذا الجبل الكروم والمزارع ، وأعلمنا ان به نحو أربعمئة عين متفجرة ، وهو يعرف بجبل حامد ، والصعود اليه هين من احدى جهاته . وهم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة ان شاء الله ، ولا سبيل أن يتركوا مسلما يصعد اليه ، ولذلك ما أعدوا فيه ذلك المعقل الخفين ، فلو أحسوا بحدائثه حصلوا حريمهم فيه ، وقطعوا القنطرة ، واعترض بينهم وبين الذى فى أعلاه متصل به خندق كبير .

وشأن هذا البلد عجيب ، فمن العجب أن يكون فيه من العيون المتفجرة ما تقدم ذكره ، وأطرابلس فى هذا البسيط ، ولا ماء لها الا من بئر على البعد منها ، وفى ديارها آبار قصيرة الأرشية مأوها كلها شرب لا يساغ . وألقينا المركبين اللذين يرومان الاقلاع الى المغرب بها ، ونحن ان شاء الله نؤمل ركوب أحدهما ، وهو القاصد الى بر الأندلس . والله بمعهود صنعه الجميل كفيل بمنه .

وفى غربى هذه البلدة — أطرابلس المذكورة — ثلاث جزائر فى البحر على نحو

حصن يعرف بحصن الحمة ٢ . وهو بلد كبير فيه حمامات كثيرة ، وقد فجرها الله ينابيع من ٢ الأرض ، وأسألهما عناصر لا يكاد البدن يحتملها لافراط حرها ٤ . فأجزنا منها واحدة على الطريق ، فنزلنا اليها عن الدواب ، وأرحننا الأبدان بالاستحمام فيها ، ووصلنا الى أطرابلس عصر ذلك اليوم ، فنزلنا فيها فى دار أكثرناها .

ذكر مدينة أطرابلس من جزيرة صقلية ، أعادها الله

هى مدينة صغيرة الساحة ، غير كبيرة المساحة ، مسورة بيضاء كالحمامة . مرساها من أحسن المراسى ، وأوقفها للمراكب ، ولذلك ما يقصد الروم كثيرا اليها ، ولا سيما المقلعون الى بر العدو ، فان بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة ، فالسفر منها اليها لا يتعطل شتاء ولا صيفا الا ريحا لا تهب الريح الموافقة ، فمجرهاها فى ذلك مجرى المجاز الغرب .

وبهذه المدينة السوق والحمام ، وجميع ما يحتاج اليه من مرافق المدن ، لكنها فى لهوات البحر لاحاطته بها من ثلاث جهات ، واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة ، والبحر فاغرقاه لها من سائر الجهات . فأهلها يرون أنه لا بد له من الاستيلاء عليها ، وان تراخى مدى أيامها ، ولا يعلم الغيب الا الله تعالى . وهى مرفقة موافقة لرخاء السمر بها ، لأنها على محرث عظيم . وسكانها المسلمون والنصارى ، ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس .

فرسخين منها ، وهى صفار متجاورة :
احداها ^١ تعرف بمليطمة ^٢ ، والأخرى يبابسة ،
والثالثة تعرف بالراهب ، نسبت الى راهب
يسكنها فى بناء أعلاها كأنه الحصن ، وهى ^٣
مكمن للعدو . والجزيرتان لا عمارة فيهما ،
ولا يعمر الثالثة سوى الراهب المذكور .

شهر شوال ، عرفنا بمنه وبركته

استهل هلاله ليلة السبت الخامس من
يناير ، بشهادة ثبتت عند حاكم أطرابنش
المذكورة ، بأنه أبصر هلال شهر رمضان ليلة
الخميس ، ويوم الخميس كان صيام أهل
مدينة صقلية المتقدم ذكرها ، فعيد الناس على
الكمال بحسب يوم الخميس المذكور .

وكان مصلاتنا فى هذا العيد المبارك بأحد
مساجد أطرابنش المذكورة ، مع قوم من أهلها
امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر كان
لهم ، فصلينا صلاة الغبراء . جبر الله كل غريب
الى وطنه .

وخرج أهل البلد الى مصلاهم مع صاحب
أحكامهم ، وانصرفوا بالطبول والبوقات .
فمجبنا من ذلك ، ومن اغضاء النصارى لهم
عليه . ونحن قد اتفق كراؤنا فى المركب
المتوجه — ان شاء الله — الى بر الأندلس ،
ونظرونا فى الزاد ، والله المتكفل بالتيسير
والتسهيل .

ووصل أمر من ملك صقلية بعقلة ^٤ المراكب
بجميع السواحل بجزيرته ، بسبب الأسطول
الذى يعمره ^٥ ويعدده ، فليس لمركب سبيل

للسفر الى أن يسافر الأسطول المذكور
— خيب الله سعيه ، ولا تتم قصده — فبادر
الروم الجنويون ، أصحاب المركبين -
المذكورين ، الى الصعود فيهما تحصنا ^١ من
الوالى . ثم امتد سبب الرشوة بينهم وبينه ،
فأقاموا بمركبيهم ^٢ ينتظرون هواء يقلعون به .
وفى هذا التاريخ المذكور ، وصلتنا أخبار
موحشة من الغرب : منها تغلب صاحب
ميورقة على بجاية . والله لا يحقق ذلك ،
ويجعل ^٣ العاقبة والهدنة للمسلمين ، بمنه
وكرمه .

والناس بهذه المدينة يرحمون الظنون فى
مقصد هذا الأسطول الذى يحاول هذا
الطاغية تعميمه — وعدد أجفانه ، فيما يقال ،
ثلاثمائة بين طرائد ومراكب ، ويقال أكثر من
ذلك ، ويستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل
الطعام ، والله يقطع به ، ويجعل الدائرة
عليه — فمنهم من يزعم أن مقصده
الاسكندرية ^٤ حرسها الله وعصمها ، ومنهم من
يقول ان مقصده ميورقة حرسها الله ، ومنهم
من يزعم أن مقصده افريقية حماها الله ، ناكثا
لعهده فى السلم بسبب الأنباء الموحشة الطارئة
من جهة المغرب . وهذا أبعد الظنون من
الامكان ، لأنه مظهر للوفاء بالعهد ، والله
يعين عليه ولا يعينه .

ومنهم من يرى أن احتفاله انما هو لقصد
القسطنطينية العظمى ، بسبب ما ورد من قبلها
من النبأ العظيم الشأن ، المهدى للنفوس بشائر
تتضمن عجائب من الحدثن ، وتشهد للحديث

المأثور عن المصطفى صلى الله عليه وسلم
بصدق البرهان . وذلك بأنه ذكر أن صاحبها
توفى ، وترك الملك بعده لزوجته ولها ابن
صغير ، فقام ابن عم له في الملك ، وقتل
الزوج المذكورة ، وثقف الابن المذكور .

ثم إن ابنا للتائر المذكور عطفته الرحمة على
الابن المعتقل ، فأطلق سبيله — كان أبوه
قد أمره بقتله — فرمت به الأقدار الى هذه
الجزيرة بعد خطوب جرت عليه ، فودها على
حالة ابتذال ، ومهنة استعمال خادما لأحد
الرهبان ، مسدلا على شارقة الملوكية سرا
من الامتحان ففشى الأمر وذاع السر ، ولم
يعن عنه ذلك الستر ، فاستحضر عن أمر
الملك الصقلي غليام المذكور قبل واستطق
واستفهم ، فزعم أنه عبد لذلك الراهب
وخديمه .

ثم إن طائفة من الروم الجنوبيين ، المسافرين
الى القسطنطينية ، أثبتوا صفته ، وحققوا أنه
هو مع مخايل ودلائل ملوكية لاحت منه . منها
— فيما ذكر لنا — أن الملك غليام خرج في
يوم زينة له ، وقد اصطف الناس للسلام
عليه ، وأحضروا الفتى المذكور في جملة
الخاصة . فصنع الجميع خدمة للملك وتعظيما
لطلوغه عليهم ، الا ذلك الفتى ، فإنه لم يزد
على الايماء في السلام ، فعلم أن الهمة الملوكية
منعته من المدخل مدخل السوق . فاعتنى به
الملك غليام ، وأكرم مثواه ، وأزكى عيونه
الاحتراس عليه ، خوفا من اغتيال يلحقه
بتدسيس من ابن عمه التائر عليه .

وكانت له أخت موصوفة بالجمال علق بها
ابن العم التائر على الملك المذكور ، فلم
يمكنه تزويجها بسبب أن الروم لا تنكح في
الأقارب . فحمله الحب المصمى ، والهوى
المصم المعنى ، والسعادة التي تفضى بصاحبها
الى العاقبة الحسنى ، وترمى على أخذها ،
والتوجه بها الى الأمير مسعود ، صاحب
الدروب وقونية وبلاد المعجم المجاورة
للقسطنطينية — وقد تقدم ذكر غنائها^١ في
الاسلام فيما مضى من هذا التقييد ، وحسبك
أن صاحب القسطنطينية لم يزل يؤدي الجزية
اليه ، ويصالحه على ما يجاوره من البلاد —
فأسلم مع ابنة عمه على يده .

وسيق له صليب ذهب قد أحصى عليه في
النار ، فوضعه تحت قدمه — وهي عندهم
أعظم علامات الترك^٢ لدين النصرانية ، والوفاء
بذمة دين الاسلام — وتزوج ابنة العم
المذكورة وبلغ هواه ، وأخذ حيوش المسلمين
معه الى القسطنطينية فدخلها بهم ، وقتل من
أهلها نحو الخمسين ألفا من الروم ، وأعان
الاغريقيون^٣ على فعله — وهم فرقة من
فرق أهل الكتاب^٤ ، وكلامهم بالعربية ،
وبينهم وبين سائر الفرق من جنسهم عداوة
كامنة ، وهم لا يرون أكل لحم الخنزير —
فشقوا نفوسهم من أعاديهم ، وقرع الله ببع
الكفر بعضه ببعض .

واستولى المسلمون على القسطنطينية
ونقلت أموالها كلها — وهو مالا يأخذه
الاحصاء — الى الأمير مسعود ، وجعل من

المسلمين فيها ما ينيف على الأربعين ألف فارس ، واتصلت بلادهم بها . وهذا الفتح — اذا صح — من أكبر شروط الساعة ، والله أعلم بغيه .

ألفينا هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضا على أسنة المسلمين والنصارى ، محققين له لا شك عندهم فيه أنبات به مراكب الروم التى وصلت من القسطنطينية ^٢ . وكان أول سؤال مستخلف الملك بالمدينة لنا ، يوم أحضرنا لديه عند دخولنا المدينة ، عما عندنا من خبر القسطنطينية ^٢ ، فلم يكن عندنا علم ، ولا تعرفنا معنى السؤال عنها الا بعد ذلك .

وتحققوه أيضا من جهة ملكها هذا الصبى ، وما كان من اتباع الثائر عليه اياه عيونا تروم اغتياله فهو اليوم — بسبب ذلك — عند صاحب صقلية محترس بحفاظ عليه ، لا يكاد يصل لحظ العيون اليه . وأخبرنا أنه رطيب غصن الصبا ، محتدم حمرة الشباب ، صقيل رونق الملك عليه ، فاظر ^٦ فى علم اللسان العربى وغيره ، بارع فى الأدب الملوكى ، ذو دهاء على فتوة سنه وغمرية شبيبته .

فالملك الصقلى — على ما يذكر — يروم توجيه الأسطول المذكور الى القسطنطينية ^٢ ، أنفة لهذا الصبى المذكور وما جرى عليه . وكيفما توجه الأمر فيه من هذه المقاصد ، فالله عز وجل ينكته خاسرا على « عقبه » ويعرفه شؤم مذهبه ، ويجعل قواصف الرياح خاسفة به ، انه على ما يشاء قدير .

وهذا الخبر القسطنطينى — حقه الله — من أعظم عجائب الدنيا ، وكوائنها المرتقبة . والله القدرة البالغة فى أحكامه وأقداره .

شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الرابع من شهر فبراير ، ونحن بمدينة أطرابنش المتقدم ذكرها ، منتظرين انصلاح فصل الشتاء واقلاع المركب الجسوى الذى أملنا ركوبه الى الأندلس ، ان شاء الله عز وجل ، والله سبحانه ييمن مقصدنا ، ويسر مرامنا ، يمنه وكرمه .

وفى مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها — دمرهم الله — وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة ، والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك ، الى طوارىء دواعى ^١ الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم .

وربما تسبب الى بعض أشياخهم أسباب نكالية تدعوه الى فراق دينه : فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القرية لبعض فقهاء مدينتهم ، التى هى حضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف بابن زرعة : ضغطته العمال ^٢ بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس فى دين النصرانية ، ومهر فى حفظ الانجيل ، ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الأحكام النصرانية . وربما طرأ حكم اسلامى فيستفتى أيضا فيه ، لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين .

وكان له مسجد بازاء داره أعاده كنيسة — نموذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة — ومع ذلك فأعلمنا أنه يكتم إيمانه ، فلمله داخل تحت الاستثناء فى قوله « الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ١ » .

ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم : القائد أبو القاسم ابن حمود ، المعرف بابن الحجر ، وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابرا عن كابر . وقرر لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح ، مريد للخير ، محب فى أهله ، كثير الصنائع الأخروية من افتكالك الأسارى ، وبث الصدقات فى الغرياء والمتقطمين من الحجاج ، الى مآثر جمة ومناقب كريمة . فارتجت هذه المدينة لوصوله .

وكان فى هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ، ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه ، افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين — أيدهم الله — فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة ، وتوالت عليه مصادرات أغرمته فيها على الثلاثين ألف دينار مؤمنية ، ولم يرل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقى دون مال .

فاتفق فى هذه الأيام رضى الطاغية عنه ، وأمره بالنفوذ لهم من أشغاله السلطانية ، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله . وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة رغبة

فى الاجتماع بنا ، فاجتمعنا به ، فأظهر لنا من باطن حاله ، وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ، ما يبكى العيون دما ، ويذيب القلوب ألما . فمن ذلك أنه قال : كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتى ، فلعل البيع كان يتخلصنا مما نحن فيه ، ويؤدى بنا الى الحصول فى بلاد المسلمين . فتأمل حالا يؤدى بهذا الرجل — مع جلالة قدره وعظم منصبه — الى أن يتمنى مثل هذا التمنى ، مع كونه مثقلا عيالا وبنين وبنات ! فسألنا له الله عز وجل حسن التخليص مما هو فيه ، ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة . وواجب على كل مسلم الدعاء لهم فى كل موقف يقفه بين يدي الله عز وجل .

وفارقناه باكيا مبكيا ، واستمال نفوسنا بشرف منزعه ، وبخصوصية شمالكه ، ورزاقه حصاته ١ ، وشمول مبرته وتكرمته ، وحسن خلقه وخليقته . وكنا قد أبصرنا له ولأخوته ولاهل بيته بالمدينة ديارا كأنها القصور المشيدة الأئقة ، وشأنهم بالجملة كبير ، لا سيما هذا الرجل منهم . وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج وصعاليكهم ، أصلحت أحوالهم ، ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعه بها ، ويجازيه الجزاء الأوفى عليها بمنه .

ومن أعظم ما منى به أهل هذه الجزيرة ، أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجه ، أو تغضب المرأة على ابنتها ، فنلحق المنسوب عليه أفة تؤديه الى التطارح فى

الكنيسة ، فيتنصر ويتعمد ، فلا يجد الأب لابن سيلا ، ولا الأم للبنت سيلا . فتخيل حال من منى بمثل هذا في أهله وولده ، ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ! فهم الدهر كله في مدارات الأهل والولد خوف هذه الحال .

وأهل النظر في العواقب منهم ، يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة أفریطس من المسلمين في المدة السالفة ، فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى ، والاستدراج الشيء بعد الشيء حال بعد حال ، حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته ، وحققت كلمة العذاب على الكافرين . والله غالب على أمره ، لا اله سواه .

ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور فى نفوس النصارى — أبادهم الله — أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى فى الجزيرة مسلم الا وفعل فعله ، اتباعا له واقتداء به ، تكفل الله بمعصته جميعهم ، ونجاهم مما هم فيه ، بفضل وكرمه .

ومن أعجب ما شهدناه من أحوالهم التى تقطع النفوس اشفاقا ، وتذيب القلوب : رافة وحنانا ، أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج ، راغبا فى أن يقبل منه بنتا بكرى صغيرة السن قد راهقت الادراك ، فان رضىها تزوجها ، وان لم يرضها زوجها ممن رضى لها من أهل بلده ، ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أيها واخوتها ، طمعا

فى التخلص من هذه الفتنة ، ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين . فطاب الأب والأخوة نفسا لذلك ، لعلهم يجدون السبيل للتخلص الى بلاد المسلمين بأنفسهم اذا زالت هذه العقلة المقيدة عنهم . فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك ، وأغناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والآخرة .

وطال عجبنا من حال تؤدى بانسان الى السماح بمثل هذه الوديعه المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يفرها ، واحتمال الصبر عنها ، ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها . كما أنا استغربنا حال الصبية — صانها الله — ورضاهها بفراق من لها ، رغبة فى الاسلام ، واستمساكا بعروته الوثقى . والله عز وجل يعصمها ويكفلها ، ويؤنسها بنظم شملها ، ويجمل الصنع لها بمنه . واستشارها الأب فيما هم به من ذلك ، فقالت له : ان أمسكتنى فأنت مسئول عنى ! وكانت هذه الصبية دون أم ، ولها أخوان وأخت صغيرة أشقاء لها .

شهر ذى الحجة ، عرفنا الله بمنه وبركته

غم هلاله علينا لتسوالى الأنواء ، فأكلتنا أيام شهر ذى القعدة . بحسابه من ليلة الأربعاء السادس لشهر مارس ، ونحن بهذه المدينة المذكورة ، طامعين فى قرب السفر ، مستبشرين بطيب الهواء ، والله يسر مرامنا ، ويتكفل بسلامتنا بعزته . واتفق أن أبصرنا الهلال ليلة الأربعاء كبرا ، فعلم أنه من ليلة الثلاثاء ، فانتقل حساب الشهر اليها .

وفى ظهر يوم الأربعاء التاسع من الشهر المذكور ، والثالث عشر من مارس ، وهو يوم عرفة - عرفنا الله بركته وبركة الموقف الكريم فيه بعرفات - كان صعودنا الى المركب ، بمنه ^١ الله ووزقا السلامة فيه ، مبيتين للسفر - قرب الله علينا مسافته - فأصبحنا على ظهر المركب صحة يوم عيد الأضحى ، فنعنا الله بمقاساة الوحشة فيه ، ونحن نيف على الخمسين رجلا من المسلمين . عصم الله الجميع ، ونظم شملهم بأوطانهم بمنه وكرمه ، انه سبحانه كليل بذلك .

ورمنا الاقلاع فلم توافق الرياح ، فلم نزل تتردد من المركب الى البر ، وليت للسفر ^٢ كل ليلة اثني عشر يوما ، الى ان أدن الله بالاقلاع صبيحة يوم الاثنين الحادى والعشرين لذي الحجة المذكور ، والخامس والعشرين لمارس ، فأقلعنا على بركة الله تعالى فى ثلاثة مراكب من الروم ، قد توافقت على الاصطحاب فى الجرى ، وأن يمك المتقدم منها على المتأخر . فوصلنا الى جزيرة الراهب - وقد تقدم ذكرها فى هذا التقييد - وبينها وبين أطرابنش نحو ثمانية عشر ميلا . فتعيرب الرياح علينا ، فملنا الى مرماها .

فكان من الاتفاق العج أن ألقينا فيها مركب مركون الجوى ، المقلع من الاسكندرية بنحو مائتى رجل وليف من أصحابنا الحاج المغاربة الذين ^٣ كنا فارقناهم بمكة - قدسها الله - فى ذى الحجة من سنة تسع ، ولم نسمع لهم خبرا منذ فارقناهم ، ولا سمعوا لنا .

وكان فيهم جماعة من أصحابنا من أهل غرناطة . منهم الفقيه أبو جعفر ابن سعيد ، صاحبنا ونزيلنا بمكة مدة مقامنا فيها ، فلحين ما علموا بنا ، تطلعوا الينا من المركب متعلقين بحافاته وجوانه ، رافعين أصواتهم مشرى السلامة واللقاء ، مسرورين بالاجتماع ، باكين من الفرح دهشين . داهلين لوقوع المسرة من نفوسهم ، ونحن لهم على مثل تلك الحال .

فكان يوما مشهورا ^١ ، اتخذناه عقب العيد عيدا جديدا ، ونزل الأصحاب بعضهم الى بعض ، وباتوا وبتنا بأسر ليلة وأنعمها ، وجعلنا هذا الاجتماع غنونا كريما لما تؤمله من انتظام الشمل بالأوطان ، ان شاء الله عز وجل

وأهب الله علينا ريحا طيبة فى سحر تلك الليلة ، وهى ليلة الثلاثاء الثانى والعشرين من الشهر المذكور ، فأقلعنا بها ونحن فى أربعة مراكب ، كلها تؤمل جزيرة الأندلس بحول الله تعالى . وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجى المراكب تزجية حثيثة ، ونحن من الشوق الى الأندلس بحال تكاد لها النفوس تقوم مقام الرياح فى حث الرياح وانزعاجها ، والله يمين بالتسهيل والتعجيل . ثم اقلبت الريح غربية بعد مسير يوم وليلتين ، فضربت فى وجوهنا فأنكصتنا على الاعقاب ، فرجعنا عودا على بدء الى مرسى جزيرة الراهب ، فوصلنا اليه ليلة الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

ثم أقلعنا منه عشى يوم الجمعة بعده ، منفردين دون المراكب المذكورة ، فازعجتنا

ريح شديدة خرق لها المركب فى الجرى .
فأصبحنا يوم الأحد السابع والعشرين من
الشهر ، ونحن على طرف جزيرة سردانية ،
وقد قطعناها جريا - وطولها أزيد من مائتى
ميل - فاستشرنا وسررنا ، وقدر للمركب
فى يوم وليلتين قطع نيف على خمسمائة ميل ،
فكان أمرا مستغربا .

ثم ان الريح المواقفة ركدت عنا ، وهبت
ريح أسقطتنا ليلة الاثنين الثامن والعشرين . منه
— وهو أول ابريل — الى جهة بر أفريقية ،
فأرسينا يوم الاثنين المذكور بجزيرة تعرف
بخالطة ٢ ، وهى جزيرة غير معمورة ، ويقال
انها كانت معمورة فى القديم ، وهى مقصد
العدو ، وبينها وبين التر المذكور . نحو ثلاثين
ميلا ، وهو منا رأى العين . فأقمنا بها بعد
أهوال لقيناها فى دخول مرساها ، عصم الله
منها ، وتوالت الأنواء علينا فيها ونحن نتنظر
فرجا من الله تعالى ، وكان مقامنا فيها أربعة
أيام آخرها يوم الخميس مستهل محرم .

شهر محرم سنة احدى وثمانين
عرفنا الله بركتها بمنه

غم هلاله علينا ، فحسبناه على الكمال من
ليلة الخميس الرابع لشهر ابريل ، عرفنا الله
بركة هذه السنة ويمناها ، ورزقنا خيرها ،
ووقانا شرها ، ومن علينا بنظم الشمل فيها .
انه سميع مجيب .

وفى ليلة الجمعة الثانى منه ، أهب الله
علينا ريحا شرقية أقلعنا بها وهو لين رخاء ،
الى أن استشرى فعاد ريحا شديدة ، جرى

بها المركب أقوى جرى وأعدله . وما زلنا
منذ ركبنا البحر نتنسم هذا الأفق الشرقى ،
شوقا الى ريحه ، فلا يهب منه نسيم ، حتى
خلناه لعدمه عنقاء مغربا ١ الى أن تداركنا
الله بلطفه وجميل صنعه ، فأجراه لنا الآن فى
شهر نيسان ، عرفنا الله السلامة بمنه وكرمه .

وصحبتنا هذه الريح الشرقية ٢ نحو يومين
سرنا فيهما ٣ سيرا حثيثا ، وتركنا جزيرة
سردانية عن يميننا ، ثم تلاعبت بنا الرياح
المختلفة ، فأقسما بها نضرب البحر طولا
وعرضا ، ولا يتراءى لنا بر ، حتى ساءت
ظنوتنا ، وتوهمنا اسقاط الرياح لنا ٤ الى جهة
بر برشلونة — دمرها الله — الى أن أذن الله
بالفرج ، فأبصرنا بر جزيرة يابسة ليلة
السبت ، العاشر من الشهر المذكور ، ونحن
لا نكاد نتبينه — لبعد — خيالا خفيا .

فلما كان يوم السبت المذكور بان لنا ،
فدخلنا مرسى الجزيرة المذكورة مع الليل ،
بعد * مكابدة اختلاف الرياح فى دخوله ،
فأرسينا والمدينة منا على مقدار أربعة أميال .
وكان ارساؤنا بازاء جزيرة فرمنتيرة ١ ، وهى
منقطعة عن جزيرة يابسة ، وبينهما ٢ مقدار
أربعة أميال أو خمسة ، وفيها قرى كثيرة
معمورة . فأقمنا بمرساها ، ونحن بمقربة من
الجبلىن المنقطعين المتناظرين المعروفين بالشيخ
والمجوز .

وفى تلك الليلة مع المغيب أبصرنا جبال بر
الأندلس ، وأقربها منا جبل دانية المعروف
بقاعون ٣ ، فحدقت الأبصار لهذا البر سرورا

السبت الى مرسية ، ومنها فى اليوم بعينه الى لبرالة ^٢ ، ثم منها يوم الأحد الى لورقة ، ثم منها يوم الاثنين الى المنصورة ، ثم منها يوم الثلاثاء الى قبالش ^٣ بسطة ، ثم منها يوم الأربعاء الى وادى آش ، ثم منها يوم الخميس الثانى والعشرين لمحرّم والخامس والعشرين لأبريل الى المنزل بغرناطة .

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالاياب المسافر

والحمد لله على الصنع الجميل الذى أولاه ،
والتيسير والتسهيل الذى وآله ، وصلواته
على سيد المرسلين والآخرين : محمد رسوله
الكريم ومصطفاه ، وعلى آله وأصحابه
الذين اهتموا بهداه ، وسلم وشرف وكرم .

فكانت مدة مقامنا ، من لدن خروجنا من
غرناطة الى وقت ايابنا هذا ، عامين كاملين
وثلاثة أشهر ونصفا ، والحمد لله رب العالمين ^٢ .

بمرآه ، واستبشرت الأنفس بالدفن منه .
وأصبحنا يوم الأحد الحادى عشر من الشهر
بالمرسى المذكور ، والريح غربية ، ونحن ننتظر
تتيم الصنع الجميل من الله عز وجل بارسال
الريح الموافقة نشرنا بين يدي رحمته ، ان
شاء الله .

وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثالث ^٤ عشر
منه ، أقلعنا - على اليمن والبركة - بريح
شرقية لينة المهب لها نفس خافت ، داعين لله
عز وجل فى احياء ذمائمها ^٥ ، وتقوية
اجرائها ، وجبال دانية أمامنا رأى العين ، والله
يتم فضله علينا ، ويكمل صنعه بعزته لنا .
وتمادت وانتشرت ، بفضل الله تعالى ، فنزلنا
بقرطاجنة عشى يوم الخميس الخامس ^٦ عشر
منه ، شاكرين لله على ما من به من السلامة
والعافية ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته
على محمد خاتم النبيين وامام المرسلين .

ثم أقلعنا منها اثر صلاة الجمعة السادس
عشر منه ، فبتنا فى فحص قرطاجنة ، بالبرج
المعروف ببرج الثلاثة صهاريج ، ثم منه يوم

